



تأليف

مشهور حسن محمود سلمان



دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٤١



تأليف

مشهور حسن محمود سلمان

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


الإمام القرطبي

هٰـذَا الرَّجُـل

* الإمام القرطبي من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة.

ابن فرحون والداودي

* أوقاته معمورة ما بين توجُّه وعبادة وتصنيف.

المقّري

* له تصانيف مفيدة تدلّ على كثرة اطّلاعه ووفور علمه، منها: تفسير الكتاب العزيز، وهو مليح إلى الغاية.

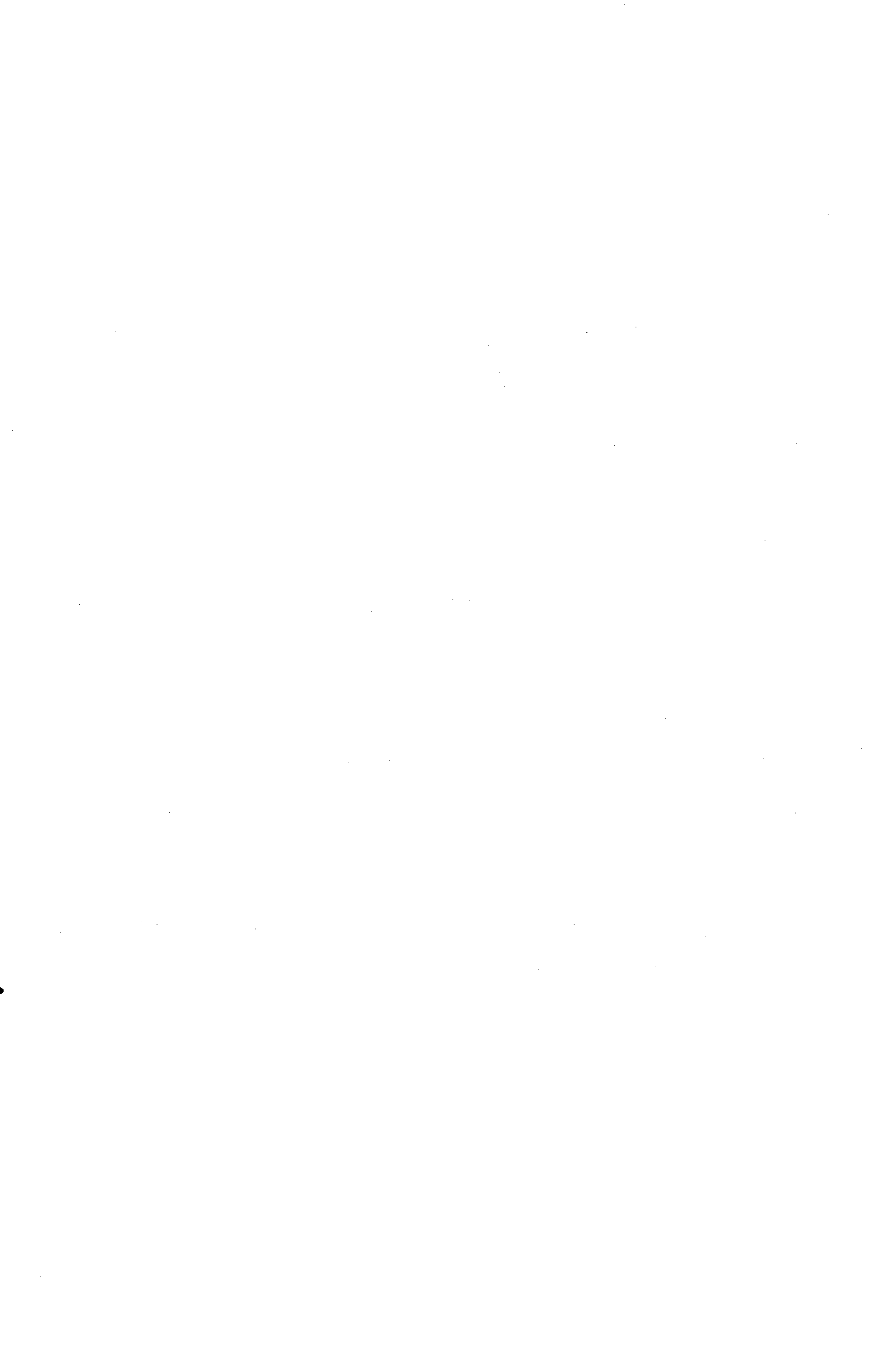
ابن شاكر الكتبي

* رحل وكتب وسمع، وكان يقظاً فهماً حسن الحفظ، مليح النظم، حَسَن المذاكرة، ثقة حافظاً.

الذهبي

* العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح، الإمام، القرطبي، إمام متفنّن، متبحِّر في العلم، له تصانيف مفيدة تدلّ على كثرة اطّلاعه ووفور عقله وفضله.

الذهبي



المقــدّمَة

الحمد لله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل كتابه إلى خاتم رسله وأنبيائه ليدّبروا آياته وليتذكر أولـو الألباب، ويسّره بلسانه ليبشّر به المتقين وينذر به قوماً لُدّاً. فكان هذا الكتاب ينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر. والصلاة والسلام على معلّم الناس الخير، النبي الأُمي محمد بن عبد الله. أوتي القرآن ومثله معه، فبيَّن عن الله ما أراد، وعلى آله وصحابته الطيبين الأبرار.

وبعد:

فهذه دراسة أساهم بها في سلسلة (أعلام المسلمين) تتناول شخصية من أبرز الشخصيات من حيث أثرها وما تَركَتْ من مؤلَّفات حسان، ما زالت ـ وستبقى ـ كنوزاً للباحثين. ومرجعاً أصيلاً للعلماء والمطّلعين. وكان صاحب هذه الشخصية يتحلى بكثير من الخلال العالية، والأخلاق الرفيعة في علاقاته وصلاته، وشغفه بالعلم، وصبره على البحث والإنتاج والتأليف. جعلت منه عالماً عظيماً. وعَلَماً من (أعلام المسلمين). ألا وهو الإمام الجليل أبو عبد الله القرطبي شيخ أئمة التفسير.

وقد تناولت في دراستي هذه النواحي، وما يتصل بها من قريب، فلم يكن بد من الإلمام السريع بعصر الإمام القرطبي والتعرض للحالة السياسية والعلمية والاجتماعية. وخاصة في الأندلس (البلدة التي نشأ فيها) ومصر (البلدة التي هاجر إليها) وقد ظفرت بنقولات ضافياتٍ

غاليات في هذا الشأن عن الإمام المترجَم نفسِه. وكذا بكلامٍ له عن أهم المعارك التي قامت في زمانه وأوانه، وكان هذا كله في الفصل الأول (سيرة الإمام القرطبي الشخصيّة والعلمية). وتعرضت فيه قبل ذلك لاسمه وكنيته ونسبه ولقبه. وولادته ونشأته وطلبه للعلم ومهنته، وتعرضت فيه أيضاً لرحلاته ووفاته.

أما الفصل الثاني فكان عن (أخلاقه وصفاته وثناء العلماء عليه): رسمتُ فيه صورةً لشخصية الإمام أبي عبد الله القرطبي الخُلُقيّة، فتكلمت عن زهده وورعه وصلاحه، ومظاهر هذا الورع، والكرامات التي منحه الله إياها، وتعرضتُ فيه لشجاعته وجرأته في الحق، ناقلاً كلاماً له نفيساً عن حكام عصره وظلمهم وبُعْدهم عن الشرع الحنيف. وبيّنتُ الغيرة التي كان يتمتع بها صاحب الترجمة والحرص على الدين، ثم عرّفتُ ببساطته وتواضعه، وجدّيته في الحياة ومضاء عزيمته، وختمتُ هذا الفصل بالكلام على لين جانبه.

أما الفصل الثالث فجعلتُه في (شيوخه وأصحابه) وقسمتُ شيوخه إلى قسمين: شيوخه بالأندلس وشيوخه بمصر، ثم تكلمتُ عن شيوخ آخرين له وتكلمت أيضاً عن أصحابه، وأسهبتُ في هذا الفصل على نحو لا يوجد في كتابٍ من الكتب التي ترجمتْ له، وكان دليلي في ذلك كله كتب القرطبي نفسها، ففيها مادة في هذا الباب فاتت كل من ترجم له فيما وقفتُ عليه.

أما الفصل الرابع فهو في (تلاميذه): وذكرتُ خمسة منهم بعد كَدّ وتعب وكثرة بحث وفَتْش، وثلاثة منهم ممن انفردت بهم هذه الدراسة عن غيرها، ولله الحمد والمنّة.

أما الفصل الخامس فكان في (مؤلّفات الإمام القرطبي) فتكلمت فيه بادىء ذي بدء عن ميزاتها ثم وضعت (ثبتاً) فيها: مقسماً إياها إلى

مجموعتين: الأولى: الكتب المطبوعة، وأطلتُ فيها الكلام على تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» مبتدءاً بكشف وهم لبعض العلماء في نسبته لغير صاحبه. ثم مدحه وثناء العلماء عليه واهتمام العلماء وطلبة العلم به والجهود التي بُذلت وقامت حوله. ثم وصفه وبيان محتوياته. ثم منزلة الأحاديث الموجودة فيه، ثم ردوده فيه على أهل الزيغ والضلالات، مثل: الصوفية والشيعة، ثم تكلمتُ عن الإسرائيليات فيه، ثم ختمتُ الكلام عليه بآراء انفرد بها فيه، ثم سردتُ سائر تصانيفه المطبوعة، مبيّناً طبعاتها ومقوّماً لها، وتكلمتُ عن نسخها ومختصراتها ومحتوياتها مستفيداً قدر الإمكان من كلام القرطبي عنها، وعملت بعد ذلك على سرد الكتب التي ما زالت مخطوطة أو مفقودة (وهي المجموعة الثانية) وعرفتُ بها على نحو التعريف بالمجموعة التي سبقتها، ثم كشفتُ أوهاماً في بعض الكتب التي نُسِبَت له وهي ـ على التحقيق ـ لغيره، وأزعم أني ذكرتُ في هذا المبحث أشياء كثيرةً نَدَّت عمن سبقني ممن ترجم له وخصّ هذا الإمام بترجمةٍ مستقلّة، والله الموّفق، لا ربّ سواه.

أما الفصل قبل الأخير (الفصل السادس) فكان في (تحليل شخصية الإمام القرطبي العلمية) فبعد أنْ بيّنتُ مكانة هذا الإمام العظيم تكلمتُ عن أهم مميزات شخصيته العلمية، مثل: أمانته، واجتهاده وكثرة قراءته ومطالعته، وإنصافه وعدم تعصّبه، ومالكيّته، وموضوعيته ولين جانبه وعفّة لسانه وسهولة ورقّة عبارته، وحُسْن فهمه ومناظرته وتصنيفه وتفريعه وعرضه للمسائل، ثم ختمتُ هذا الفصل بشمولية معرفته، مستدلاً على ذلك بأمثلةٍ من كتبه وكلامه رحمه الله تعالى.

أما الفصلِ الأخير فجعلتُه عن (القرطبي والمذاهب والفِرَق). وذكرتُ فيه أمثلةً كثيرة فيها تقويم القرطبي لفِرَق بَعُدَتُ عن جادة الصواب. وانحرفت ـ كلٌّ بقدرها ـ عن الحق والسداد، وبعضها زال

واندثر ولم أُفصِّل في موقفه رحمه الله منها، واكتفيتُ بالماحات وإلماعات كاشفة قولها، بخلاف من لها رسم واسم في هذه الأيام كالصوفية والشيعة، فذكرتُ من كلامه رحمه الله المثال تلو المثال، في بيان ما هم عليه من المخالفة والضلال.

وقد آثرت في دراستي لشخصية الإمام القرطبي وآثاره ـ ولا سيما التفسير منها ـ أن أرسم الصورة العامة لمنهجه، وأن أكتفي بأمثلةٍ من كتبه، لأن استيعاب آرائه أو التوسع في ضرب الأمثلة يخرج بالدراسة عن التعريف بالرجل وآثاره ـ وهذا ما كنتُ حريصاً عليه ـ إلى تلخيص كتبه وإيجاز آرائه.

أما المصادر التي رجعتُ إليها فهي مؤلَّفات القرطبي، وكل ما وقع تحت يدي من الكتابة عنه.

وأخيراً . . وليس آخراً . . إني إذ أقدّم هذه الدراسة أرجو أن تكون جديرة بالعناية من قِبَل طلبة العلم وأهله. وأرجو أن تفتح عليهم آفاقاً في المزيد من كشف المخبوء والمجهول عن هذا الإمام ومصنفاته وآثاره التي غرسها في حقل المعرفة فكانت شجرات مثمرات، لا تتخلف ثمارها على دوران الفصول، ولا يعتريها نقصان من كثرة القاطفين على تتابع الأجيال والعصور.

وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

مشهور حسن محمود سلمان

الأردن ـ عمان

٢٩/٤/١٩٩٢م

الفصل الأول

سيرة الإمام القرطبي الشخصية والعلمية

*** اسمه وكنيته ونسبه ولقبه**

هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي[1].

---

(١) له ترجمة في: «الذيل والصّلة»: (٥/ ٥٨٥) و«الوافي بالوفيات»: (٢/ ١٢٢ - ١٢٣) و«نفح الطيب»: (٢/ ٤٠٩ - ٤١١) و«طبقات المفسّرين» للداودي: (٢/ ٦٥ - ٦٦) و«عيون التواريخ»: (٢١/ ٢٧) و«طبقات المفسّرين» للسيوطي: (٧٩) و«الديباج المذهب»: (٣١٧ - ٣١٨) و«شجرة النور الزكيّة»: (١٩٧) و«مقدمة ابن خلدون»:(٣٨٤) و«تاريخ الإسلام» للذهبي:(وفيات سنة ٦٧١ هـ) مخطوط، و«شذرات الذهب»: (٥/ ٣٣٥) و«مفتاح السعادة ومصباح السيادة»: (٢/ ٧٥ - ٧٦) و«كشف الظنون»: (٣٨٣، ٣٩٠، ٥٣٤) و«هدية العارفين»: (٢/ ١٢٩) و«إيضاح المكنون»: (١/ ٨١، ٢/ ٢٤١) و«معجم المؤلفين»: (٨/ ٢٣٩ - ٢٤٠) و«المستدرك على معجم المؤلفين»: (٥٨٧) و«الأعلام»: (٥/ ٣٢٢) و«المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات»: (١/ ٢٨٧ - ٤٦٢) لمحمد المغراوي و«مدرسة التفسير في الأندلس»: (٩٨ - ١٠١، وغيرها) لمصطفى المشني، ومقالة الأستاذ أحمد أحمد بدوي: «من المفسرين في عصر الحروب الصليبية: القرطبي» المنشور في مجلة «الرسالة» المصرية، العدد (٨٥٨) تاريخ ١٢/ ديسمبر/ سنة ١٩٤٩ م. السنة (١٧)، (ص ١٧٠٣ - ١٧٠٥) و«التفسير والمفسّرون» لمحمد حسين الذهبي: (٢/ ١٢٣) ومقالة الشيخ محمد بهجة البيطار: «تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي»، المنشور في مجلة «المجمع العلمي العربي»: (جـ ٢٠ ع ٧ - ١٢) السنة (١٩٤٥ م)، (ص ٥٦٢ - ٥٦٥) ومقدمة الدكتور محمد أديب الصالح «من الجامع لأحكام القرآن»: (٥ - ٣١) ففيها تفصيل عن التفسير ومنهج صاحبه فيه، و«التعليقات الحافلة على الأجوبة الفاضلة» (١٣٥ - ١٣٩) للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وفيه منزلة أحاديث «تفسير القرطبي»،

هذا الذي ذكره القرطبي بخطّه[1]، وذكره أيضاً جميع مُترجميه[2].

كنيته: أبو عبد الله[3].

و(فَرْح) ضبطها غير واحد من العلماء. فقال: «بسكون الراء، والحاء المهملة»[4] أو «الحاء الغفل»[5].

= وقد أفرد ترجمته اثنان من المعاصرين ـ فيما أعلم ـ هما: الدكتور قصبي محمود زلط في كتابه «القرطبي ومنهجه في التفسير» ويوسف عبد الرحمن الفرت في كتابه «القرطبي المفسّر: سيرة ومنهج» وهما مطبوعان ورأيت ـ فيما بعد ـ ترجمة ثالثة له!! بقلم علي يوسف علي بعنوان «الإمام القرطبي» ضمن «سلسلة: مع الخالدين للشباب» رقم (٦) من دار الجيل، سنة ١٤٠٦هـ، في (١٩ صفحة) ليس فيها شيء ذو بال عن حياة الإمام أبي عبد الله القرطبي، ويوجد في كتب القرطبي نفسه إلماحات وإفاضات عن حياته لم أجدها عند أحد، وانظر عن آثاره ومؤلفاته: «تاريخ الأدب العربي»: لبروكلمان: (١/٧٣٧ ـ الملحق / بالألمانية) و«ذخائر التراث العربي»: (٢/٧٥٩) و«فهرست الخديوية»: (١/١٥٩-١٦٣) و«المنتخب من مخطوطات المدينة»: (٤١، ١٠٨) لكحالة و«مخطوطات الحديث بالظاهرية»: (٣٧٧) للألباني و«فهرس التفسير بالظاهرية»: (٢١٢ ـ ٢١٦) و«نوادر المخطوطات العربية»: (١٢) و«فهرس المخطوطات بالموصل»: (٢/١٦١) ومجلة «المورد» العراقية: (م ٢ ع ٢ ص ١٩٤) و(م ٤ ع ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧) و«فهرس مخطوطات مكتبة كوبرلي»: (١/٧٤، ٧٥) و«فهرس المخطوطات العربية المصوّرة»: (١/٢٣)، وكتابنا «معجم المصنفات الواردة في فتح الباري»: رقم (٢٥٣، ٣١٧، ٦٧٠).

(١) كما رأيتُه في ديباجة: «التذكرة»: (ل ١/أ)، نسخة شستربتي.

(٢) وقد تقدمت مصادر الترجمة.

(٣) قاله غير واحد من مترجميه، راجع ـ مثلاً ـ: «الوافي بالوفيات»: (٢/١١٢) و«طبقات المفسرين»: (٧٩) للسيوطي و«الديباج المذهب»: (٣١٧) و«طبقات المفسّرين»: (١/٦٥) للداودي و«نفخ الطيب»: (٢/٤٠٩) و«شجرة النور الزكية»: (١٩٧).

(٤) انظر ـ على سبيل المثال ـ: «طبقات المفسرين»: (٢/٦٥) و«الديباج المذهب»: (٣١٧) و«شجرة النور الزكية»: (١٩٧) وما وقع في «عيون التواريخ»: (٢١/٢٧): «فرج» بالجيم، تصحيف، فليصحّح، وقد رأيته مضبوطاً بالرسم من خط القرطبي نفسه، بالحاء وسكون الراء، المهملتين، كما تقدم.

(٥) الذيل والصلة: (٥/٥٨٥).

وقد لقبه بعضهم بـ «شمس الدين»[1]، ولم أره للمتقدّمين، وأرى أنّ صاحبنا يكره هذا اللقب، لما عُرِفَ عنه من التواضع، وخوفاً من الدخول في قوله تعالى: ﴿ فلا تزكّوا أنفسكم ﴾.

و(الخَزْرَجي) بفتح الخاء المعجمة، وسكون الزاي، وفتح الراء، وفي آخرها جيم[2]، وهذه النسبة إلى (الخَزْرَج)، وهو أحد قَبيلي الأنصار، فإن جميع الأنصار (الأوس) و(الخزرج)، وكان للخزرج من الولد: عمرو، وعوف، وجشم، وكعب، والحارث، ويقال لكلتا القبيلتين (بنو قَيْلَة) ـ بفتح القاف، وسكون المثناة من تحت، وفتح اللام، وهاء في الآخر[3] ـ لهم مُلْك يثرب قبل الإسلام، نزلوها حين خرج الأزد من اليمن، ولم يزالوا بها إلى حين هاجر إليهم النبيّ ﷺ، فآمنوا به، ونصَروه، فسمُّوا: (الأنصار).

وتفرّع منهم أفخاذ كثيرة، يطول ذكرها. وانتشروا في الفتوحات الإسلامية في الآفاق شرقاً وغرباً، وهم موجودون بكل قطر إلى الآن، إلّا أنه قلّ منهم مَن يُعرَف نسبه من (الأوس) أو (الخزرج)، بل اكتفوا بالنسبة إلى (الأنصار)[4].

فصاحبنا (أبو عبد الله) من بين القلّة، الذين عُرِفوا أنهم من (الخَزْرج)، فهو عريق النَّسب، كريم الحَسَب، غير أننا لا نعرف نسَبَه المتّصل إلى هذه القبيلة العظيمة، وإنما عرفناه هكذا من خطّه، أو من مُترجِميه، (... ابن فَرْح الأنصاري الخَزْرَجي)، فهذا أكثر الذي وجدناه في الحديث عن نسبه واسمه.

---

(١) كما عند بروكلمان والفِرت في كتابه «القرطبي المفسّر»: (٣٣).

(٢) راجع: «الأنساب»: (٥/١٠٩) و«اللباب»: (١/٤٤٠) و«المؤتلف والمختلف»: (٢/٩٣٥) للدارقطني.

(٣) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان: (٩٣).

(٤) المراجع السابقة.

و(القُرْطُبي) بضمّ القاف، وسكون الراء، وضمّ الطاء المهملة، وفي آخرها الباء الموحدة[1]، هذه النسبة إلى (قُرْطُبة)، وهي مدينة كبيرة من بلاد الأندلس، وكانت بلد السلطان، ودار مملكة البلاد، خرج منها كثير من العلماء في كل فنٍّ قديماً وحديثاً[2].

* أُسرته

لم تذكر المصادر المتوفرة لديّ شيئاً عن أُسرته، سوى أن له ولدين.

أحدهما: عبد الله، وهو ابنه الكبير، الذي كُنّي به.

والآخر: شهاب الدين أحمد، وكان أحد المشاركين في العلم، وأخذ عن والده بالإجازة[3].

وذكرت خبراً ماتعاً عن أبيه، نتعرّض له في:

* ولادته ونشأته وبيئته وعصره وطلبه للعلم ومهنته

نشأ أبو عبد الله في قرطبة. ونُسِب إليها، بل أصبح أشهر عَلَمٍ من أعلامها، فعندما يُذكر القرطبيُّ بإطلاق، فلا تنصرف أذهانُ العلماء وطلبةِ العلم إلّا إليه.

فميلاده بقرطبة من بلاد الأندلس، ولم تذكر المصادرُ تحديداً لتأريخه، فشأنه شأن كثيرٍ من الرجالات في عصره، ومن الجدير بالذكر أنه لم يعتنِ القدماءُ بضبط مواليد العلماء، كاعتنائهم بوفياتهم، ثم اعتنى المتأخرون بوفياتهم وميلادهم، حتى ضبطوا جماعةً فيهم جهالة بالنسبة إلى معرفتنا لهم، فلهذا حُفِظت مواليدُ خَلْقٍ من المجهولين، وجُهِلت مواليدُ أئمةٍ من المعروفين. ومع هذا فإنّا نستطيع أن نسدّد

---

(١) الأنساب: (١٠/٩٧) واللباب: (٣/٢٥) والمؤتلف والمختلف: (٤/١٩٣٨).

(٢) انظر في التعريف بها: «معجم البلدان»: (٤/٣٢٤) و«منتقى فرحة الأنفس»: (٢٩٦) لابن غالب و«وصف جديد لقرطبة» مؤلفه مجهول، نشر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، (م ١٣) و«قرطبة إسلامية» لمحمد عبد الوهاب خلاف.

(٣) كما سيأتي في مبحث (تلاميذه).

ونقارب في ذلك، وفقاً لإلماحات كاشفة مذكورة في ترجمته وكتبه، فنقول:

أولاً: ولد أبو عبد الله بقرطبة، وتلقّى بها ثقافةً واسعةً في الفقه، والنّحو، والقراءات، وغيرها، على جماعة من العلماء المشهورين[١]، وكان يعيش آنذاك في كنف أبيه ورعايته، وبقي كذلك حتى وفاته، سنة ٦٢٧ هـ في حادثة ذكرها أبو عبد الله نفسه في تفسير قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون﴾ قال في المسألة الخامسة:

«العدو إذا أصبح قوماً في منازلهم؛ ولم يعلموا به، فقتل منهم، فهل يكون حُكمه حُكم قتيل المعركة أم حُكم سائر الموتى؟ وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة ـ أعادها الله ـ؛ أغار العدو ـ قصمه الله ـ صبيحة الثالث من رمضان المعظّم سنة سبع وعشرين وستّ مئة، والنّاس في أجرانهم[٢] على غفلةٍ، فقتل وأسر، وكان من جملة مَن قتل والدي ـ رحمه الله ـ فسألتُ شيخنا المقرىء الأستاذ أبا جعفر أحمد، المعروف بـ (ابن أبي حجّة)، فقال: غسّله، وصلّ عليه، فإنّ أباك لم يُقتَل في المعترك بين الصَّفين. ثم سألتُ شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أُبَيّ، فقال: إن حُكمه حُكم القتلى في المعترك. ثم سألتُ قاضي الجماعة أبا الحسن عليٍ بن قُطرال، وحوله جماعة من الفقهاء، فقالوا: غَسِّلْه، وكفِّنْه، وصَلِّ عليه، ففعلتُ. ثم بعد ذلك وقفتُ على المسألة في «التبصرة» لأبي الحسن اللخمي، وغيرها، ولو كان ذلك قبل ذلك، ما غَسَّلْتُهُ، وكنتُ دفنتُه بدمه في ثيابه»[٣].

---

(١) سيأتي ذكرهم في مبحث (شيوخه الأندلسيون).

(٢) الجرن: البيدر، كما في «محيط المحيط» وهو موضع البر، وقد يكون للتمر والعنب، والجمع (أجرنة) و(جُرُن) ـ بضمتين ـ والجرين بيدر الحرث يجدر أو يحظر عليه. وقيل: الجرين موضع البيدر بلغة اليمن. وعامتهم يكسر الجيم والجرين الطحن بلغة هذيل، انظر مادة (جرن) في «لسان العرب».

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٤/٢٧٢).

ونستفيد من هذه الحادثة أكثر من فائدة، ونخرج بها بأكثر من دلالة، يهمُّنا هنا منها، ما يلي:

١ ـ أنّ الإمام القرطبي كان يهتم بالأحكام الدينية، ويتحرّى الدقّة في المسائل الفقهية، ويبني تصرفاته العملية على أساس من هذه الأحكام، ولا يستطيع ذلك إلاّ مَنْ شغل نفسه بالعلم، وربط نفسه بأسبابه.

٢ ـ أنه كان يتلقّى العلم عن أكثر من شيخ، ولذلك اتّجه إليهم حين نزلت به ملمّة، احتاج إلى الكشف عن الفُتيا فيها، فسأل أكثر من شيخ، ليتعرّف الرأي الأوفق، والأقوى حجّة، فينفّذه.

٣ ـ أنه كان يدُيم النظر في المسائل العلمية، ولا يكتفي في قضايا الأحكام بفتوى سمعها، ولو كانت من شيوخه الأجلّاء. ودليل ذلك أنه على الرغم من تنفيذه رأي الغالبية من شيوخه في غَسْل والده، والصلاة عليه، ظلّ ينقّب ويبحث ـ على عادته ـ، حتى وقف على المسألة في «التبصِرة» لأبي الحسن اللخمي، وغيرها.

٤ ـ أنّ الإمام القرطبي ما كان ليجد بأساً في العدول عن رأيٍ ارتضاهُ، إذا ثبت له أن هناك رأياً آخر أولى بالاتّباع، ولذلك قال حين اطمأنّ إلى الحكم الذي أورده (اللخمي) في «التبصِرة»: «... ولو كان ذلك قبل ذلك؛ ما غسّلتُه، وكنتُ دفنتُه بدمه في ثيابه»[١].

ثانياً: أنّ القرطبي بقي في قرطبة بعد هذه الحادثة، فهو يصرّح بأنه سمع فيها من شيخه أبي عامر الأشعري، فيقول: «أخبرنا بقرطبة ـ أعادها الله ـ في ربيع الآخر، عام ثمانية وعشرين وست مئة قراءة منّي عليه»[٢]. فسماعه من شيخه أبي عامر كان بقرطبة في سنة (٦٢٨ هـ)

---

(١) القرطبي المفسّر: (٣٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٣/٢٣٧).

بعد مقتل أبيه في سنة (٦٢٧ هـ)، والظاهر أنه بقي فيها حتى سقوطها في أيدي الفرنجة سنة (٦٣٣ هـ)، وانتقل إلى مصر، واستقرّ بها، وأخذ عن علمائها، يؤكّد هذا أنه أخذ في الإسكندرية عن شيخه أبي محمد عبد المعطي اللخمي (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ)[١].

ثالثاً: يؤخذ من حادثة مقتل أبيه السابقة أن القرطبي كان يعيش في أُسرةٍ متواضعة الحال، فأبوه كان يشتغل بالزراعة، وكان يباشر حصاد أحد المحاصيل يوم قُتِلَ مع غيره من المسلمين على يد النصارى.

رابعاً: أنّ القرطبي حين توفّي والده (سنة ٦٢٧ هـ) كان شابّاً لأنه تردّد على أكثر من شيخ له، وفي ذلك دليل على أنه لم يكن في مستوى علمي يُتيح له أن يقضي في أمرٍ كهذا برأيه، ومن هنا نستطيع الجزم أنّ أبا عبد الله كان بقرطبة شابّاً، وأنه خرج منها وعمره بين العشرين والخامسة والعشرين فيما نحدس ونظن ونخمّن، وظفرتُ بنَقْلٍ عنه ـ رحمه الله تعالى ـ يصرّح بما خمّنتُه، قال:

«ويُحكى أنّ رجلين تنازعا وتخاصما في أرضٍ، فأنطق الله ـ عزّ وجل ـ لَبِنَةً من حائط من تلك الأرض، فقالت: يا هذان! فيمَ تتنازعان؟ وفيمَ تختصِمان؟ إنّي كنتُ ملكاً من الملوك كذا وكذا سنة، ثم مُتُّ، وصرتُ تراباً، فبقيتُ كذلك ألف سنة، ثم أخذني خَزّاف ـ يعني: فَخّاراً ـ فعَمِلَ منّي إناءً، فاستُعمِلتُ حتى تكسّرت، ثم عدت تراباً، فبقيتُ ألف سنة، ثم أخذني رجل فضرب منّي لَبِنَة، فجعلني في هذا الحائط، ففيمَ تنازعُكما، وفيمَ تخاصُمُكما؟».

ثم علّق على هذه القصة بقوله:

«قلت: والحكايات في هذا المعنى؛ والوجود شاهد بتجديد ما

---

(١) راجع مبحث (شيوخه بمصر).

دُثِر، وتغيير ما غُيّر، وعن ذلك يكون الحفر والإخراج، واتخاذ الأواني، وبناء الأبراج».

ثم قال: ما هو بيت القصيد من نقلنا هذا عنه، قال رحمه الله تعالى:

«ولقد كنتُ في زمن الشباب أنا وغيري ننقل التراب على الدواب من مقبرة عندنا تسمى بـ (مقبرة اليهود) خارج قرطبة، وقد اختلط بعِظامٍ من هناك، وعظمهم ولحومهم وشعورهم وأبشارهم إلى الذين يصنعون القرميد للشّقف»[1].

ومن هذا النقل نستفيد أموراً:

١ ـ أن حياة الإمام القرطبي كانت متواضعة، وأنه كان من أُسرةٍ متوسّطة أو خامِلة ـ مع حَسَبه ونَسَبه كما مضى ـ، إلاّ أنه أنبه شأن أُسرته، وأعلى ذِكرها، بما قدّم من آثار ومؤلّفات، ولا سيما كتابه في التفسير «الجامع لأحكام القرآن».

٢ ـ لعل مسكنه كان بالقرب من المقبرة المذكورة في الخبر (مقبرة اليهود)، وتسميتها بهذا الاسم يجعل من المحتمل ـ لأوّل وهلة ـ أن تكون مَطَلاً على حيّ يسكنه اليهود، ومع ذلك فيبدو أن هذا الاحتمال بعيد، إذ إنّ الحيّ اليهودي ـ على ما يبدو ـ كان يقع في الطرف الجنوبي الغربي من المدينة بعيداً عن هذه المقبرة، الذي بجانبها باب، يسمى أيضاً بـ (باب اليهود)، ويقع في أقصى الشمال الشرقي، وكان المسلمون يطلقون عليه أسماء عديدة (باب ليون) و(باب طلبيرة) و(باب اليهود)، ثم غيّره المسلمون تفاؤلاً، فسمّوه (باب الهدى)[2].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٣٨ ـ ٣٩) ط السقّا.
(٢) راجع: «نفح الطيب»: (١/ ١٤٨) و«قرطبة الإسلامية»: (٧٨).

وعلى كل حال فإن هذا الباب كان يطل على مقبرةٍ رومانية قديمة، استخدمها المسلمون أيضاً، وربما اليهود كذلك، وكان يمتد منه الطريق المتجه شمالاً إلى ضاحية الرصافة. وكان أبو عبد الله ينقل التراب من هذه المقبرة، ويبيعه إلى الذين يصنعون القرميد للشَّقَف، وهو الخَزَف، أو مُكَسَّرُهُ الواحدة (شَقَفَة)[1]، و(القرميد) هو الآجرّ بالرومية، وهو فارسي مُعرَّب[2]. وقد صرّح أبو عبد الله في خبر سيأتي نقله ـ إن شاء الله ـ في مبحث (أخلاقه وصفاته) أنه كان يسكن بالقرب من حصن بقرطبة يسمى (حصن منثور) وهو حصن يقع شمال شرق مدينة قرطبة، على ما ذكرت (الموسوعة البريطانية) وسمّته حصن (مونتورو)!.

٣ ـ في هذا الخبر إشارة إلى عمل القرطبي في فترة شبابه وهو في قرطبة، وأنه كان ينقل الآجُرّ لصنع الخَزَف، وقد كانت صناعة الخَزَف والفخّار من الصناعات العادية التقليدية التي انتشرت في قرطبة[3]. وكانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصناعة الزّيوت والألبان، وكلّ ما يُكال من الأغذية إلى جانب صناعة الأواني الخاصة بالأطعمة، والقُدُور، وأقداح الوضوء، والغِلال[4]، وذلك لوفرة التراب الخاص بتلك الصناعة في جبل قرطبة. فلقد انتشرت صناعة مكاييل الزيت من الفخار المزجج الرقيق، وهو أحسن من النحاس، لأنّ النحاس يصدأ، فيخضر ويتزنجر بما في ذلك من خطر على صحة الناس. ولقد وضّحت كتب الحِسبَة شروط هذه الصناعة[5]، وكانت هناك أماكن خاصة لتلك الصناعات

---

(١) راجع: «المعجم الوسيط»: (١/ ٤٨٩).
(٢) راجع: «جمهرة اللغة»: (٣/ ٣٧٥).
(٣) قرطبة الإسلامية: (١٦٨) عن «القوى البحرية والتجارية»: (٢٦٠).
(٤) كتاب في آداب الحسبة: (٦٧) للسقطي.
(٥) رسالة في الحسبة: (١٠٨) لابن عبد الرؤوف.

قريبة من إنتاج المادة الخام المستخدمة في الصناعة. وكان الفخّارون يؤمَرون بتسييل ترابهم وتطييبه، وأن يقلّلوا فيه من الرمل[1]، وأن تُعالَج الأوانـي المَعيبَة ببياض البيض، ومسحوق الخَزَف، والجيار، والرماد.

وشهدت قرطبة أماكن خاصة لبيع تلك المصنوعات، ولقد أوضحت كتب الحِسبَة أوامر المُحتَسِب للفخّارين، بألّا يضعوا حوائجهم في الطرق خيفَة أن تفسد عليهم، لتضييق الطريق بها، فتكون داعية للشرّ والخصومة[2].

ولم تبلغ هذه الصناعات في قرطبة الشُهرة التي حازتها أماكن كثيرة أندلسية في صناعة الفخار المزجّج بالذهب وغيره[3].

خامساً: يمكن ترتيباً على ما سبق أن تكون السنوات العشر الأولى من القرن السابع الهجري (٦٠٠ ـ ٦١٠ هـ) هي الفترة التي ولد فيها الإمام أبو عبد الله رحمه الله تعالى.

وقد كانت قرطبة في هذه المدة الزمنية تحت حكم الموحدين، وأما الحاكم فهو أبو عبد الله محمد (الناصر) ابن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (المنصور) (٥٩٥ ـ ٦١٠ هـ).

● ● ●

* الحالة السياسية في عصر القرطبي في الأندلس

ومن اللازم عليّ هنا أن أتعرّض إلى عصر القرطبي بإجمال، وإلى حال الأندلس في عهد دولة الموحّدين، فأقول، وعلى الله تعالى الاعتماد والتكلان:

١ ـ قامت دولة الموحدين بالمغرب على يد أبي عبد المهدي

---

(١) المرجع السابق: (١١٢).
(٢) المرجع السابق: (١١١) ورسالة في الحسبة: (١٢٤) لجرسيفي.
(٣) قرطبة الإسلامية: (١٦٨ ـ ١٦٩).

محمد بن تومرت (٤٨٥ ـ ٥٢٤ هـ) على أساسٍ من الفَهم النّقي لدين الإسلام، والتوحيد الخالص، وصفاء العقيدة. وقد ورثت هذه الدولة دولة المرابطين في المغرب والأندلس، وحرست الحضارة الإسلامية، واستطاع (عبد المؤمن بن علي) أن يحقّق أهداف زعيمه (ابن تومرت) حين أسقط دولة المرابطين، واحتلّ عاصمتهم مراكش، سنة ٥٤١ هـ.

٢ ـ اهتمت دولة الموحدين في بداية أمرها بتوفير قوّة دفاعية كافية للأندلس، إذ جعلت (غرناطة) مركزاً دفاعياً قوياً، ونقلت العاصمة من (إشبيلية) إلى (قرطبة) سنة (٥٥٧ هـ)، التي اعتبرت مستقراً للجيوش الموحدية[١]. فقد كانوا ينهضون بعبء الدفاع عن المناطق والحصون الإسلامية بالأندلس، ضدّ الهجمات الصليبيّة المتكررة من جيرانهم نصارى الشمال الإسباني، إذ ألِفوا الإغارة على الحصون، والاستيلاء على المناطق التي تضعف أمامهم، ولم يتركوا في هذه البلاد فرصة مواتية لاحتلال قلعة أو حصن أو بلد إسلامي إلا انتهزوها، ونكلوا بأهله وسكانه تنكيلاً بالغاً: قتلاً، وتشريداً، وإذلالاً.

٣ ـ حقّقت دولة الموحدين ـ في بداية أمرها ـ انتصارات؛ أعادت إلى مسلمي الأندلس ـ أيامها ـ بعض ما افتقدوه من العزّة الإسلامية، فقد ردّت لهم بعض ما فقدوه من أوطانهم، لكنها ما لبثت أن ذاقت وذاق معها المسلمون من الهزائم ما انهارت به هذه الدولة، وكانت بداية النهاية للدولة الإسلامية بالأندلس.

٤ ـ كان السبب في ضعف المسلمين بالأندلس آنذاك: التآمر الضاري ضدّ الوجود الإسلامي، والتنازع والتفرّق، حتى انصرف

---

(١) راجع: «تاريخ ابن خلدون»: (١٨٣/٦) و«المجمل في تاريخ الأندلس»: (١٨٢ ـ ١٨٤) لعبد الحميد العبادي و«التاريخ الأندلسي»: (٤٥٦ ـ ٤٥٨) لعبد الرحمن الحجّي و«التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية»: (١٤١/٤) لأحمد شلبي.

زعماؤهم إلى إقامة مملكة في كل مدينة، وأضفى كلٍ حاكم على نفسه لقباً يباهي به غيره، ومما قاله بعض الشعراء ساخراً من هذه الألقاب التي لا تترجم عن معنى:

مِمَّا يُزَهِّدُني في أرضِ أندلسٍ
ألقـابُ معتضـدٍ فيهـا ومعتمـدِ
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِهـا
كالهِرِّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأَسَدِ

وضاعف من بلاء المسلمين تعاون بعضهم مع عدوّهم ضدّ بعضهم الآخر، وقد يسّر ذلك التحالف الآثم لعدوّهم أن يعدو عليهم، ويستولي على مدنهم واحدة بعد أُخرى، وكانت (طليطلة) التي سقطت في النصف الثاني من القرن الخامس أول مدينة عامرة بالعلم والحضارة تضيع من المسلمين، ثم سقطت سائر مدن الأندلس بعد ذلك، وكانت (غرناطة) آخر معقل انتهى بسقوطه الوجود الإسلامي في الأندلس، في أواخر القرن التاسع.

وإذا كانت مسؤولية ضياع الأندلس تقع على عاتق المسلمين، فإن الكاتب المُنصِف لا يستطيع أن ينكر أنّ أوروبا كلها كانت وراء القوّات التي اقتلعت جذور الإسلام من الأندلس، وأنها كانت مدفوعةً بحقدها الصليبي الأرعن الذي لم ينسَ الهزيمة المنكرة في معركة (حطّين).

● ● ●

* إلماحات عن عصر القرطبي السياسي بقلمه

وقد سجّل القرطبي لمحات تاريخية عن عصره عامّة، وعن سبب تقهقر المسلمين في الأندلس خاصة. وتُعدّ هذه اللمحات مادة علمية دقيقة للحديث عن الماضي وسِماته المختلفة، لأنها خواطر انبثقت عن

تداعي المعاني، ولذا كان احتمال التحريف فيها بعيداً، وكانت أصدق في الدلالة على القضايا التاريخية من كتب التاريخ، إذ إنها بمنجاةٍ من التزييف، وقلب الحقائق، لأنها سُجِّلت عَرَضاً، وهذه اللمحات كثيرة، نجتزىء منها ما يلي:

قال رحمه الله تعالى: «فقد لبسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا، بقتل بعضنا بعضاً، واستباحة بعضنا أموال بعض، نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها، وما بطن»[1]

وقال أيضاً: «كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد، وجبُنوا عن القتال، وأكثروا من الفِرار، فاستولى العدو على البلاد، وأيّ بلاد!! وأسر وقتل وسبى واسترقّ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذلك بما قدّمت أيدينا وكسبته»[2].

وقال: «ولجهلِنا، وغَلَبَة شهواتنا علينا، وظفر عدوّنا اللعين بنا، صرنا أحقر من الفِراش، وأذلّ من الفَرَاش، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم»[3].

وقال: «ويقتضي ظاهر كلام النبيّ ﷺ لثوبان ـ كما جاء في صحيح مسلم ـ:

«وإني سألت ربي ألاّ يهلكها بسَنَةٍ عامة، وألاّ يُسَلِّط عليهم عدوّاً من سوى أنْفسهم فيستبيح بيضتهم، وإنَّ ربّي قال:

يا محمد، إني إذا قضيتُ قضاءً، فإنه لا يُرَدّ، وإني قد أعطيتُك لأمتك: ألاّ أهلكهم بسَنَةٍ عامة، وألاّ أُسلّط عليهم عدوّاً من سوى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٧/٩ ـ ١٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٣/٣٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٤/١٢٢).

أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلِك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» أنه لا يسلّط عليهم عدوّهم، فيستبيحهم، إلاّ إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي لبعضهم بعض، وقد وُجِدَ ذلك في هذه الأزمان، بالفتن الواقعة بين المسلمين، فغلظت شوكة الكافرين، واستولوا على بلاد المسلمين، حتى لم يبْقَ من الإسلام إلاّ أقلّه، فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه»(١).

وقال أيضاً: «وشأن الأمم المتنعِّمة، المائلة إلى الدَّعَة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب، كَعَّتْ وانقادت لطبعها»(٢).

وقال في تفسير قول الله تعالى: «﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً ﴾ تحريض على القتال، واستشعار للصبر، واقتداءٌ بمَن صدق رَبَّه».

ثم قال رحمة الله تعالى عليه: «هكذا يجب أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة، والنيّات الفاسدة، منعت من ذلك، حتى ينكسر العدد الكبير منّا قدّام اليسير من العدوّ، كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا.

وفي البخاري:

وقال أبو الدرداء: إنما تُقاتلون بأعمالكم.

وفيه مسنداً:

أن النبيّ ﷺ قال:

«هل تُرزَقون وتُنصَرون إلا بضعفائكم»، فالأعمال فاسدة،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ٤٢٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٣/ ٢٤٥).

والضعفاءُ مُهْمَلون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة!!.

قال الله تعالى:

﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾.

وقـــال:

﴿ وعلى الله فتوكَّلوا ﴾.

وقـــال:

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾.

وقـــال:

﴿ ولينصرنّ الله مَن ينصره ﴾.

وقـــال:

﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾.

فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا، غير موجودة فينا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، على ما أصابنا، وحلَّ بنا!! بل لم يبقَ من الإسلام إلاّ ذِكرَه، ولا من الدين إلاّ رَسمَه، لظهور الفساد، ولكثرة الطغيان، وقِلّة الرشاد، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً، برّاً وبحراً، وَعَمَّت الفتن، وعظُمت المِحن، ولا عاصم إلاّ مَن رَحِم»[1].

وقال أيضاً: «... فكيف اليوم الذي تسفك فيه الدّماء، باتّباع الهوى، طلباً للملك، والاستكثار من الدنيا، فواجب على الإنسان أن يكفّ اليد واللسان عند ظهور الفتن، ونزول البلايا والمحن، نسأل الله السلامة، والفوز بدار الكرامة»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٣/٢٥٥).
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٦٤٨).

* موقعة الأرك

٥ ـ ومن أهم المواقع التي انتصر فيها الموحدون (موقعة الأرك)، وذلك بعد أن هدأت الحروب في الأندلس بضعة أعوام (من سنة ٥٨٧ ـ ٥٩١ هـ). نظراً لوقوع خلاف بين الملوك الأسبان في تلك المدة، ولانشغال سلطان الموحّدين (يعقوب المنصور) بإخماد ثورات بإفريقية، ولمرضه الذي أعجزه عن تولّي أمر الحرب بنفسه.

وقد رأى (الفونسو) الثالث، ملك (قشتالة) الفرصة سانحة لتحقيق انتصار ساحق على الموحّدين، فأعدّ العدّة لذلك، واستثار سلطانهم بكتاب ليدفعه إلى القتال، الذي يطمع بسببه في كسر شوكة (الموحّدين) المسلمين، فكتب إليه ما نصّه:

من ملك النصرانية إلى أمير الحنيفية.

أما بعد:

فإنْ كنتَ عجزتَ عن الحركة إلينا، وتثاقلت عن الوصول والوفود علينا، فوجّه لي المراكب والشباطي، أجوز فيها جيوشي إليك، حتى أُقاتلك في أعزّ البلاد عليك، فإنْ هزمتني؛ فهدية جاءتك إلى يدك، فتكون مَلِكَ الدينين، وإنْ كان الظهور لي كنتُ ملكَ الملّتين، والسلام.

فأخذت غيرةُ الإسلام (السلطان يعقوب)، واشتدّ حنقه لغطرسة ملك النصارى، وأمر أن يُكتَبَ الردُّ على ظهر الخطاب نفسه، بقوله تعالى: ﴿ ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنّهم منها أذلةً وهم صاغرون ﴾[1].

ووقّعه، وأرسله إليه، ثم دوّت صيحةُ الجهاد في جميع أنحاء

---

(١) سورة النمل: آية (٣٧).

المغرب من (سلا) حتى (برقة)، ضدّ النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام، وتلاقى الفريقان عند قلعة (الأرك) بين قرطبة وقلعة رباح في (١٩) من (يوليو) سنة (١١٩٥ م)، الموافق (٩ شعبان سنة ٥٩١ هـ). ومع أن الموحّدين كانوا يتقدّمون فوق أكداس من جثث جندهم، فإنّهم أيقنوا النصرة حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى، التفت حول ملك (قشتالة)، وهجم أمير المؤمنين في مقدمة جيشه إلى قلب الفرسان النصارى، والعَلَم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه (لا إلّه إلاّ الله، محمد رسول الله، لا غالب إلاّ الله)، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم، وفرّ به الباقون بعيداً عن الميدان.

وهكذا انتهى يوم (الأرك) الدامي بهزيمة النصارى على هذا النحو المروّع، واستولى المسلمون على معسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة (حصن الأرك)، و (قلعة رباح) المنيعين[١].

● ● ●

*** موقعة العقاب**

٦ ـ لم تستمر أوضاع دولة (الموحّدين) على حالها، بل دبّ فيها الضّعف، واعتراها الوهن، لما سبق ذكره من كلام إمامنا القرطبي في تحديد عوامل الضعف وبواعثه ومظاهره، فضلاً عن أن ملك (قشتالة)

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين» (ص ٣٣٢ ـ ٣٣٧) ليوسف أشباخ، و«المجمل في تاريخ الأندلس»: (١٨٤) لعبد الحميد العبادي و«قصة العرب في أسبانيا»: (ص ١٧٧) لعلي الجارم و«التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية»: (١٣٨/٤ ـ ١٤٣) لأحمد شلبي و«الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى»: (١٦٥/٢ ـ ١٧٣) لأحمد الناصري و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب»: (٣٥٨) لعبد الواحد المراكشي و«تاريخ ابن خلدون» (٥١٢/٦) و«الكامل في التاريخ» (٤٤/١٢ ـ ٤٥)، وما مضى من كتاب «القرطبي المفسّر»: (١٠ ـ ١٢).

استعان بجموع الصليبيين من جميع البلدان الأوربيّة، وباركهم البابا (أنوصان الثالث)، في حربهم ضدّ المسلمين، ومنح كلَّ مَن لبّى دعوته الغفران التامّ، ليثأروا من المسلمين الذين كسروا شوكتهم في موقعة (الأرك).

وكانت موقعة (العقاب) التي انتصر فيها النصارى الأسبان ـ بمعونة البابا والبلاد الأوربيّة ـ على المسلمين بعد حرب مريرة في (١٥ من صَفَر سنة ٦٠٩ هـ) (١٦ من يوليو ١٢١٢ م). وقد اعتبر المؤرّخون المسلمون هذا اليوم من أسود أيام تاريخهم، لما مُنُوا به من هزيمةٍ فادحةٍ، ونسبوا الهزيمة من بعض الوجوه إلى غطرسة مليكهم (محمد الناصر)؛ إذ وضع كل ثقته في مئات الألوف من الجند، وفي دربتهم، وفقد بذلك عون الباري جلّ جلاله[1].

وقد أفضت موقعة (العقاب) إلى تحطيم سلطان الموحّدين في المغرب فضلاً عن هزيمتهم بالأندلس، إذ حاول (الناصر) أن ينسى هزيمته وكدره منها بالانغماس في ملاذّه وشهواته قرابة عام، حتى دسّ له خدمُهُ السّمَّ الذي انتزعه من مسرّاته المزعومة، وأودى بحياته، ولمّا يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في شعبان، سنة (٦١٠ هـ) (ديسمبر ١٢١٣ م).

وقد خلفه ولده (أبو يعقوب يوسف) الملقّب بـ (المستنصر بالله)، وكان أضعف من أنْ يتولّى مقاليد الحكم بنفسه، إذ كان دون الحادية عشرة من عمره، فترك الأمور لأعمامه الأربعة الطامحين، ولوزراء ذوي

---

(١) راجع: «تاريخ ابن خلدون»: (٦/٥٢٢) و«الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى»: (٢/١٦٥ ـ ١٧٣) و«تاريخ الأندلس»: (٣٥٧ ـ ٣٧١) و«المجمل في تاريخ الأندلس»: (١٨٥) و«التاريخ الأندلسي»: (٤٩٠ ـ ٤٩٨) و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب»: (٣٥٨) و«التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية»: (٤/١٣٨ ـ ١٤٣) و«قصة العرب في إسبانيا»: (١٧٧).

أثَـرَة، وخلال سيّئة، لا يبحثون إلا عن مصالحهم وسلطانهم، وانصرف هو إلى اللهو والإسراف في الملذّات، حتى توفّي بين أبقاره، وهو يروّضها في ذي الحجة، سنة (٦٢٠ هـ) (يناير ١٢٢٤ م).

وإذا كانت دولة الموحّدين قد بدأت عقب هزيمة (العقاب) دور انحلالها، فلم يكن من الميسور بعد أن يعمل وصيّ على إنهاضها، ثم إنه ليس أخطر على دولةٍ ممزّقة من حكم صبيٍّ قاصر، بل إنّ الدولة القويّة المنظّمة كثيراً ما تنهار من جرّاء ذلك في أعوامٍ قليلة[1]. وظلّت الأمور تتدهور، إذ مهّدت وفاةُ المستنصر الفجائية دون عقب، الفرصة لمحاولة أقربائه وأطماعهم، وظلّوا يقتتلون في سبيل الوصول إلى مآربهم، كلٌّ في حُكم منطقة ما!!.

٧ ـ واستطاع (فرديناند) نتيجة انصراف هؤلاء إلى تحقيق أطماعهم أن يستولي على حصون كثيرة مهمّة في الأندلس، حتى رأى أهل قرطبة أنّ النصارى قد أحاطوا بهم من كل صوبٍ، وأخذوا يتوقّعون سقوط المدينة في أيديهم، وقد ساءت حالها، وأُهملت وسائل الدفاع عنها[2].

ولم يلبث النّصارى أنْ داهموا ضاحية قرطبة، حاضرة الأندلس الكبرى بهجومٍ مخادع شرس، ساعدهم على تنفيذه بعضُ الخَوَنة من أسرى المسلمين لديهم. وقد استبسل أهل قرطبة في الدفاع عنها، واتجه أملهم الوحيد في إنقاذها إلى أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي، المعروف بـ (المتوكل) ـ وكان يسكن مرسية، ودخلت تحت طاعته عدةُ مدن أندلسيّة: مرسية، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة،

---

(١) انظر: «تاريخ ابن خلدون»: (٦/٥٢٣ ـ ٥٢٥) و«تاريخ الأندلس»: (٣٩٩ ـ ٤٠١).

(٢) انظر: «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين»: (٤٠٣ ـ ٤٠٥).

والمرية، وغيرها[1] ـ فلم يتردد المتوكل في أن يحشد جيشاً ضخماً، لإنقاذ المدينة المهددة، وكان يعرف مدى الخطر الذي يتعرّض له الإسلام في الأندلس، إذا سقط هذا الحصن المنيع في يد النصارى.

لكنه رغب في أن يتحقّق أولاً من قوة (فرديناند) ومواقعها، فأرسل فارساً (نصرانياً) من جنوده في هذه المهمة، فلم يلبث أن عاد بأخبار كاذبة خادَعَ بها المسلمين، وأوهمهم بأنه لا قبل لهم بمجابهة الجيش النصراني، وكان ذلك في مقابل عفو حاصل عليه من الملك (فرديناند).

ومن هنا تراجع ابن هود عن نصرة قرطبة التي قاتل أهلها ببسالة عدّة معارك دموية، شديدة البأس، حامية الوطيس، وأبدوا ضروباً رائعة من الجَلَد والاحتمال، لكنهم ما لبثوا بعد أن علموا بموقف ابن هود، أن فتّ في عضدهم، وخبت شجاعتهم، وحلّ الخَوَر واليأس لديهم مكان القوّة والبسالة، في الوقت الذي شدّد فيه (فرديناند) الحصار عليهم، حتى اضطروا إلى البدء في مفاوضته من أجل التسليم.

وفي (٢٣ من شوّال سنة ٦٣٣ هـ) الموافق (٢٩ من يونيو سنة ١٢٣٦ م) سقطت قرطبة في يد النصارى الذين بادروا بوضع صليب فوق مسجدها الجامع، ورُفِعَت راية ملك (قشتالة) على القصر. . . !!.

وغادر المسلمون المغلوبون قرطبة بقلوبٍ محزونة، وتفرقوا في باقي مدن الأندلس[2].

● ● ●

---

(١) راجع: «تاريخ ابن خلدون»: (٤/٣٦١ ـ ٣٦٤) و«التاريخ الأندلسي»: (١٥٣).

(٢) راجع: «نفح الطيب»: (٢/٥٨٥) و«تاريخ ابن خلدون»: (٤/٦٧٥) و«التاريخ الأندلسي»: (٥١٤ ـ ٥١٥) و«تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين»: (٤٢٩ ـ ٤٣٤)، وما سبق من «القرطبي المفسّر»: (١٥ ـ ١٦) بتصرّف.

٨ ـ هذه المأساة عاشها إمامنا القرطبي كاملة، وعاصر أبعادها منذ بداية القرن السابع الهجري تقريباً، وناله من أوار الحرب الضروس ألوانٌ من البلاء، وتجرّع غصّات وحسرات، ولذا تجد في كتبه عبارات فيها آهات وتألّمات وتوجّعات، لأنه غادر قرطبة ـ مع مَن غادرها ـ بنفس جريحة، وجناح مَهيض، وقلب كسير، وأمل في الله كبير أن يُعيدها إلى أيدي المسلمين، وظلّ يعيش هذا الأمل الغالي، حتى بعد رحيله منها، وبُعده عنها، إلى أن لقي ربّه عزّ وجل.

وقد جاء ذكر لوقعتي (الأرك) و(العقاب) في كلام القرطبي نفسه، فاسمع إليه وهو موجوع ويقول: «كان بالأندلس في سنة تسع وتسعين وخمس مئة (وقعة الأرك)، التي أهلك الله فيها الروم، ولم يزل المسلمون في نعمةٍ وسرور إلى سنة تسع وست مئة، فكانت فيها (وقعة العقاب)، هلك فيها كثير من المسلمين، ولم يزل المسلمون في تلك الوقعة بالأندلس يرجعون القهقرى إلى أن استولى عليهم العدو وغلبتهم الفتن الواقعة بينهم، والتفصيل يطول، ولم يبقَ الآن من الأندلس إلاّ اليسير، فنعوذ بالله من الفتن والخذلان، والمخالفة والعصيان، وكثرة الظلم والفساد والعدوان»(١).

وقد أكثر القرطبي في كتبه من التعرّض إلى وُلاة زمانه، وبيان ظلمهم، وأنهم سبب من الأسباب التي جعلت الهزائم تحلّ بأرض المسلمين في الأندلس، وأغلظ عليهم القول، وتكلم عليهم بما يستحقّونه من الذّمّ، فقرّعهم ووبّخهم، وبيَّن أنهم لا طاعة لهم، وأن مدحهم والثناء عليهم من ذِكر الشيطان(٢).

● ● ●

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧٣٦).
(٢) انظر تفصيل ذلك في مبحث (أخلاقه وصفاته وثناء العلماء عليه) عند كلامنا على (شجاعته وجرأته في الحق).

* نشأة الإمام القرطبي العلمية

سادساً: من خلال ما مضى نستطيع أن نقول: إن إمامنا أبا عبد الله القرطبي ولد في أوائل القرن السابع الهجري بقرطبة، ونشأ بها، وأخذ عن جملة من كبار شيوخها، وأخذ في سؤالهم، والترداد عليهم في حادثة مقتل أبيه، وكان حينذاك شابّاً، ولم يكن في مستوى علمي يُتيح له أن يقضي في أمر كهذا برأيه. ومن خلال ذلك نستطيع أن نقرر هنـا ما يلي:

إن القرطبي قد أقبل منذ صغره على العلوم الدينيّة والعربية إقبال المُحبّ لها، المشغوف بها، فأعطته من نفسها ما استحق به ذِكر الخالدين، ولذلك نجده في سائر كتبه نسيج وحده، في كل مسألة يعرضها، ونلحظ درايتـه الفائقة في مختلف العلوم التي يتناولها بالبيان، حتى كأنه قد تخصّص فيه، وصرف وقته كله في دراسة قضاياه، نجده كذلك في الفقه وأُصوله، وفي اللغة وغرائبها، وفي النحو وأبوابه، وفي علوم القرآن، والقراءات، وهو كذلك في الحديث النبوي، وعلم الرجال، ولا بدّ أن يكون مَن وصل إلى هذا التميُّز في العطاء والتأليف، متميزاً أيضاً منذ البداية في الأخذ والتلقّي، ولذا تجده يُكثِر في كتبه من قوله: «سمعت شيخنا. . .» و«أخبرنا قراءةً منّي عليه. . .»، وكان ذلك بقرطبة، وهو في مرحلة الطلب.

ولم يقتصر علم القرطبي على الأخذ من شيوخه، بل تعدّاه إلى مجالسة الكتب، والنظر فيها، وقد أجازه غيرُ واحدٍ من مشايخه ببعضها، ولذا قال في معرِض حديثه عن موارد كتاب من كتبه: «. . . حسب ما رويتُهُ أورأيتُه»[1] وكان يقول: «وقد رُوِّينا ذلك بالإجازة. . .»[2]. وكان

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/٣٩٨).

يقول: «. . . وقد تصفحتُ «كتاب الترمذي أبي عيسى»، وسمعتُ جميعه، فلم أقف على هذا الحديث فيه، فإن كان في بعض النسخ، فالله أعلم. وأما «كتاب النسائي» فسمعتُ بعضه، وكان عندي كثير منه، فلم أقف عليه، وهو نسخ، فيحتمل أن يكون في بعضها، والله أعلم»[1].

وقال أيضاً: «وكنتُ بالأندلس قد قرأتُ أكثر كتب المقرىء الفاضل أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان، توفّي سنة أربع وأربعين وأربع مئة. . .»[2]، وقال بعد أن نقل فائدة عن المسيح: «قرأتُه في المجلد الأول من «شرح ألفاظ الغريب من الصحيح» لمحمد بن إسماعيل، تأليف الفقيه القاضي المفتي أبي الأصبغ بن سهل»[3]، وقال: «. . . ذكره الفقيه ابن برجان في كتاب «الإرشاد» له، ومنه نقلتُه»[4]، وقال: «. . . نقلتُ هذا من كتاب «مرج البحرين في مزايد المشرقين والمغربين» للحافظ أبي الخطاب بن دحية رضي الله عنه»[5].

● ● ●

* الحالة العلمية في الأندلس في عصر القرطبي

ويحسن بنا في هذا المقام أن نلقي الضوء على المدارس والمكتبات العلمية بقرطبة، حتى يتسنى لنا أن نعيش في عصر القرطبي، ويتبيّن لنا مدى تأثّره ببيئته حال نشأته، فنقول:

احتفظت قرطبة بشُهرة المجد في طلب العلم، حتى قال عنها ابن

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٥٠).
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧١٧).
(٣) المصدر نفسه: (٧٩٧).
(٤) المصدر نفسه: (٦٩٣).
(٥) المصدر نفسه: (٦٦٩).

رشد: «عندما يُراد بيع كتب عالِم مات في إشبيلية، فإنها تنقل إلى قرطبة»، وقال الحجازي: «كانت قرطبة قبّة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام، وهي من الأندلس بمكان الرأس من الجسد»، وقد وُصِفت - كذلك - بأنها لم تخلُ من أعلام العلماء، وسادات الفضلاء.

وقال محمد كرد علي: «أنشأ الأندلسيون في كل ناحية المدارس، وخزائن الكتب، وأقاموا في العواصم الجامعات التي كانت وحدها مواطن العلم في أوربا زمناً طويلاً. حتى أصبحت قرطبة مدة ثلاثة قرون أكثر مدن العالم القديم نوراً، وكانت حضارة ملوكها وقصور خلفائها - لكثرة عنايتهم بالعلم والعلماء - أشبه بمجامع علمية»[1] وعندما كتب عن قرطبة، قال:

«إنها أمست عاصمة الخلافة الأندلسية، وغدت عاصمة علمٍ وصناعةٍ، وفنٍ وتجارةٍ، وفي ضاحيتها ثلاثة آلاف قرية، في كل قرية فقيه، وكان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة، كلهنّ يكتبن المصاحف بالخطّ الكوفي، هذا في ناحيةٍ من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها؟!»[2].

وقد ازدهرت المدارس والمعاهد العلمية في أيام الموحّدين بالمغرب والأندلس، وكانت بقرطبة وغيرها يومئذ مجمع العلوم والمعارف، ومقصد الطلاب من كلّ فجٍّ[3].

وقد غصّت هذه المدارس والمعاهد بكتل أهل العلم، ووصل الاهتمام بها في قرطبة حدّاً لا مثيل له، حتى غصّت مكتبة (الحكم الثاني) (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) (٩٦١ - ٩٧٦م) بما لا يقلّ عن

---

(١) الإسلام والحضارة العربية: (١/ ٢٦٠).
(٢) الإسلام والحضارة العربية: (١/ ٢٦٢ - ٢٦٣، ٢٥٦).
(٣) في الأدب الأندلسي: (٥٧) لجودت الركابي.

(٢٠٠,٠٠٠) مئتي ألف مجلد، إذ كان «باذلاً للذّهب في استجلاب الكتب، ويعطي مَن يتّجر فيها ما شاء، حتى ضاقت بها خزائنُه، لا لذَّة له في غير ذلك»[١] و«قلّ أن تجد له كتاباً إلا وله فيه نظر وفائدة، ويكتب اسم مؤلّفه ونسَبه ومولده، ويُغرب ويفيد»[٢]، وقد أسّس في قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة، كان أبناء الفقراء يتعلمون فيها بالمَجان[٣]، حتى ذكر دوزي وغيره أنه بينما كان كل فرد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة، كان جميع النصارى في أوربا ـ حتى النبلاء والأشراف منهم ـ لا يفكرون في التّعليم.

وقد اعتنى المرابطون والموحّدون بالمساجد في الأندلس عامّة، وبقرطبة خاصّة، حتى عُدّ جامعها الأعظم من محاسنها، فقال الرازي عنه: «إن الجامع من إحدى غرائب الأرض الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه»[٤]، وتعاقب عليه ثمانية من الخلفاء كلٌّ يزيد فيه على مَن قبله، حتى كمل[٥]، وقيل: إن إنفاق واحد من غيرهم في زيادة أجراها عليه بلغت مئة ألف وواحداً وستّين ألف دينار ونيفاً، وكله من الأخماس[٦].

في هذا الجو الذي تميّزت به قرطبة نشأ إمامنا أبو عبد الله رحمه

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٦/٢٣٠).
(٢) المصدر نفسه: (١٦/٢٣١).
(٣) انظر في سيرة الحكم الثاني (وهو الحكم بن عبد الرحمن بن محمد الأموي): «يتيمة الدهر»: (١/٢٩٣) و«جذوة المقتبس»: (١٣) و«بغية الملتمس»: (١٨) و«العبر»: (٢/٣٤١) و«البداية والنهاية»: (١١/٢٨٥) و«نفح الطيب»: (١/٣٨٦) و«أزهار الرياض»: (٢/٢٨٦) و«النجوم الزاهرة»: (٤/١٢٧، ١٤٩) و«تاريخ الخلفاء»: (٦٤٩).
(٤) نفح الطيب: (٢/٧).
(٥) نفح الطيب: (٢/٨٣).
(٦) قرطبة الإسلامية: (٤٠)، وانظر تفصيلاً عنه في «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس»: (٣٧٧).

الله، وبدهي أن تكون نشأة مثل هذا العالِم الفاضل نشأة الفتى النابه الطّلعة، الذي يُقبِل على مجالس العلم ومحافله، التي كانت قرطبة تعجّ بها آنذاك، سواء أكانت حلقات العلم هذه بالمدارس أم في المساجد، رغبة في أن ينهل من موردها العذب في العلوم الدينية، التي حاز فيها قصب السبق، وظهر ذلك جليّاً في مؤلّفاته وآثاره[١].

وتتميماً للفائدة، وزيادة في إلقاء الضوء على عصر إمامنا وبيئته نتعرّض للبرامج التعليمية لأطفال المجتمع بالأندلس آنذاك، ومن خلال ذلك نتعرّف على مدى قدرة هذا العالِم الجليل من الناحية العقلية منذ نشأته.

لقد رأى الأندلسيون أنه «ينبغي أن ينشأ الطفل على تعليم العربيّة، ومقاطع الكلام، ويحفظ أشعار العرب وأمثالها»[٢].

قال ابن العربي: «والذي يجب على الوليّ في الصبي المسلم - إذا عقل - أنْ يلقّنه الإيمان، ويعلّمه الكتابة، والحساب، ويُحفِظه أشعار العرب العارِبة، ويعلّمه العوامل في الإعراب، وشيئاً في التصريف، ثم يحفّظه إذا استقلّ واشتدّ في العشر الثاني كتاب الله. ثم يحفظ أُصول سُنن الرسول ﷺ»[٣].

وأوصى ابن العربي بألّا يخلط في التعليم بين عِلْمَيْن. إلّا أن يكون الطالب ذا جودة في الفهم، وقوة في النشاط، وقابلية لذلك، وهو الرأي الذي ذهب إليه شيخه الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»، لأن العلوم - عنده - مرتّبة بحيث إنّ بعضها ممهّد لبعض[٤].

---

(١) القرطبي المفسر: (٢٥) بتصرّف.
(٢) آراء ابن العربي الكلامية: (١/٢٣٢).
(٣) آراء أبي بكر ابن العربي الكلامية: (١/٢٣٥).
(٤) المصدر نفسه.

ولعلّ إمامنا أبا عبد الله ـ رحمه الله ـ كان من أولئك الذين اتّسموا بجودةٍ في الفَهم، وقوةٍ في النشاط الذهني، إذ إن ما حصّله من معارف مختلفة ـ ظهر أثرها في «تفسيره»، وسائر كتبه ـ يوحي بذلك، ويومىء إلى أنه لا بدّ أن يكون قد بدأ في تلقّيها منذ الصِغَر[1].

ومما يدلّ على نباهته، وإقباله على العلم منذ نعومة أظافره، مدح العلماء له، وتعدادهم لمناقبه، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ بيانُه في مبحث (أخلاقه وصفاته وثناء العلماء عليه).

سابعاً: بقي الإمام القرطبي بقرطبة حتى سقوطها، وخرج منها ـ بناءً على ما رجّحناه ـ سنة (٦٣٣ هـ)، ثم انتقل منها إلى مصر، والتي كانت محطّاً لكثير من علماء المسلمين على اختلاف أقطارهم وأجناسهم، إذ وجدوا فيها أمناً فقدوه في ديارهم، ولذلك وجدنا أن كثيراً من علماء الأندلس النابهين وفدوا إلى مصر في هذه المدة العصيبة من تاريخهم، وحسبنا أن نذكر منهم. (الطُّرطُوشي) و(الشاطبي) و(ابن مالك) وإمامنا (القرطبي). ولم تسعفنا المصادر عن تجوّلات القرطبي داخل الأندلس، وهل تنقّل داخلها، وأخذ عن غير شيوخ (قرطبة)، أم أن توفّر العلماء والمشايخ المُبرزين فيها، مع عنائه وكدّه في علمه، لم يسنح له إلّا البقاء فيها، والأخذ من شيوخها.

إلّا أن هنالك لمحات في كتبه تبيّن أنه بعد رحيله عن قرطبة، دخل غير مدينة من مدن مصر، وهذا ما نتعرض له في:

* رحلات الإمام القرطبي

استقر الإمام القرطبي بمنية بني خصيب (المنيا)، ويمرّ الآتي من قرطبة قبل الوصول إليها بعدّة مدن مصرية، فلعل المدن الآتية مرّ بها

---

(١) القرطبي المفسر: (٣٦).

القرطبي أولاً، واستقر فيها برهة من الزمن، ثم انتقل إلى مستقره الأخير، أو أنه كان يرحل في طلب العلم من مستقره، ثم يرجع إليه، وهذا ما نرجّحه، لورود الخبر بشأن سفره وتنقّله إلى الفيّوم، ونخلص من خلال تتبّعنا لمشايخه إلى أنه رحل إلى المدن المصرية التالية:

- **الإسكندرية**: وهي أول بلد عربي يدخله - حينذاك - الوافد من المغرب العربي والأندلس، وقد مكث بها أبو عبد الله مدة من الزمن، وأخذ بها من أبي العباس القرطبي، وأبي محمد ابن رَوَاج، وأبي محمد عبد المعطي اللخمي، وقد صرّح القرطبي بذلك[1]، بل كان يحدّد مكان الأخذ عنهم فيها، فقال مثلاً عن ابن رَوَاج: «أنبأناه... بمسجده بثغر الإسكندرية حماه الله»[2].

- **الفيّوم**: من المدن االتي سافر إليها برفقة القرافي، فذكر الصفدي أن الشيخ فتح الدين محمد بن سيّد الناس اليعمري، قال: «ترافق القرطبي المفسّر، والشيخ شهاب الدين القرافي في السفر إلى الفيّوم، وكلٌّ منهما شيخ فنّه في عصره،...»[3]، ولم تسعفنا كتب التراجم بتفصيلاتٍ عن هذه الرحلة، إلاّ أننا نستطيع أن نقرر هنا أنها كانت رحلة علمية، إذ حصلت إفادةُ كلٍّ منهما بصاحبه، بل أحالَ القرافي مَن أراد بسط أخبار (النفخ في الصور) يوم القيامة إلى كتاب القرطبي «التذكرة»، فقال: «مَن أراد استيعابه، فعليه به»[4]. وهذا يدلّل على أن لقياه، كان بعد تأليف «التذكرة»، وكان تأليفه لها بعد سنة

---

(١) انظر: مبحث (شيوخه) الآتي إن شاء الله تعالى.
(٢) التذكرة: (١٣٨، ٥٨٩) والتذكار في فضل الأذكار: (٦٦، ٩٢، ١٠١).
(٣) الوافي بالوفيات: (٢/١٢٢ - ١٢٣)، وسيأتي بتمامه في مبحث (أخلاقه وصفاته) عند الكلام على زهده وورعه وصلاحه.
(٤) الاستغناء في أحكام الاستثناء: (٤٤٠).

(٦٥٨ هـ)[١]، ومن المحتمل أن تكون اللقيا بينهما متعددة، حصلت غير مرة، ومن بين ذلك رحلتاهما معاً إلى الفيّوم.

- **المنصورة**: قَدِمَ إليها القرطبي، واستقر بها مدة من الزمن، وكان ذلك سنة (٦٤٧ هـ). وأخذ فيها من الشيخ أبي علي الحسن بن محمد البكري، فقرأ عليه، كما صرّح بذلك، فقال رحمه الله: «قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكري بالجزيرة قُبالة المنصورة من الديار المصرية»[٢]. وقال أيضاً: «... أخبرناه عالياً الشيخ الإمام الحافظ المسند أبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكري التيمي من ولد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قراءةً عليه بالمنصورة بالديار المصرية في يوم الجمعة، الثالث عشر، من شهر رجب الفرد سنة سبع وأربعين وست مئة»[٣].

- **القاهرة**: ولا شك في أنّ القرطبي قد عاش بالقاهرة حقبة زمنية؛ إذ كانت حاضرة مصر وعاصمتها، وما كان ليغيب عن عالِم مثله أن يلقى علماءها، ويأخذ عنهم، ويحاورهم، ويفيد من خِبراتهم. ثم إنّ القاهرة طريق لا مَحيصَ من المرور به لكل مسافر إلى صعيد مصر، ومعروف أن القرطبي استقر بمنية ابن خصيب، إحدى مدن الصعيد[٤].

- **منية بني خصيب**: وهي تلك المدينة التي استقر بها الإمام

---

(١) لأنه ذكر فيها (ص ٦٩٨) وقعة (عين جالوت) وكانت في الخامس والعشرين من رمضان، سنة (٦٥٨ هـ).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ١٤١).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٤٢٨). وقع فيها تصحيف، صوّبناه هنا، بالرجوع إلى النسخ الخطية.

(٤) القرطبي المفسر: (٤٤) وذُكر فيه أن القرطبي سمع بالقاهرة من الحسن البكري!! وهو وهم، لأنه سمع منه في المنصورة، كما قدمنا آنفاً.

القرطبي، ومات بها، قال الصفدي: «توفي بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى بمصر»[1]، وقال المراكشي: «استوطن منية ابن خصيب من أرض مصر»[2]، وقال الأستاذ أحمد بدوي: «... ثم وفد إلى مصر، كما وفد غيره من علماء الأندلس، وكانت بلادهم في ذلك الحين تتخطفها الفرنجة، ولست أدري متى قَدِمَ إلى مصر. واستقرّ في الصعيد، بمنية ابن خصيب (المنيا)، يقضي وقته بين العبادة والتأليف»[3].

ووصف ياقوت هذه المدينة، وسمّاها (منية أبي الخصيب)، وقال: «مدينة كبيرة، حسنة، كثيرة الأهل والسكن، على شاطىء النيل في الصعيد الأدنى، قد أنشأ فيها (أبو اللمطي) أحد الرؤساء جامعاً حسناً»[4].

ولعلّ مؤلفات الإمام القرطبي قد كُتِبت في ربوع هذه المدينة، ولعلّ السرّ في اختيارها مقرّاً له حبُّه الشديدُ وملازمتُه لشيخه (ابن الجُمَّيزي) المتوفّى (سنة ٦٤٩ هـ)، فإنه روى عنه الكثير، وسمع منه بهذه المدينة، وكان القرطبي يقول: «... أنبأناه الشيخ الفقيه الإمام مفتي الأنام أبو الحسن علي بن هبة الله الشافعي بمنية بني خصيب على ظهر النيل...»[5]. والمعروف من كتب التراجم أن شيخه هذا كان مقرّه في القاهرة، ولعله جاء لمنية بني خصيب عَرَضاً، أو بدعوة من

---

(١) الوافي بالوفيات: (١٢٢/٢).
(٢) الذيل والصلة: (٥٨٥/٥).
(٣) مقال الأستاذ أحمد أحمد بدوي: «من المفسّرين في عصر الحروب الصليبية: القرطبي»: ص ١٧٠٣.
(٤) معجم البلدان: (٢١٨/٥). وسيأتي مزيد تعريف بها عند الكلام عن وفاته.
(٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (١٣٨) والتذكار في فضل الأذكار: (٩٥) ط دار الكتاب العربي.

تلميذه أبي عبد الله، وكثرة أخذه عنه يسمح بهذا الاحتمال، ولعله كان يتردّد عليه في بعض الأحايين على القاهرة، وهذا يقوّي ما قدّمناه آنفاً، أو لعلّه استقر هذا الشيخ في هذه البلدة، وهذا ما استظهرناه هنا، والله تعالى أعلم.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن أهل الصعيد ـ آنذاك ـ كان يغلب عليهم الزهد والتعبّد[1]، فلعلّ هذا سببٌ في اتخاذ القرطبي لها مستقراً، أو أنه طمع في الإفادة من وقته، بحيث يفرغ للعلم والعبادة، ولا سيما أنه خرج من قرطبة كسير القلب، مهموم البال. وعلى كل حال فإن هذه الرحلات ـ ولعلّه يوجد غيرها ولم نقف عليه ـ أفاد منها القرطبي علماً وتجربةً، ولقي في أثنائها أفاضل وعلماء، أثّروا به، واستفاد منهم، ولا سيما في علم رواية الحديث النبوي الشريف.

* أوضاع مصر السياسية والاجتماعية في عصر القرطبي

بقي بعد هذا كله... أن نتعرّف على أوضاع مصر في عصر القرطبي، أثناء وجوده فيها، والنّاظر في كتبه يجد أنه كثير الشكوى من أهلها، ومن عاداتهم وتقاليدهم، وألفاظهم وحبّهم للتعظيم، ويجد الباحث فيها أيضاً لمحاتٍ عن الأوضاع السياسية، فإن القرطبي كان فيها في عصر المماليك، وعملوا ـ آنذاك ـ على تخليص المشرق العربي من الغزو الصليبي، وردّوا غارات التتار التي كانوا يقصدون بها مصر، بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية ببغداد، وأعملوا السيف في أهلها، وحرقوها، وبعد أن نهبوا بلاد الشام، وغدروا بأهلها، وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلّا الله تعالى، ونهبوا البلاد كلها، حتى وصلوا إلى (غزة) يقصدون مصر، وهنا بادرهم (سيف الدين قطز)، قبل أن يبادروه،

---

(١) راجع: «الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي»: (ص ١٦٧ - ١٦٨) لعبد اللطيف حمزة.

فخرج في عساكره، وقد اجتمعت الكلمة عليه حتى انتهى إلى الشام، واستيقظ له عسكر المغول، وعليهم (كتبغانون)، فكان اجتماعهم في (عين جالوت) يوم الجمعة، الخامس والعشرين من رمضان، سنة (٦٥٨ هـ)، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فكانت النصرة ـ ولله الحمد والمنّة ـ للإسلام وأهله، وهزم المغول هزيمة هائلة، وقتل أميرهم (كتبغانون)، وردّ الله سبحانه بذلك عن مصر شرّاً مستطيراً، وحمى دولة الإسلام من هؤلاء المدمّرين المخرّبين[1].

وفي هذا يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

«وخرجوا في هذا الوقت على العراق الثالث (بغداد). وما اتّصل بها من البلاد، وقتلوا جميع مَن كان فيها من الملوك، والعلماء، والفضلاء، والعباد، وحصروا ميّافارقين، واستباحوا جميع مَن فيها من الملوك والمسلمين، وعبروا الفرات، إلى أن وصلوا إلى مدينة حلب، فخرّبوها وقتلوا مَن فيها إلى أن تركوها خاليةً يباباً، ثم أوغلوا إلى أن ملكوا جميع الشام في مدةٍ يسيرةٍ من الأيام، وفلقوا بسيوفهم الرؤوس والهام، ودخل رعبهم الديار المصرية، ولم يبقَ إلّا اللحوق بالدار الأخروية، فخرج إليهم من مصر الملك المظفر الملقّب بـ (قطز) ـ رضي الله عنه ـ بجميع مَن معه من المعسكر، وقد بلغت الحناجر القلوب والأنفس، بعزيمةٍ صادقة، ونيّة خالصة، إلى أن التقى بـ (عين جالوت)، فكان له عليهم من النصر والظفر، كما كان لطالوت، فقُتِل منهم جمع كثير، وعدد غزير، وانجلوا عن الشّام من ساعتهم، ورجع جميعه كما كان إلى الإسلام، وعبروا الفرات منهزمين، ورأوا ما لم

(١) راجع: «البداية والنهاية»: (١٣/ ٢٠٠ ـ ٢٦٣) و«السلوك لمعرفة دول الملوك»: (١/ق ٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٩) و«المختصر في أخبار البشر»: (١/ ٩٩ ـ ١٢٨) و«القرطبي المفسّر»: (١٧ ـ ١٨).

يشاهدوه منذ زمان، ولا حين، وراحوا خائبين، خاسرين، مدحورين، أذلّاء، صاغرين»[1].

أما عن شكوى القرطبي من أهل مصر فكثير، مبثوثٌ في كتبه، نقتصر منه على ما يلي: قال رحمه الله تعالى: «وعدم الغيرة في كثيرٍ من أهل مصر موجود»[2]، وقال: «وأما ظهور الزنا فذلك مشهور في كثير من الديار المصرية»[3]، وقال أيضاً:

«قال ابن العربي:

وأما الأسواق، فسمعتُ مشيخة أهل العلم يقولون: لا يدخل إلاّ سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه، ولا يأكل فيها، لأن ذلك إسقاط للمروءة، وهدم للحِشمة، ومن الأحاديث الموضوعة: «الأكل في السوق دناءة»».

وعلّق عليه بقوله: قلت: «ما ذَكَرَتْهُ مَشْيَخَةُ أهلِ العلم فَنِعِمَّا هو، فإن ذلك خالٍ عن النَّظَر إلى النّسوان ومخالطتهنّ، إذ ليس بذلك من حاجتهنّ. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهنّ، وقلّة الحياء قد غلبت عليهنّ، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهنّ، قاعدة متبرّجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا، نعوذ بالله من سخطه»[4].

وقال أيضاً: «هذا الانحناء والتَّكَفِّي، الذي نسخ عنّا، قد صار عادةً بالدّيار المصريّة، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى البعض، حتى أن أحدهم، إذا لم يُقَمْ له، وَجَد في نفسه، كأنه لا يُؤبه به، وأنه

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٦٩٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٩/١٧٥).
(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧٤٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن: (١٣/١٧).

لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة، لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء، تنكّبوا عن السُّنَن، وأعرضوا عن السَّنن»[1].

وقال أيضاً: «وقد انقلبت الأحوال بإتيان المنجّمين والكُهّان، لا سيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجّمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين، فجاءوا إلى هؤلاء الكَهَنة والعرّافين، فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أموالهم على السّراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال، وكل ذلك من الكبائر»[2].

وقال أيضاً: «أما دخول الحمّام في هذه الأزمان، فحرام على أهل الفضل والدين، لغلبة الجهل على الناس، واستسهالهم إذا توسّطوا الحمّام، رموا مآزِرَهم، حتى يُرى الرجلُ البَـهيّ ذو الشّيْبَة، قائماً منتصباً وسط الحمّام، وخارجاً بادياً عن عورته، ضامّاً بين فخذيه، ولا أحد يغيّر عليه، هذا أمر بين الرجال، فكيف من النساء!! لا سيّما بالدّيار المصريّة، إذ حمّاماتهم خاليةٌ عن المطاهر، التي هي عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم»[3].

وقال أيضاً: «فالحكم الإسراع في المشي ـ أي في الجنازة ـ لقوله ﷺ:

«أسرعوا بالجنازة، فإن تكُ صالحةً، فخيرٌ تُقَدّمونها إليه، وإن تكن غير ذلك، فشرٌّ تضعونه عن رقابكم».

لا كما يفعله اليوم الجُهّال في المشي رُويداً، والوقوف بها المرّة

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٩/ ٢٦٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٢/ ٢٢٤).

بعد المرّة، وقراءة القرآن بالألحان إلى ما لا يحلّ ولا يجوز، حسب ما يفعله أهل الديار المصرية، بموتاهم»[1].

هذه صور من المجتمع المصري آنذاك، بثّ الإمام القرطبي أنّاته وشكواه منها، لمخالفتها الشرع، وكأنه بذلك يحذّر مسلمي هذا العصر منها، واستطردتُ بهذه النقول لأبيّن المجتمع المصري في عصر القرطبي من جميع جوانبه ونواحيه.

*** وفـــــاته**

بعد أن استقرّ القرطبي بمصر قرابة ثمانية وثلاثين عاماً، توفّاه الله تعالىٰ بمنية بني خصيب، وهي مدينة تقع بالصعيد الأدنى، شمال أسيوط، سُمّيت بهذا الاسم نسبة لرجل يسمى (الخصيب) أو (ابن الخصيب). وكان حاكماً لها من قِبَل بعض الخلفاء العباسيين[2]، ويُقال لها اليوم (المِنْيا)، ضمن المحافظة المسمّاة باسمها. وكان ذلك ليلة الاثنين، التاسع من شوّال، سنة إحدى وسبعين وست مئة، وهذا يكاد يكون موضع اتفاق بين الكتب التي ترجَمَت له[3]، على أن بعضها قد أغفل ذكر اليوم[4]، وبعضها أغفل ذكر الشهر الذي توفي فيه[5]، مكتفياً بذِكْر العام فقط.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ٣٠٠).

(٢) الخطط التوفيقية: (١٦/ ٥١).

(٣) انظر منها ـ على سبيل المثال ـ: «الوافي بالوفيات»: (٢/ ١٢٢) و«نفح الطيب»: (٢/ ٤١٠) و«طبقات المفسّرين»: (٢/ ٦٦) للداودي و«طبقات المفسّرين»: (٧٩) للسيوطي و«الديباج المذهّب»: (٣١٧) و«شجرة النور الزكية»: (١٩٧). ولم يُعَيِّن المراكشي سنة وفاته واكتفى بقوله في «الذيل والصلة»: (٥/ ٥٨٥): «حيّاً سنة ثمانٍ وخمسين وست مئة».

(٤) انظر ـ على سبيل المثال ـ: «الديباج المذهّب»: (٣١٧) و«شجرة النور الزكية»: (١٩٧).

(٥) انظر ـ على سبيل المثال ـ: «الوافي بالوفيات»: (٢/ ١٢٢). وفيه: «توفي أوائل سنة إحدى وسبعين وست مئة» ـ و«طبقات المفسّرين»: (٧٩) للسيوطي.

وقبره معروف اليوم بمكان يسمى (أرض سلطان) بالمِنْيا، وأُقيم عليه حديثاً سنة ١٩٧١م بنـاءُ مسجد كبير، يحمل اسمه، ويضمّ ضريحاً نُقِلَت رُفات القرطبي إليه من الضريح القديم[1]، رحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيح جنّاته.

---

(١) القرطبي ومنهجه في التفسير: (٣٠).

الفَصْلُ الثَّانِي

أَخْلَاقُهُ وَصِفَاتُهُ وَثَنَاءُ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ

إذا ما تعقّبنا تراث الإمام القرطبي رحمه الله تعالى لنتعرّف صفاتِه الخلقيّةَ والنّفسيّةَ، لم نستطع أن نجد ما يُعيننا على رسم صورةٍ كاملةٍ، لأنّ المصادر التي نعتمد عليها لا تُسعفنا بذلك.

وحسبنا أن نعرض بعضَ ما تميّز به، مما سجّله مُترجِموه، ومما نستنبطه من أخباره المبثوثة في كتبه، لتكون كالدليل إلى ما لا نعلمه.

*** زهده وورعه وصَلاحه**

أثنى المؤرّخون على القرطبي، وامتدحوه بتحلّيه بهذه الصّفات الحميدة، فقال ابن فرحون وتبعه الداودي:

«كان من عباد الله الصّالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزّاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة»[1].

ويلمس القارىء لكتب إمامنا القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ نَفَسَ عالمٍ صالحٍ ورعٍ زاهدٍ في كل صفحةٍ من صفحاتها، فهو يشكو دوماً من كثرة الفساد، وانتشار الحرام، والابتعاد عن الواجبات، والوقوع في المحرّمات.

---

(١) الديباج المذهب: (٣١٧) و«طبقات المفسّرين»: (٢/ ٦٥)، والمذكور بالحرف عند المقري في «نفح الطيب»: (٢/ ٤٠٩) وقبله: «وقال الحافظ عبد الكريم في حقّه...».

ومن مظاهر ورعه وزهده: تصنيفه كتابي «قمع الحرص بالزّهد والقناعة» و«التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، ومن مظاهره أيضاً: ذَمّه الغنى الذي يجعل صاحبه مزهوّاً به، بعيداً عن تعهّد الفقراء، ضعيفاً في التّوكّل على ربّ الأرض والسماء، فيقول في الأغنياء:

«لمّا طلبوا الجاهَ والمالَ شانَ الله وجوههم، ولما طَووا كشحاً عن الفقير إذا جالسهم كُوِيَتْ جنوبهم، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها، واعتماداً عليها، كُوِيَتْ ظُورُهم»[1].

ومن مظاهره أيضاً: عمارة وقته، وإفادته منه، بين عبادةٍ وتوجّه وتصنيف، كما وصفهُ بذلك غيرُ واحدٍ من مُترجِميه[2].

ومنشأ هذا الخُلُق الطّيّب: إيمانه العميق بالله سبحانه، وحرصه على رضاه، وعلمه بحقيقة الدنيا، وأنه لا قيمة لها بالنسبة إلى العقبى، فيقول رحمه الله: «فمَن أطاع مولاه، وجاهد نفسه وهواه، وخالف شيطانه ودنياه، كانت الجنة نُزُلَهُ ومأواه، ومَن تمادى في غيّه وطغيانه، وأرخى في الدّنيا زِمامَ عصيانِه، ووافق نفسه وهواه في مناه ولذّاته، وأطاع شيطانه في جميع شهواته، كانت النّار أولى به»[3].

ومن مظاهر صلاحه: ما ذكرت كتب التّراجم من عناية الله عزّ وجل له، وإحاطتها به، ويتمثّل ذلك في حادثتين:

أولاهما: ما حكاه عن نفسه، قال رحمه الله تعالى:

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٣٦٠) والجامع لأحكام القرآن: (٨/ ١٢٩).
(٢) الديباج المذهب: (٣١٧) و«نفح الطيب»: (٢/ ٤٠٩) و«طبقات المفسّرين»: (٢/ ٦٥) للداودي.
(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٤٩١).

«ولقد اتّفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أنّي هربتُ أمام العدو، وانحزتُ إلى ناحيةٍ عنه، فلم يلبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض، قاعد ليس يسترني عنها شيء، وأنا أقرأ أوّل سورة «يسٓ»، وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليّ، ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيْبَلَة ـ يعنون شيطاناً ـ وأعمى الله عزّ وجلّ أبصارهم، فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك»[1].

والآخرة: ما حكاه الصفدي، قال رحمه الله تعالى وهو يتكلّم عن رحلة القرطبي والقرافي إلى الفيّوم ما نصّه: «فلما دخلاها، ارتادا مكاناً ينزلان فيه؛ فدلّا على مكانٍ، فلما أتياه، قال لهما إنسان: يا مولانا! بالله لا تدخلاه، فإنه معمور بالجانّ، فقال الشيخ شهاب الدين ـ أي: القرافي ـ للغلمان: ادخلوا، ودعونا من هذا الهذيان، ثم إنهما توجّها إلى جامع البلد إلى أن يفرش الغلمانُ المكانَ، ثم عادا، فلما استقرّا بالمكان سمعا صوت تَيْسٍ من المعز، يصيح من داخل الخرستان، وكرّر ذلك الصّياح، فامتقع لون القرافي، وخارت قواه، وبُهت، ثم إن الباب فُتح وخرج منه رأس تيس، وجعل يصيح، فذاب القرافي خوفاً، وأما القرطبي فإنه قائم إلى الرأس، وأمسك بقرنيه، وجعل يتعوّذ ويبسمل، ويقرأ: ﴿ آلله أَذِن لكم أم على الله تفترون ﴾[2] ولم يزل كذلك حتى دخل الغلام، ومعه حبل وسكّين، وقال: يا سيدي! تَنَحَّ عنه، وجاء إليه، أخرجه وأنكاه وذبحه، فقال: لمّا توجهتما رأيتُه مع واحدٍ، فاسترخصته واشتريتُه لنذبحه ونأكله، وأودعته في هذا الخرستان، فأفاق القرافي من حاله، وقال: يا أخي! جزاك الله خيراً، ما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ٢٧٠).
(٢) سورة يونس: آية ٥٩.

كنت قلت لنا، وإلا طارت عقولنا، أو كما قال»[1].

فهاتان الحادثتان تدلّان على صلاح الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، إذ كلّ واحدة منهما بمثابة الكرامة له، التي لا تكون إلاّ لعباد الله الصّالحين.

ومن الحادثتين معاً نستفيد أن القرطبي عندما كانت تنزل به ضائقة أو مصيبة كان يتّجه إلى الله العليّ القدير، حنيفاً مسلماً، عابداً خاشعاً، متضرعاً متبتّلاً، وهذه هي بعض صفات الصالحين.

*** شجاعته وجرأته في الحق**

لا غرابة في أن يكون القرطبيّ شجاعَ القلب، جريئاً في إعلان ما يعتقده حقّاً لأنه قد استكمل الأسباب التي تسلّحه بهذه الجرأة من علمٍ واسع، وورعٍ مشهود، واستهانة بالدنيا ومظاهرها.

لهذا كان ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويتمثّل هذا في إيمانه في أكثر من موضعٍ من «تفسيره» إلى أن الحكّام في عصره حادوا عن سَواء السبيل، فهم يظلمون ويرتشون، وتسوّد عندهم أهل الكتاب، وهم من ثم ليسوا أهلاً للطّاعة ولا للتقدير.

ففي تفسير قول الله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾[2] ينقل رأياً لابن عطيّة، مفاده: لا تُصانعوا بأموالكم الحكّام وترشوهم؛ ليقضوا لكم على أكثر منها، قال ابن عطية: وهذا القول أرجح، لأن الحكّام مظنّة الرشا إلاّ مَن عصم الله، وهو الأقلّ، ويعلّق القرطبي على هذه المقولة بقوله:

---

(١) الوافي بالوفيات؛ (٢/١٢٢ ـ ١٢٣).
(٢) سورة البقرة: آية (١٨٨).

«فالحكّام اليوم عين الرشا لا مظنّته، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله»[1].

وصرّح بذلك أيضاً في كتابه «التذكرة»، فاسمع إليه وهو يقول:

«هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلّب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي بذلك منهم الحكّام، فصار الحكم مكساً، والحقّ عكساً، لا يوصل إليه، ولا يقدر عليه، بدّلوا دين الله، وغيّروا حكم الله، سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت ﴿ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[2] والظالمون والفاسقون، في الكفّار خاصّةً كلها، وقيل: عامّة فيمن بدّل حكم الله»، ثم قال:

«ولقد أحسن ابن المبارك حيث يقول في أبياتٍ له:

وهل أفسد الدّينَ إلّا الملوك
وأحبار سوءٍ ورهبانها»[3]

وقال بعد أن ذكر أنه جاء عمر كتابٌ، فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ فقال: إنه لا يدخل المسجد. فقال؛ لِمَ! أَجُنُبٌ هو؟ قال: إنه نصراني، فانتهره وقال: لا تُدْنِهِم وقد أقصاهم الله، ولا تُكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأْمَنهم وقد خوّنهم الله. وعن عمر رضي الله عنه قال: لا تستعملوا أهلَ الكتاب، فإنهم يستحلّون الرِّشا، واستعينوا على أموركم وعلى رعيّتكم بالذين يخشون الله تعالى. وقيل لعمر رضي الله عنه: إن ههنا رجلاً من نصارى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٢/ ٣٤٠).
(٢) سورة المائدة: آية ٤٤.
(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧٤٠) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (١٣/ ١٧٩).

الحِيرة، لا أحد أكتب منه، ولا أخطّ بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بِطانة من دون المؤمنين.

فقال بعد هذه الآثار: «فلا يجوز استكتاب أهل الذمّة، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستنابة إليهم» ثم تعرّض إلى أحوال وُلاة وأمراء عصره، فقال: «وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتّخاذ أهل الكتاب كَتَبَة وأُمناء، وتسوَّدوا بذلك عند الجَهَلَة الأغبياء من الوُلاةِ والأُمراء»(١).

وأكثر ما يظهر خلقه هذا في تصريحه بأن طاعة وُلاة عصره وزمانه غير واجبة، لأنهم عصوا وبغوا، فيقول رحمه الله تعالى:

«إن وُلاة زماننا لا تجوز طاعتهم، ولا معاونتهم، ولا تعظيمهم»(٢).

بل يذهب رحمه الله تعالى إلى أبعد من هذا، إذ يعتبر ذِكرهم والدعاء لهم في خطبة صلاة الجمعة من ذكر الشيطان، فيقول:

«ما كان من ذكر رسول الله ﷺ والثّناء عليه، وعلى خلفائه الراشدين، وأتقياء المؤمنين، والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله. فأما ما عدا ذلك من ذكر الظّلمة وألقابهم والثّناء عليهم والدّعاء لهم، وهم أحقّاء بعكس ذلك، فهو من ذكر الشيطان، وهو من ذكر الله على مراحل»(٣).

وفي قصّة وصول القرطبي إلى الفيّوم مع صديقه العلاّمة القرافي المتقدّم ذكرها دلالة على شجاعته ورباطة جأشه، فإنه تمالك قوّته، وفزع إلى ذكر الله، واستعصم بآياته.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ١٧٩).
(٢) المصدر نفسه: (٥/ ٢٥٩).
(٣) المصدر نفسه: (١٨/ ١٠٧).

* غيرته وشدّة حرصه على الدّين

وإذا كان القرطبي قد تعرّض للحكّام في عصره بمثل ما ذكرتُ طرفاً منه، فإنه قد تعرّض كذلك لعامّة الناس موضّحاً أنهم على دين وُلاتهم، فقد فشا بينهم الظلم، وضعف وازع الدين في نفوسهم، وكثرت فيهم البِدَع والمنكرات، وهذا يدلّنا على شدّة حرص القرطبي على الدين، وعلى غيرته الشديدة عليه، وهذا ما لحظناه في الفصل السابق عند كلامنا على أوضاع مصر، وشكواه من الفساد والضلال.

* بساطته وتواضعه

نعرف من حياة بعض الكُبَراء والقادة أنهم كانوا يزهون بمعارفهم، ويدلّون بمكانتهم، ويعتدّون ذلك من مقوّمات شخصيتهم، ومن مكمِّلات المظهر، ورِفعة الشأن. ونعرف في كثير من العلماء والأدباء والصُلَحاء سماحة النفس، ودماثة الخلق، ورقّة المعاملة، والتواضع الذي لا يمسّ العظمة، بل يعلّيها ويغلّيها. وقد كان إمامنا القرطبي من هؤلاء، إذ كان ـ كما قدّمنا ـ ورعاً زاهداً في الدنيا، راغباً عمّا بأيدي الناس، وكان واسعَ العلم، غزيرَ الثّقافة، فاستغنى بهذا عن الزهو والخيلاء.

ومن مظاهر بساطته وتواضعه: ما وصفته كتب التراجم من أنه «كان طارحَ التكلّف، يمشي بثوبٍ واحدٍ، وعلى رأسه طاقيّة»[١].

ولا ينبغي أن يُفهَم من ذلك أن الرّجل كان بمظهره هذا مثل جُهّال المتصوّفة ـ على حدّ تعبيره ـ الذين يعمدون إلى لبس الخشن من الثياب أو المرقّعات، ثم لا يخلعونها عن أجسادهم حتى تبلى! إذ نقرأ له ما يدفع هذا الوهم، فقال في تفسير قول الله سبحانه: ﴿ ولباس التقوى

---

(١) الديباج المذهب: (٣١٧) ونفح الطيب ٢/٤٠٩ وطبقات المفسرين ٢/٦٦ للداودي.

ذلك خير ﴾[1] قال: إنه قيل في لباس التقوى: «لبس الصّوف والخشن من الثياب عمّا يتواضع به لله تعالى، ويتعبّد له، خير من غيره»، ثم قال: «وقيل هو استشعار تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه» وصوّب هذا القول الأخير، وعدّل الأول، فقال: «قلت: وهو الصحيح، وإليه يرجع قول ابن عباس وعروة»، وقال: «ومَن قال: إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدعوى، فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى»[2].

ثم فسّر الزّينة في قوله تعالى: ﴿ قل مَن حرّم زينة الله. . . ﴾[3] بأنها الملبَس الحسن إذا قدر عليه صاحبه، وأن الآية دلّتْ على لباس الرّفيع من الثياب، والتجمّل بها في الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان، ثم ذكر بعضَ العلماء والفضلاء الذين كانوا يلبسون أجودَ الثياب وأغلاها، مثل: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وتميم الدّاري، ومالك بن دينار، وعقّب على ذلك بقوله: «أين هذا ممّن يرغب عنه، ويؤثِر لباس الخشن من الكتّان والصوف من الثياب، ويقول: ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾[4] هيهات!! أترى مَنْ ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله! بل هم أهل التقوى، وأولـو المعرفة والنُّهَى، وغيرهم أهل دعوى، وقلوبهم خالية من التّقوى»[5].

إن هذا الكلام الذي ساقه القرطبي في تفسير الزينة واللباس الحسن يتّسق مع ما عُرِفَ من الأندلسيين بعامّة، فقد وصفهم ابن غالب

---

(١) سورة الأعراف: آية (٢٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٨٥/٧).
(٣) سورة الأعراف: آية (٣٢).
(٤) سورة الأعراف: آية (٢٦).
(٥) الجامع لأحكام القرآن: (١٩٦/٧).

في رسالته: «فرحة الأنفس» وكاد أن يقول بأنهم حازوا محاسن أهل الأرض جميعاً، فقال:

«وأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزّة والأنفة، وعلو الهِمَم، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم، وحبّهم فيها، وضبطهم لها، وروايتهم. بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقّة أخلاقهم، ونباهتهم، وذكائهم، وحُسْن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدّة أفكارهم، ونفوذ أفكارهم»[1].

وقال المقّري في أهل الأندلس: «وأهل الأندلس أشدُّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلّق بهم، ومنهم مَن لا يكون عنده ما يقوته يومه فيطويه صائماً، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالةٍ تنبو العين عنها»[2].

فهذان النّصّان يصوّران لنا الأندلسيَّ رجلاً يبالغ في العناية بمظهره مبالغةً تجعله يطوي النهار صائماً وعارياً في بيته، ولا يخرج على الناس بهيئةٍ مستقبحةٍ.

أما القرطبي فقد ملكت عليه الآخرة أقطار نفسه، فكان يعنى بمظهره، ولكنه لم يكن يبالغ في ذلك على هذه الصّورة، كما هي عادة الأندلسيين، ومن هنا قال المؤرّخون عنه: «وكان طارح التكلّف»، فهذه العبارة لا تعطي سوى ذلك، ولا تعطي أبداً أنه كان رثَّ الهيئة، مهلهل الثياب، فإن هذا ليس من الدين في شيء[3].

ويدلّك على هذا كلامه الماتع الرائع على حدود الزينة التي ينبغي أن ينتبه لها الرجال، فبيّنها بعد أن أورد مقولة ابن عباس: «إني

---

(١) نفح الطيب: (٤/١٤٦).

(٢) المصدر السابق: (١/١٠٤).

(٣) القرطبي ومنهجه في التفسير: (٣٦).

لأتزيّن لامرأتي»، فقال: «زينة الرجال على تفاوت أحوالهم، فإنهم يعملون ذلك على اللَّبَق[١] والوفاق، فربما كانت زينة تليق في وقت ولا تليق في وقت. زينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ، ولا تليق بالشباب، ألا ترى أن الشيخ والكهل إذا حفَّ شاربه لِيقَ به ذلك وزانه، والشابّ إذا فعل ذلك سَمُجَ ومُقِتَ لأنّ اللحية لم توفّر بعد، فإذا حفَّ شاربه في أوّل ما خرج وجهه سَمُج، وإذا وفرت لحيته وحفَّ شاربه زانه ذلك. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرني ربّي أن أُعفي لحيتي، وأُحفِي شاربي». وكذلك في شأن الكسوة، ففي هذا كله ابتغاء الحقوق، فإنما يعمل على اللَّبق والوِفاق، ليكون عند امرأته في زينةٍ تسرُّها، ويُعفَّها عن غيره من الرجال. وكذلك الكحل من الرجال، منهم مَن يليق به، ومنهم مَن لا يليق به. فأمّا الطيب والسّواك والخِلال[٢] والرّمي بالدّرَن وفُضول الشعر، والتطهير، وقَلْم الأظفار، فهو بَيِّن موافق للجميع. والخِضَاب للشيوخ، والخاتم للجميع من الشباب، والشيوخ زينة، وهو حَلْيُ الرجال على ما يأتي بيانُهُ.

ثم عليه أن يتوخّى أوقات حاجتها إلى الرجل، فيُعِفَّها، ويُغنيها عن التطلّع إلى غيره. وإنْ رأى الرجل من نفسه عجزاً عن إقامة حقّها مضجعها، أخذ من الأدوية التي تزيد في باهه[٣]، وتُقوّي شهوته حتى يُعفّها»[٤].

ولا شك أن مقولة المؤرخين السّابقة في أنّ القرطبي كان طارح التكلّف تدلّ على زهده في الدنيا، وشغفه بالعبادة، وإقباله على العلم،

---

(١) اللَّبَق: ـ بالفتح ـ: اللباقة والحذق.

(٢) يريد استعمال الخلال وهو: إخراج ما بين الأسنان من فضول الطعام.

(٣) الباه: النكاح، كما في «القاموس المحيط»: مادة (البُوهَة): (ص١٦٠٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: (١٢٤/٣).

ذلك أن فعله ذلك من شأن الفضلاء الذين يعنيهم حسن المخبر، ولا يشغلهم المظهر.

وإذا كان الزهد والانصراف عن الدنيا خليقاً بمثل إمامنا الفاضل، فإن لنا أن نستنتج من مشيه بثوب واحد أنّ الرجل كان رقيق الحال، وأنه لم يصب من الغنى ما يستطيع به أن يعيش حياة مترفة[1].

ومنشأ هذا الخلق هو صلاحه وتقواه وعلمه وخشوعه، فإنه قال في تفسير قوله سبحانه: ﴿ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾[2] ما نصّه:

«وحقّ لكل مَن توسّم بالعلم، وحصّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن، ويتواضع ويَذِلّ»[3].

ولعلّ بساطته هذه انعكست على بيته، كما أثّرَتْ في مظهره وملبسه، ولا عجب في ذلك، فهو قد حثّ على «ترك التزيّن في الأثاث والبناء واللباس والطعام والشراب، وتغيير الفراش بالقيام بالليل عوض البطالة والغفلة والمعصية»[4].

*** جدّيته في الحياة، ومَضاء عزيمته**

إن الدارس لحياة الإمام القرطبي يعجب كل العجب من حياة الجدّ والصرامة التي أخذ بها نفسه حتى ألِفَها، فهو رحمه الله تعالى قد كرّس حياته للعلم والمطالعة والتأليف دون أن يُؤثَر عنه مَلَل أو سَأم، أو يُعرَف عنه أنه كان يتوقف عن ذلك لراحةٍ أو استجمام، ولذا وصفه مترجموه بقولهم: «أوقاته معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف»[5].

---

(١) القرطبي المفسر: (٦٥).
(٢) سورة الإسراء: آية (١٠٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/٣٤١).
(٤) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٦٨).
(٥) الديباج المذهب: (٣١٧) ونفح الطيب: (٢/٤٠٩) وطبقات المفسّرين: (٢/٦٥) للداودي.

ولا شك أن جدّية إمامنا القرطبي كانت بسبب استشعار قيمة وعظمة ما يدرس ويصنّف، فهو على صلةٍ دائمةٍ مع النصوص الشرعية التي تحثّ على الصدق في القول والعمل، ومخاطبة الناس بالطيب من القول، وتنهى عن السّفه وبذاءة اللسان، وتنفّر من الكبر والرياء والنفاق، وتحذّر من الافتتان بمباهج الحياة والانسياق وراء مغرياتها. ولا نستغرب ولا تنتابنا الدهشة من هذا الخلق إذا فهمنا البواعث النفسية التي كانت تسيطر على صاحبنا، فهو كثير الهمّ على مسلمي عصره، شديد التمسّك بسنّة نبيّه ﷺ، متأثر على ما حلّ ببلادهِ، حريص على العلم الشرعي، فضلاً عن تأثّره بخُلُق كثير من مشايخه لا سيما المحدّثين منهم، الذين كانوا يتصدّرون لتدريس الحديث وروايته، وإذا ما عرفنا الآداب العامّة التي كانوا يحرصون على التقيّد بها، ويتشدّدون في التزامها، والتحلّي بها، كي يكون لهم المهابة والوقار في نفوس مستمعيهم وطلابهم، فهم حريصون كل الحرص على أن يكونوا منسجمين تماماً مع العلم الذي يدرّسونه، كي لا يكون هناك تناقض بين سلوكهم وأقوالهم، بل هم يشدّدون على أنفسهم كي يكونوا قدوةً حسنة لتلاميذهم.

فإذا ما استحضرنا هذه النّقاط في أذهاننا أمكننا أن ندرك أن حياة الإمام القرطبي لم تكن ضرباً من الشذوذ أو التزمّت، وإنما كانت حياةً طبيعيّةً منسجمةً تماماً مع شخصيته وآماله وسلوكه كعالِم من علماء القرن السابع الهجري، الذين يستشعرون عظمة وقيمة ما يدرسون، وأنهم يرون أنّ حفظ هذا العلم لا يكون إلّا بالمُدارسة والجدّ والتّحصيل وكثرة الاطّلاع.

وكان من آثار جدّيته في الحياة، ومَضاء عزيمته التي تأبى على الفتور والكلال، وتسلحه بالصبر الحافز، والجدّ الدائب، والنشاط

الموصول مجموعة غير قليلة من المصنَّفات، بعضها من المطوّلات، مثل «الجامع لأحكام القرآن».

وبهذه الجديّة والعزيمة قرأ كثيراً، وحفظ كثيراً، كما أنه ألَّف كثيراً، وكان يستهين بالجهد المضني، ويستسهل الصعب المُجهِد، وبقي على هذا إلى آخر أيام حياته، بخلاف بعض العلماء الذين لم تتوفر فيهم هذه الصّفة، كالجرجاني الذي بلغ به سخطه وتهكمه بالجَهَلَة الذين يجدون المال، وينالون الجاه في بعض الأحايين، إلى أنه نصح بترك العلم، لأن السّعادة ـ على رأيه ـ مقرونة بالجهل، فقال في ذلك:

كَبِّر على العلم يا صديقي
ومِلْ إلى الجهل ميل هائم
وعش حماراً تعش سعيداً
فالسعد في طالع البهائم[1]

ثم ذمّ عصره كله، ووصمه بالخسّة والجهل في قوله:

هذا زمان ليس فيـ
ـه سوى النّذالة والجهالهْ
لم يرق فيه صاعد
إلّا وسلَّمه النّذالهْ

وسرّ مضاء عزيمة صاحبنا وجدّيته ـ غير ما قدّمنا ـ صدقه وإخلاصه. فمَن أحسن البداية سَلِمَ في النهاية، وما كان لله دام

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٢٤٢ وفوات الوفيات ١/٢٩٨ و«شذرات الذهب»: (٣/٣٤٠ ـ ٣٤١).

واتّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل، ولذا فقد ضاق بعضهم[1] ذرعاً بالعلم والأدب، فأحرق كتبه، وكتب رسالة يدافع فيها عن فعلته ويسوّغها، نستنبط منها أنه كان يريد العلم وسيلة للثراء والجاه، ومن هذه الرسالة قوله: «إن العلم يُراد للعمل، كما أن العمل يُراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كَلّاً على العالم. وأنا أعوذ بالله من علمٍ كان كَلّاً، وأورث ذلّاً، وصار في رقبة صاحبه غلّاً»[2].

لذا شكا القرطبي من عدم إخلاص بعض علماء زمانه لله عزّ وجلّ في طلب العلم، فقال بعد أن أورد قول الإمام مالك: «ما في زماننا شيء أقلّ من الإنصاف» ما نصّه: «قلت: هذا في زمان مالك، فكيف في زماننا اليوم، الذي عمّ فيه الفساد، وكثر فيه الطَّغام! وطُلِب فيه العلم للرياسة لا للدّراية، بل للظهور في الدنيا، وغلبة الأقران بالمِراء والجدال الذي يُقْسِي القلب ويُورث الضِّغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى»[3].

*** لين الجـــانب**

ومن أبرز صفات إمامنا أبي عبد الله القرطبي أنه كان ليّن الجانب، ويلمس هذه الصفة كلّ مَن قرأ كتبه، ولا سيما في مواطن مناقشته لمخالفيه في الرأي في بعض المسائل والأحكام، ومن مظاهر هذا الخلق: عفّة لسانه، ورقّة عبارته، وحُسْن مناظرته، مما سنتناوله بشيء من الإسهاب تحت عنوان «تحليل شخصية الإمام القرطبي العلمية».

والخلاصة... أن الإمام القرطبي رحمه الله تعالى كان يتحلّى

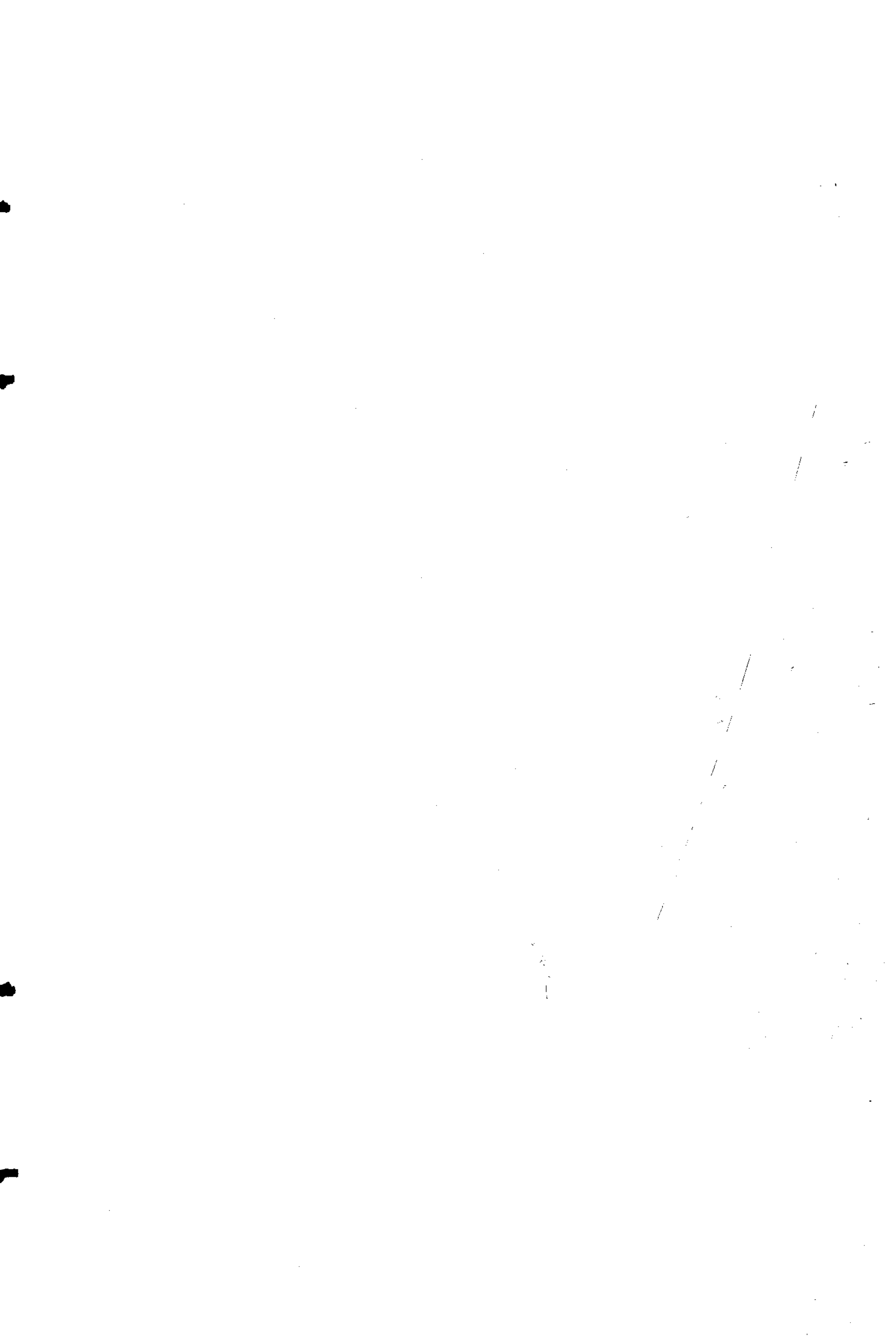
---

(١) وهو أبو حيان التوحيدي.
(٢) معجم الأدباء ١٥/١٦ وما بعدها.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١/٢٨٦).

بجمال الأخلاق وجمال الأفعال، «أما جمال الأخلاق، فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة، والعدل والعِفّة، وكَظْم الغيظ، وإرادة الخير لكل أحد. وأما جمال الأفعال، فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق، وقاضية لجلب المنافع عليهم، وصرف الشرّ عنهم»[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ٧١).



الفَصل الثالث

شيُوخُهُ وَأَصْحَابُهُ

سبق أن ذكرنا أنّ الإمام القرطبي رحمه الله تعالى نشأ في قرطبة وتلقّى فيها مبادىء العلم الشرعي، ولكنه خرج منها ولم يكن قد استكمل دراسته، بدليل أنه أخذ يسأل ويستفتي عن مسألة غسل ودفن مَن لم يُقتَل في المُعتَرك بين الصفّين في حادثة مقتل والده رحمه الله تعالى.

وهذا ثَبَت في أسماء شيوخه مقسّمين إلى قسمين.

الأول: شيوخه بالأندلس

إن أبرز شيوخ الإمام القرطبي بالأندلس هم الذين تحدّث عنهم، وذكر تلمذته لهم، ورجوعه إليهم في المشكلات والدقائق العلمية، وهم:

١ ـ ابن أبي حجّة (ت ٦٤٣ هـ ـ ١٢٤٥ م)

وهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي المعروف بـ (ابن أبي حجّة). «فاضل من أهل قرطبة، تصدّر لإقراء القرآن وتعليم العربية وانتقل إلى إشبيلية، وأسره الروم في البحر، فامتحن بالتعذيب، وتوفي على إثر ذلك بميورقة»[١]. وهو من شيوخه الأوائل، الذين أخذ عنهم

---

(١) الأعلام: (١/ ٢١٩)، وله ترجمة في «تكملة الصلة»: (١/ ١٥٠) و«شجرة النور الزكية»: (١٨٢)، و«الذيل»: (١/ ٣٩٤، ٥٦٤) و«ملء العيبة»: (٢/ ١٠٤).

علم القراءات، وقد شارك بعض شيوخه في الأخذ عنه أيضاً، وهذا يدلّ على الأخذ المبكر لإمامنا عنه.

قال المراكشي: «تلا بالسبع في بلده على أبي جعفر بن أبي حجّة»[1].

وقد استفاد إمامنا من شيخه هذا كثيراً، لا سيما إذا علمنا أن ابن أبي حجّة كان نحوياً ومحدّثاً وفقيهاً بالإضافة إلى كونه مقرئاً.

وهو أوّل شيخ سأله القرطبي في غسل والده والصّلاة عليه يوم قتل في غارة مفاجئة شنّها الأعداء على قرطبة، قال: «فسألت شيخنا المقرىء الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بابن أبي حجّة، فقال: غسّله، وصلّ عليه، فإن أباك لم يقتل في المعترك بين الصفّين»[2].

وهذا يدلّ على عظم منزلته وعلمه عند الإمام القرطبي، ولذا نجده يستشهد به كثيراً في مصنفاته، والظاهر أن النّقل عنه كان إثر الجلوس والجثو على الركب بين يديه، فلم يصرّح إمامنا أنه نقل من كتب شيخه[3] ابن أبي حجّة هذا، وإنما صرّح مراراً بسماعه منه، فيقول مثلاً:

«سمعت شيخنا الأستاذ المقرىء أبا جعفر القرطبي يقول...»[4]، و«سمعت شيخنا الأستاذ المحدّث النحوي المقرىء أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجّة يقوله غير مرّة...»[5]، و«سمعت شيخنا الأستاذ المقرىء

---

(١) الذيل والتكملة (٥/٥٨٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٤/٢٧٢).
(٣) من مؤلّفاته: «تسديد اللسان لذكر أنواع البيان» و«تفهيم القلوب آيات علّام الغيوب» و«مختصر التبصرة في القراءات» و«مختصر الصحيحين».
(٤) الجامع لأحكام القرآن: (١١/٢٥٧).
(٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (ص ٧٥٤).

النحوي المحدّث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجّة رحمه الله يقول...»[1]، وقال بعد أن ذكر مسألة في صلاة الخوف: «وإليه كان يذهب شيخنا الأستاذ أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجة»[2].

وكان ابن أبي حجّة هذا شيخاً لشيخ القرطبي أبي العباس أحمد بن عمر، قال الإمام القرطبي:

«وقد سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول: حضرتُ أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر، فقيل له: قل: لا إلٓه إلّا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مت يهودياً، فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانياً فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا، لا، إليَّ تقولان هذا؟»[3].

٢ - ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن أُبَيّ الأشعري (ت ٦٣٢ هـ - ١٢٣٥ م)

وهو أبو سليمان ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري، من أهل قرطبة وآخر قضاتها، ولي قضاءَها بعد أبي القاسم بن بقي، من قِبَل الأمير محمد بن هُود، وقد كان استوطنها قبل ذلك، وأخذ على أشياخها. واكتسب هنالك مالاً وعقاراً، وأصلُ بني ربيع على ما ذكره ابن عَسْكَر وغيرُه من (صالحة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٨/٢٩٧).

(٢) المصدر نفسه: (٥/٣٧٠).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (ص ٥٠).

رَيَّة)، من بيت نباهة ووجاهة، وكان رجلاً صالحاً، عدلاً في أحكامه، وكانت له مشاركة في علم الحديث، ولم يزل أبو سليمان قاضياً بقرطبة، إلى أن استولت الرّوم عليها، وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من شوّال من عام ٦٣٣ هـ، فتحوّل إلى إشبيلية، وبها توفّي إثر انتقاله إليها، ويقال إنه ما هاله عظيمُ الرزءِ في مفارقة المال والوطن، عند الحاجة إليه، مع سنّ الشاخة، ولا بلغ لديه شيء من ذلك مبلغ الرزءِ فيما تلف له من كتبه، رحمه الله تعالى[١].

وقد سأله الإمام القرطبي بعد ابن أبي حجة عن غسل والده، فقال: «ثم سألتُ شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أُبَيّ، فقال: إنّ حكمه حكم القتلى في المعترك»[٢].

٣ ـ أبو عامر يحيـىٰ بن عبد الرحمن[٣] بن أحمد بن ربيع[٤] الأشعري (ت ٦٣٩ هـ ـ ١٢٤١ م)

ذكره الإمام القرطبي، ونعته بـ«الشيخ الفقيه الإمام المحدّث القاضي»[٥] وبـ«شيخنا القاضي لسان المتكلمين»[٦].

وقال فيه: «الأشعري نسباً ومذهباً»[٧] و«أخبرنا بقرطبة أعادها الله في ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وست مئة قراءةً منّي عليه»[٨] وقد

---

(١) التكملة/ لابن الأبّار: (١/٦٧) وتاريخ قضاة الأندلس: (١١٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٤/٢٧٢).
(٣) وقع اسمه في «الجامع لأحكام القرآن»: (٣/٢٣٧): «يحيـىٰ بن عامر»!!.
(٤) وقع اسمه في «الجامع لأحكام القرآن»: (٣/٢٣٧): «... ابن منيع» بدلاً من «ربيع»!! ووقع على الصواب في مطبوع «التذكرة»: (٦٤١ ـ ط السقا) وكذا في مخطوطها: (٢/١٠٦/ب)، وفيها: «يحيـىٰ بن عبد الرحمن» على الصواب أيضاً.
(٥) الجامع لأحكام القرآن: (٣/٢٣٧).
(٦) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٦٤١).
(٧) الجامع لأحكام القرآن: (٣/٢٣٧).
(٨) المصدر نفسه.

أجازه في رواية كثير من الأحاديث، لا سيما من طريق والده أبي الحسين عبد الرحمن عن أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال[1].

قال المراكشي: «وروى ـ أي القرطبي ـ عن أبي عامر بن ربيع وأكثر عنه»[2].

قال فيه ابن فرحون: «العالِم الجليل المحدّث الحافظ، واحد عصره، وفريد دهره، وكان رحمه الله تعالى عالماً من أعلام الأندلس، ناصراً للسنّة، رادعاً لأهل الأهواء، متكلّماً، دقيقَ النّظر، سديدَ البحث، سهل المناظرة، شديدَ التواضع، كثير الإنصاف مع هيبةٍ ووقار، ولي قضاء الجماعة بقرطبة، ثم بغرناطة، وأقرأ بغرناطة لأكابر علمائها الحديثَ والأصلين، وغيرَ ذلك، حدّث عن والده العالِم المحدّث عبد الرحمن[3] بن ربيع، وعن أبي جعفر أحمد بن يحيى وعن أبي القاسم بن بشكوال وأبي بكر بن الجدّ الفهري وأبي عبد الله بن أرموق وأبي محمد عبد المنعم بن الفرس، توفي سنة سبعٍ أو ثمانٍ وثلاثين وستّ مئة»[4].

وقال ابن الأبّار فيه: «سمع من أبيه أبي الحسين، وكان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه، نوظر عليه في كتب أبي المعالي الجويني: «الشامل» و«الإرشاد» وغير ذلك»، ثم قال: «وولي قضاءَ بلده إلى أن أخذها الروم في سنة ثلاثٍ وثلاثين وستّ مئة، فخرج منها فولي قضاء غرناطة، وتوفّي بمالقة مصروفاً بفالج أصابه وأقعده سنة (٦٤٠ هـ)،

---

(١) انظر «التذكرة»: (ص ٦٢٥، ٦٤١، ٦٦٣).
(٢) الذيل والصلة: (٥/ ٥٨٥).
(٣) وقع في «الديباج المُذْهِب»: «عبد الرحيم»: والصواب: «عبد الرحمن» كما قدّمنا.
(٤) الديباج المذهب: (٣٥٣).

وقيل: توفي في ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وست مئة، وولد سنة ٥٥٣ هـ»[(١)].

وواضح من ترجمة الشيخين: ربيع ويحيىٰ أن القرطبي ـ وهو الذي تلمذ لكلٍّ منهما ـ ذكر اسميهما على النحو الذي يُعرَف، والذي يظهر أنهما شيخان له، وهما أخوان، فقد ترجم ابن الأبّار لوالدهما: «عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع» وقال: «من أهل قرطبة، ويُعرَف بابن أُبَيّ»[(٢)]، وقد نسب القرطبي شيخه «ربيع» إلى هذه الشُّهرة كما تقدّم، وهذا الذي جعلني أجزم بأن «عبد الرحمن» هو الشجرة التي تفرّع منها: ربيع ويحيىٰ، فتتلمذ عليهما إمامنا القرطبي، رحمهم الله جميعاً، ومن ثم وجدتُ أن أبا الحسن النباهي المالقي قال في ترجمة (يحيىٰ): «شقيق القاضي بقُرْطبة أبي سليمان المتقدّم الذّكر»[(٣)] فوافق ما جزمت به فللّه الحمد.

٤ ـ أبو الحسن علي بن قُطْرال (ت ٦٥١ هـ ـ ١٢٥٣ م)

هو القاضي العلاّمة القُدوةُ أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأنصاري القرطبي المالكي، وُلِدَ سنة ثلاث وستّين وخمس مئة، سمع أبا القاسم ابن الشَّرَّاط، وأبا العباس بنَ مضاء، وأخذ عنه أصول الفقه، وأبا خالد بن رفاعةَ، وأبا الحسن بن كوثرٍ، وابن الفخَّار، وعبدَ الحقّ بن بُوْنَهْ، لقيه بالمُنَكَّب، وأخذ قراءةَ نافعٍ والنّحوَ عن أبي جعفر بن يحيىٰ.

وسَمِعَ بسبتة من أبي محمد محمد بن عبيد الله، وأجاز له أبو

---

(١) انظر ترجمته في: «نيل الابتهاج»: (٣٥٥) و«تاريخ قضاة الأندلس»: (١٢٤) و«سير أعلام النبلاء»: (٢٣/ ٨٠)، و«ملء العيبة»: (٢/ ١٣٩، ٣١١).

(٢) التكملة: (٢/ ٥٧٦).

(٣) تاريخ قضاة الأندلس: (١٢٤).

بكر بن الجدّ، والكِبَارُ . وولي قضاء أُبَّذَةَ ـ وهي بُلَيْدة بالأندلس، من كورة جَيَّان، وهي دار اليَعْمَريين من أهلها ـ فأسره العدوُّ لما أخذوها في سنة تسعٍ وست مئة، ثم تخلّص، وولِي قضاءَ شاطبةَ، ثم شريش، ثم قضاء قرطُبة، ثم أُعيد إلى قضاءِ شاطبةَ وخطبتِها، ثم سبتة، ثم قضاء فاس. وكان من رجال الكمال علماً وعملاً، يشاركُ في عدّة فنون، ويمتازُ بالبلاغة، وأُرِّخَ موتُهُ بمراكش في ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وستّ مئة، عاش ثمانياً وثمانين سنة، وهو أحدُ الأعلام في زمانه(1).

وقد سأله القرطبي بعد شيخه ربيع عن غسل والده، فقال: «... ثم سألت قاضي الجماعة أبا الحسنِ عليّ بن قُطْرال وحوله جماعة من الفقهاء، فقالوا: غسّله وكفّنه، وصلِّ عليه»(2).

٥ ـ أبو محمد بن حَوْط الله (ت ٦١٢ هـ ـ ١٢١٤ م)

هو الحافظ الإمام مُحَدِّث الأندلس أبو محمد عبد الله بن سُلَيمان بن داود بن حَوْط الله الأنصارِيُّ الحارِثيُّ الأَنْدَلُسِيُّ الأُنْدِيُّ.

ولد سنة تسع وأربعين وخمس مئة، وتلا بالسَّبع على أبيه، وسَمِع من ابن هذيل بعض «الإيجاز» في قراءة وَرْش، وسمع من أبي القاسم بن حُبَيْش، والسُّهيليّ، وابن الجَدّ، وابن زَرْقُون، وابن بشكوال، وخلق.

وأجاز له أبو الطاهر بن عوف من الإسكندريّة، وأبو طاهر

---

(1) انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء»: (٢٣/٣٠٤) و«الإحاطة في أخبار غرناطة»: (١٩٠/٤) و«العبر»: (٥/٢٠٩ ـ ٢١٠) و«العسجد المسبوك»: (٥٩٧) و«شذرات الذهب»: (٥/٢٥٤) و«شجرة النور الزكية»: (١٨٣/١) ترجمة رقم (٦٠٤) و«الوفيات» لابن قنفذ: (٣٢١).
(2) الجامع لأحكام القرآن: (٢٧٢/٣).

الخُشُوعِي من دمشق، وروى شيئاً كثيراً، وألّف كتاباً في رجال الكتب الخمسة، نزع فيه منزع أبي نصر الكلاباذي، لم يكمّله، وكان مُنشئاً خطيباً بليغاً شاعراً نحوياً، تصدّر للقراءات والعربيّة، وأدّب أولاد المنصور بمراكش، ونال عزّاً ودُنيا واسعة، وولي قضاء قُرطبة وأماكن، وحُمِدَ. توفّي في ربيع الأوّل سنة اثنتي عشرة وست مئة رحمه الله[1].

وأخذ الإمام القرطبي عن شيخيه الأخيرين: ابن قُطْرال وابن حَوْط الله وهما قاضيان بقرطبة، ولم يكثر عنهما.

وربما توفرت لإمامنا القرطبي رحمه الله تعالى جملة من الأساتيذ والمشايخ المعدودين في العلم والفضل وهو في الأندلس، ولكن لم تسعفنا كتب التراجم بتفصيلٍ وافٍ عن أسمائهم وتراجمهم.

الثاني: شيوخه بمصر

استقر الإمام القرطبي بمنية بني خصيب في صعيد مصر، حتى توفّي بها، وقد مرّ بالإسكندرية والقاهرة وغيرهما من البلدان المصرية ـ كما ذكرناه في الفصل الأول ـ في الطريق إليها، وقد تتلمذ هناك على كثيرٍ من الشيوخ، وكان من أبرزهم:

١ ـ أبو العباس القرطبي (ت ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م)

وهو أبو العباس ضياء الدّين أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه، عُرِفَ بـ (ابن المزَيِّن)، من أعيان فقهاء المالكية، نزل الإسكندرية، واستوطنها، ودرس بها وبغيرها،

---

(١) انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء»: (٢٢/٤١) و«التكملة» لابن الأبّار: (٢/٨٨٣) و«التكملة» للمنذري: (٢/ رقم ١٤٤٥) و«تذكرة الحفّاظ»: (٤/١٣٩٧) و«بغية الوعاة»: (٢/٤٤) و«نفح الطيب»: (٢/١١٦٥) و«شذرات الذهب»: (٥/٥٠) و«تاريخ قضاة الأندلس»: (١١٢) و«الديباج المذهب»: (١٤٢) و«شجرة النّور الزّكية»: (١٧٣).

وكان من الأئمة المشهورين، والعلماء المعروفين، جامعاً لمعرفة علوم منها: علم الحديث، والفقه، والعربية، وغير ذلك. وله على كتاب «صحيح مسلم» شرح أحسن فيه وأجاد، سمّاه «المفهم»[1] امتدحه المقري، فقال: «وهو من أجلّ الكتب، ويكفيه شرفاً اعتماد الإمام النووي رحمه الله في كثير من المواضع وفيه أشياء حسنة مفيدة» واختصر صحيحي البخاري ومسلم[2]، وسمع الحديث من مشايخ المغرب، وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب، وانتفعوا بكتبه، ومولده سنة ثمانٍ وتسعين وخمس مئة، وتوفّي بالإسكندرية في رابع ذي القعدة سنة ست وخمسين وست ومئة على الأشهر، وقيل: سنة ست وعشرين[3].

وقد ذكره الإمام القرطبي في شيوخه، وحدّث عنه وأكثر، وكانت له به وبمصنفاته عناية فائقة قلّما حصلت لغيره من المشايخ، وقد استفاد الإمام القرطبي من كتابه «المفهم» وذكر المقري في ترجمة إمامنا القرطبي أنه «سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب «المفهم في شرح مسلم» بعض هذا الشرح»[4]، واستفاد في «تفسيره» من كتاب شيخه «إظهار إدبار مَن أجاز الوطء في الأدبار»[5].

---

(١) منه جزآن في شستربتي (رقم ٣٥٩٢ و٤٩٣٨) والمجلدات الأول والثاني والثالث والرابع، مخطوطات في الرباط، أرقامها: (٢٥٣، ٢٥٤، ٤١، ٤٢، ٦٥) أوقاف.

(٢) ونسب الأستاذ كحالة في «معجم المؤلفين»: (٢/٢٧): «التذكرة» إليه، والصواب أنها لتلميذه، ومن «اختصار صحيح البخاري» نسخة خطية في القرويين بفاس، كما في «برنامج القرويين»: (٤٥)، أما «مختصر صحيح مسلم» فقد طبع حديثاً. ووضعناه في كتابنا المفرد عن الإمام مسلم. وسينشر في سلسلة (أعلام المسلمين) إن شاء الله تعالى.

(٣) انظر ترجمته في: «الديباج المذهب»: (٦٨) و«نفح الطيب»: (٢/٥) و«البداية والنهاية»: (١٣/٢١٣) و«النجوم الزاهرة»: (٧/٦٩) و«مرآة الجنان»: (٤/١٣٨) و«شذرات الذهب»: (٥/٢٧٣) و«حسن المحاضرة»: (١/١٩٤) و«شجرة النور الزكية»: (١٩٤) و«معجم المؤلفين»: (٢/٢٧) و«الأعلام»: (١/١٨٦).

(٤) نفح الطيب: (٢/٤٠٩).

(٥) راجع: «الجامع لأحكام القرآن»: (٣/٩٥).

وقد أكثر الإمام القرطبي من ذكر هذا الشيخ، والثناء عليه، ووصفه بأنه «من العلماء المحقّقين»(١) ونعته بـ «شيخنا الفقيه الإمام»(٢) ونحوها من العبارات(٣).

وذكره جماعة(٤) في شيوخ إمامنا القرطبي رحمه الله، منهم ابن فرحون فقال ما نصّه:

«وذكره الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي في شيوخه، وحدّث عنه، وقال غيره: رحل أبو العباس مع أبيه من الأندلس في سنّ الصغر، فسمع كثيراً بمكة والمدينة والقدس ومصر والإسكندرية، وغيرها من البلاد»(٥).

ولعلّ الأمر التبس على ابن فرحون، فظنّ أن سماع إمامنا القرطبي من شيخه أبي العباس كان بالأندلس، ولذا أردف عدَّ القرطبيٍّ أبا العباس من شيوخه، بقوله: «وقال غيره: رحل أبو العباس مع أبيه من الأندلس في سنّ الصغر» ولا تعارض بين الأمرين إذا علمنا أن سماع إمامنا منه كان في الإسكندرية، ولعلّ نَصّ ابن فرحون السابق هو الذي جعل الدكتور أحمد بدوي يقول حين ذكر إمامنا القرطبي: «ولد بقرطبة، وتلقّى بها ثقافة واسعة في الفقه والنحو والقراءات، وسمع من أبي العباس أحمد القرطبي بعض كتاب «المفهم في شرح مسلم» ثم وفد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٤/ ٢٩).
(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (٦/ ٢٩٥).
(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (٤/ ١٣ و٥/ ٤٤ و١١/ ١٤، ٣٩، ٤٠ و١٣/ ٢٣٦ و١٤/ ٢٩، ٢٢٩) و«التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»: (١٣٩، ٢٠٨، ٢٥٣، ٣٩١، ٤٣٧، ٦٨٤، ٧١١، ٧٧٦، ٨١٨).
(٤) منهم: الداودي في «طبقات المفسرين»: (٢/ ٦٦) ومحمد مخلوف في «شجرة النور الزكية»: (١٩٧).
(٥) الديباج المذهب: (٦٩).

إلى مصر كما وفد غيره من علماء الأندلس»[1].

وواضح أن كلامه ـ وكلام ابن فرحون قبله ـ يوحي بأن القرطبي المفسّر تلقّى عن أبي العباس أولاً، ثم وفد إلى مصر! وفي هذا مخالفة للواقع الذي ذكره الإمام القرطبي نفسه، قال رحمه الله تعالى:

«وقد سمعتُ شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي بثغر الإسكندرية»[2]، وقال: «أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام المحدّث أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي بثغر الإسكندرية رحمه الله»[3].

نعم، كانت هنالك علاقة بين الإمام القرطبي وبعض أفراد أُسرة شيخه أبي العباس، ولعله سمع من بعضهم في قرطبة، ولكن لم تُشِرْ التراجم إلى أنه تتلمذ على غير أبي العباس، وحين ذكر القرطبي شقيقَ أبي العباس أبا القاسم وصفه بـ «صاحبنا» فلعله لم يكن من فحول أهل العلم حينذاك.

قال الإمام القرطبي: «ولقد أخبرني صاحبنا أبو القاسم رحمه الله أخو شيخنا أبي العباس أحمد بن عمر رحمه الله أنه ربط نحواً من خمسين امرأة، واحدة بعد أُخرى في حبلٍ واحدٍ، مخافة سبي العدو، حتى خرجوا من قرطبة أعادها الله»[4].

ولعلّ سماعَ القرطبي المفسّر هذا الخبر من أبي القاسم كان بمصر، عند قدومه إلى حلقات ودروس شيخه أبي العباس، والله أعلم.

وذكر المراكشي في ترجمة إمامنا القرطبي: أنه «رحل إلى

---

(١) مقال: «من المفسرين في عصر الحروب الصليبية: القرطبي»، المنشور في مجلة «الرسالة» المصرية، عدد رقم (٨٥٨) لسنة ١٩٤٩ ص ١٧٠٣.
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٥٠).
(٣) المصدر نفسه: (١٨٧).
(٤) المصدر نفسه: (٧٤٨).

المشرق، وروى هنالك عن أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي»[١]، وكان ذلك في الإسكندرية، كما قدّمنا من كلام القرطبي نفسه، فلا داعي للتردّد في ذلك، بحجة أن أبا العباس قد حدّث بغيرها، كما فعل الدكتور محمود قصبي زلط[٢].

وقد ظهر أثر هذا الشيخ ـ وهو المقدّم في علم الحديث ـ في عناية القرطبي بالأحاديث النبوية، وتخريجها، وشرح غريبها، وحل مُشْكِلها، وضبط مشتبهها، ومع هذا فإنه تعقّبه في بعض المواطن[٣]، وهذا يدل على إنصافه وعدم تعصبه كما سيأتي بيانه في الفصل الخامس.

٢ ـ أبو محمد بن رَوَاج (ت ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م)

هو الشيخ الإمام المحدّث مسند الإسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن رَواج، واسمُهُ: ظافر بن عليّ بن فُتوح بن حُسَين الأزديّ، القرشيُّ، حليفهم، الإسكندراني، المالكيّ، الجَوْشَنِيُّ. ولد سنةَ أربعٍ وخمسين وخمس مئة، وطلبَ بنفسه فأكثر عن السِّلَفي، وسمع من أبي الطّاهر بن عوف، ومَخْلوف بن جارة، وأبي طالب أحمد بن المُسلّم، ومشرف بن علي الأنماطي، وعبد الواحد بن عسكر، وطائفة ونسخَ الأجزاء، وخرّج لنفسه «الأربعين». وكان فقيهاً، فَطِنَاً، ديّناً، متواضعاً، صحيح السّماع، انقطع بموته شيء كثير.

حَدّث عنه ابنُ نُقْطة، وابن النجّار، والمنذري، والرشيد العطّار، والدِّمياطي، والضّياء السَّبتي، ويوسف بن عمر الختنيّ، وعدّة.

---

(١) الذيل والصلة: (٥/٥٨٥).
(٢) في كتابه «القرطبي ومنهجه في التفسير»: (٢٨).
(٣) راجع: «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»: (٢٥٣).

توفّي في ثامن عشر ذي القعدة سنة ثمانٍ وأربعين وست مئة بالثّغر، رحمه الله تعالى[1].

ذكره المراكشي[2] والدّاودي[3] والسيوطي[4] في شيوخ الإمام القرطبي، وبيّن المراكشي أن روايتهُ عنه كانت بعد رحيله من قرطبة، وقال: «وأكثر عنه»[5].

قلت: وروايته عنه كانت بالإسكندرية أيضاً، قال الإمام القرطبي بعد أن أورد حديثاً: «أنبأناه الشيخ المسنّ الحاج الراوية أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن فتوح بن الحسين القرشي ـ عُرِفَ بابن رَواج ـ بمسجده بثغر الإسكندرية حماه الله»[6].

والظاهر أن الإمام القرطبي قد تتلمذ على هذا الشيخ، وأكثر عنه في رواية الحديث، وكان أثر دراسته عليه عظيماً، إذ بواسطته روى عن جمعٍ من الأئمة ممّن لهم إسناد متّصل صحيح إلى مشاهير المحدّثين، الذين صنّفوا «السنن» و«المسانيد» و«المعاجم» و«الأجزاء الحديثية»، وكان من أشهرهم السِّلَفي، الذي قال فيه ابن الجَزَرِيّ: «حافظ

---

(١) انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء»: (٢٣/ ٢٣٧) و«العبر»: (٥/ ٢٠٠) و«تذكرة الحفاظ»: (٤/ ١٤١١) و«السلوك في معرفة دول الملوك»: (١/ ٣٨١) و«النجوم الزاهرة»: (٧/ ٢٢) و«شذرات الذهب»: (٥/ ٢٤٢) و«تكملة إكمال الإكمال»: (١١، ٢٥٢، ٣٠٧) و«تبصير المنتبه»: (٢/ ٥٩٨) و«حسن المحاضرة»: (١/ ١٩٢)، و«ملء العيبة»: (٣/ ٩، ١٣، ١٦، ٢١، ٢٢، ٥٤، ٢٣٨، ٢٥٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٩، ٣٨٤، ٣٥٠، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٣١).

(٢) في «الذيل والصلة»: (٥/ ٥٨٥).

(٣) في «طبقات المفسرين»: (٢/ ٦٦).

(٤) في «طبقات المفسرين»: (٧٩).

(٥) الذيل والصلة: (٥/ ٥٨٥).

(٦) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»: (١٣٨، ٥٨٩) و«التذكار في فضل الأذكار»: (٦٦، ٩٢، ١٠١).

الإسلام، وأعلى أهل الأرض إسناداً في الحديث والقراءات، مع الدّين والثّقة والعلم»[١]، وقد كان القرطبي ملازماً لشيخه ابن رَوَاج مدة غير قصيرة من الزّمن، وقرأ عليه جملة من الكتب، كما صرّح بذلك في أكثر من موطن في كتابه «التذكرة»[٢].

٣ - أبو محمد عبد المعطي بن أبي الثّناء اللخمي (ت ٦٣٨ - ١٢٤١ م)

هو عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي بن عبد الخالق، أبو محمد بن أبي الثناء الإسكندريّ، ثم المكّي، الفقيه، الصوفي.

سمع من أبي الفضل عبد المجيد بن دُلَيْل، وأبي القاسم بن مفرق الأنصاري، وغيرهما، وحدّث.

سمع منه الرشيد العطّار، وذكره في مشيخته، وقال: «كان من أعيان مشايخ الإسكندرية، مشهوراً بالزّهد والصّلاح، وله معرفة بأصول الدّين ومذهب مالك». وصنّف كتباً في الرقائق، أملاها على تلاميذه، منها: «شرح الدلالة على فوائد الرسالة للقشيري» و«شرح منازل السائرين للهروي» و«شرح الرعاية للمحاسبي».

بنى له ابن حُبَاشة في الثّغر بالإسكندرية رِباطاً بباب العزيز، ولم يزل يجلس فيه للتذكير والمواعيد، ثم انتقل في آخر عمره إلى مكّة - شرّفها الله تعالى - وأقام بها بعد حجّه، ثم توفّي في السّنة الثانية من إقامته فيها، في ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ثمانٍ وثلاثين وستّ مئة، ودفن بالمعْلاة، رحمه الله تعالى[٣].

---

(١) غاية النهاية في طبقات القرّاء: (١/ ١٠٣).

(٢) انظر: «التذكرة»: (ص ٢٢٩، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٤٢٢).

(٣) انظر ترجمته في: «العقد الثمين»: (٥/ ٤٩٧ - ٤٩٩) و«التكملة لوفيات النّقلة»: (٢/ ٥٠٧) و«كشف الظنون»: (٨٨٢ - ٨٨٣) و«هدية العارفين»: (١/ ٦٢٢) و«الأعلام»: (٤/ ١٥٥).

ذكره المراكشي في شيوخ إمامنا القرطبي، فقال:

«ورحل إلى المشرق، وروى هناك عن... وأبو محمد عبد المعطي بن محمد[1] بن عبد المعطي اللخمي الإسكندراني»[2].

وسمع القرطبي بعض إملاءات شيخه هذا، منها: شرحهُ لرسالة القشيري، واستفاد منها في «تفسيره»، فهو ينقل منها، فيقول: «وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللخمي في «شرح الرسالة» له للقشيري حكاياتٍ كثيرةً عن جماعةٍ من الصّالحين والصّالحات بأنهم رأوا الخَضِرَ عليه السلام ولقوه»[3]!.

ويصرّح بسماعه منه، بقوله: «وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثغر الإسكندرية يقول: إنّ شيطاناً يُقال له: البيضاوي يتمثّل للفقراء المواصلين في الصّيام، فإذا استحكم منهم الجوع، وأضرّ بأدمغتهم، يكشف لهم عن ضياءٍ ونورٍ، حتى يملأ عليهم البيوت، فيظنون أنهم قد وصلوا، وأنّ ذلك من الله، وليس كما ظنّوا»[4].

٤ ـ أبو عليّ الحسن بن محمد البَكْرِيّ (ت ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م)

هو الشيخ الإمام المحدّث المفيد الرّحّال المُسْنِدُ جمالُ المشايخ صدرُ الدّين أبو علي الحسن بن محمد ابنِ الشيخ أبي الفتوح محمد بن محمد بن محمد بن عَمروك بن محمد بن عبد الله بن حسن بن القاسم بن علقمة بن النَّضْر بن معاذ ابن فقيه المدينة عبد الرحمن بن

---

(١) كذا فيه، والصواب: «محمود» كما نقله القرطبي نفسه فيما سيأتي، وكما في مصادر ترجمته.

(٢) الذيل والصّلة: (٥/ ٥٨٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١١/ ٤٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ٤٢٢).

القاسم بن محمد ابن الصِّدّيق أبي بكر القُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ البَكْرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ ثم الدِّمشقيُّ الصُّوفيُّ.

وُلد بدمشقَ في سنة أربعٍ وسبعين وخمس مئة، وسمع بمكة من جدِّهِ، ومن أبي حفصٍ الميانشيِّ، وبدمشقَ من حنبل، وابن طَبَرْزَدْ، ورحَلَ فسمعِ بهراةَ من أبي الفُتوح محمد بن محمد بن الجنيد، وعينِ الشّمسِ الثَّقفِيَّة، وعدّةٍ، وبمرو من أبي المظفّر ابنِ السَّمْعَانِيِّ، وببغدادَ من ابنِ الأخضر، وبالموصل وإرْبِلَ وحَلَبَ ومصرَ وأماكنَ، وعمل «الأربَعين البَلَدِيَّة» وعُنيَ بهذا الشَّأن، وكتب العاليَ والنَّازل، وجمع وصنّف، وشَرَعَ في تأريخٍ لدمشقَ ذيلاً على «تاريخ ابن عساكر»، وعُدِمت المسوَّدَة، روى الكَثيرَ، وسَمِع منه ابنُ الصَّلاح، والبِرْزاليّ، والكبارُ.

ووليَ حِسبةَ دمشقَ، ومشيخَةَ الخوانك، ونفقَ سُوقُهُ في دولةِ المُعَظّم، وكان جدّهم عَمروك بنُ محمدٍ من أهلِ المدينةِ النبويّة، فتحوّل وسكن نَيْسَابُور.

مرض أبو عليّ بالفالج مدّة، ثم تحوّل في أواخر عمره إلى مصر، فلم يطلْ مقامُهُ بها، وتُوفّي في حادي عشر ذي الحجة، سنة ستٍ وخمسين، وما هو بالبارع في الحفظ، ولا هو بالمتقن[1].

---

(١) انظر ترجمته في: «سير أعلام النُّبلاء»: (٢٣/ ٣٢٦) و«الوافي بالوفيات»: (١٢/ ٢٥١) و«مرآة الجنان»: (٤/ ١٣٩) و«ذيل مرآة الجنان»: (١/ ١٢٤) و«العبر»: (٥/ ٢٢٧) و«تذكرة الحفّاظ»: (٤/ ١٤٤٤) و«دول الإسلام»: (٢/ ١٢١) و«عيون التواريخ»: (٢٠/ ١٦٧) و«النجوم الزاهرة»: (٧/ ٦٩) و«ميزان الاعتدال»: (١/ ٥٢٢) و«حسن المحاضرة»: (١/ ٣٥٦) و«شذرات الذهب»: (٥/ ٢٧٤).

ذكره المقري[1] والداودي[2] وابن فرحون[3] في شيوخ إمامنا القرطبي.

وكان سماعُ الإمام القرطبي من شيخه هذا بالجزيرة قبالة المنصورة من الدّيار المصرية، سنة سبع وأربعين وست مئة.

قال الإمام القرطبي في «التفسير»: «قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكريّ بالجزيرة قبالة المنصورة من الديار المصريّة...»[4] وقال في «التذكرة»: «... أخبرناه عالياً الشيخ الإمام الحافظ المسند أبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البَكْرِيّ التَّيْمي من ولد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قراءة عليه بالمنصورة بالدّيار المصرية في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب الفرد سنة سبع وأربعين وست مئة»[5].

وهذان النصّان يدلّان على تلقّي إمامنا القرطبي الحديثَ عنه، وأنه قرأ عليه، ومن حُسْن حظ شيخنا القرطبي أنه سمع منه بعدما صلح حاله، وإلا فقد «كان كثيرَ التّخليط»[6] كما قال البِرْزالي، «ثم في الآخر صلح حاله، وابتلي بالفالج قبل موته بسنوات»[7]، فيدلّنا هذا على أنه لم يَقدم إلى مصر إلّا بعد أن صَلُحَ حاله، ولعلّ عبارة السيوطي توضح

---

(١) في «نفح الطيب»: (٢/٤٠٩).
(٢) في «طبقات المفسّرين»: (٢/٦٦).
(٣) في «الدّيباج المُذْهِب»: (٣١٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/١٤١).
(٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٤٢٨)، وفي المطبوع «أبو الحسن علي... بن عمرو!!» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٦) سير أعلام النبلاء: (٢٣/٣٢٨) و«تذكرة الحفّاظ»: (٤/١٤٤٥).
(٧) «تذكرة الحفّاظ»: (٤/١٤٤٥).

لنا هذا الأمر، فإنه قال: «وكان إماماً عالماً، أحدَ الرحّالين، وجدّد مظالم، ثم في الآخر صَلُحَ حاله، وحصل له فالج، فتحوّل إلى مصر، فمات بها في آخر ذي الحجة سنة ٦٥٦ هـ»[١].

٥ ـ أبو الحسن عليّ بن هبة الله اللَّخْمِي، المعروف بـ (ابن الجُمَّيْزِيّ)[٢] (ت ٦٤٩ هـ ـ ١٢٥١ م)

هو شيخ الدّيار المصرية العَلّامة المفتي المقرىء بهاء الدين أبو الحسن عليُّ بن هبة الله بن سلامة بن المُسَلَّم اللّخْمِيُّ المِصْرِيُّ الشّافعيّ الخطيب المُدَرِّسُ. وُلد يوم النّحر سنةَ تسعٍ وخمسين وخمس مئة بمصرَ. وحفظ القرآن صغيراً، وارتحل به أبوه، فسمع سنة ثمانٍ وستّين من الحافظ ابن عساكر، وببغدادَ مِن شُهْدَةَ الكاتبةِ، وتلا بالعَشْر على أبي الحسن البَطائحي، وعلى القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون، وتفقّه عليه، وأكثر عنه، وسَمِعَ أيضاً من عبد الحق اليُوسُفِيّ، ويحيـى بن السَّقْلاطونيِّ، ومحمدِ بنِ نسيمٍ، وبادر فسمع من أبي الطّاهر السِّلَفِيِّ، وأبي طالبٍ اللَّخْمِيِّ، وابنِ عَوْفٍ، وابن بَرِّيٍّ النَّحْوِيِّ، وتلا على الشّاطبيِّ خَتماتٍ. وتفقّه أيضاً على العراقيّ والشّهاب الطّوسي، وبرع في المذهب، وخطب بجامع القاهرة، وانتهتْ إليه مشيخةُ العِلْمِ.

وروى الكثيرَ بدمشقَ وبمكّةَ والقاهرةِ وكان مُدَرّساً بزاوية الإمام الشافعي بجامع مِصر، وخطيباً بجامع القاهرة، روى عنه البِرْزالِي، والمنذري، وابن النجّار، والدِّمياطي، وابن الصَّيْرفي، والفَخرُ التّوزيُّ، وخلقٌ كثير، وعاش أرجح من تسعين سنةً وأياماً.

---

(١) حسن المحاضرة: (٣٥٦/١).

(٢) ضبطه ابن نقطة في «تكملة الإكمال»: (١٥٤/٢) فقال: «بضمّ الجيم، وفتح الميم وتشديدها، وسكون الياء المعجمة من تحتها باثنتين، وكسر الزّاي» ونحوه في «المشتبه»: (١٧٦/١). و«طبقات الشافعية الكبرى»: (١٢٧/٥).

تُوفِّي وهو مُسَدَّدُ الفتاوى، وافرُ الجلالة، حسنُ التصوُّنِ، مسنِدُ زمانِهِ في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسعٍ وأربعين وستّ مئة، رحمه الله تعالى[1].

ذكره الداودي[2] والسيوطي[3] في شيوخ القرطبي.

سمع منه القرطبي ببلدته التي استقرّ فيها «منية بني خصيب»، فقال بعد أن ذكر حديث تلقين الميت: «أنبأناه الشيخ الفقيه الإمام مفتي الأنام أبو الحسن علي بن هبة الله الشافعي بمنية بني خصيب على ظهر النيل»[4] وكذا قال حين ذكر أن أفضل الخلق إيماناً مَن عمل بكتاب الله[5].

وذكره القرطبي في كتبه كثيراً، وسمّاهُ تارةً بـ «علي بن هبة الله الشافعي»[6] واقتصر غالباً على كنيته بقوله في النادر: «أبو الحسن الشافعي»[7]، وفي الغالب «أبو الحسن اللخمي»[8] وربما قال: «أبو الحسن»[9] أو «اللخمي»[10] مجرّدة عن الاسم والكنية أو النّسب.

---

(١) انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء»: (٢٥٣/٢٣) و«غاية النهاية»: (٥٨٣/١) و«معرفة القرّاء الكبار»: (٦٥١/٢) و«ذيل الروضتين»: (١٨٧) و«العبر»: (٢٠٣/٥) و«معجم الألقاب»: (٢٣٢/٤) و«طبقات الشافعية الكبرى»: (١٢٧/٥) و«النجوم الزاهرة»: (٢٤/٧) و«مرآة الزمان»: (٧٨٦/٨) و«دول الإسلام»: (١١٨/٢) و«تكملة إكمال الإكمال»: (٢٩٢) رقم (٢٩٠) و«العسجد المسبوك»: (٥٨٣) و«تكملة الإكمال»: (١٥٤/٢) و«المشتبه»: (١٧٦/١ و٤٨١/٢) و«حسن المحاضرة»: (١٧٣/١) و«شذرات الذهب»: (٢٤٦/٥).

(٢) في «طبقات المفسرين»: (٦٦/٢). (٣) طبقات المفسرين: (٧٩).

(٤) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (١٣٨).

(٥) التذكار في فضل الأذكار: (٩٥).

(٦) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٢٢٩).

(٧) المصدر السابق: (٣١٣).

(٨) الجامع لأحكام القرآن: (٣٣٧/١ و١٣٣/٥ و١٧٩/١٢).

(٩) الجامع لأحكام القرآن: (٢٢٩/١، ٢٩٤ و٣٢٥/٢ و١١٨/٨).

(١٠) الجامع لأحكام القرآن: (٣٢٤/٢).

ومن خلال النَّقْلَين السّابقين عن الإمام القرطبي عن شيخه يتّضح لنا أن صاحبنا قد أخذ عن شيخه ونهل من علمه في الحديث النبوي، ولكن هل تتلمذ عليه في القراءات واستفاد من علمه في الفقه والنَّحو؟.

إنّ ابن الجُمَّيْزيِّ كان شافعيَّ المذهب ـ كما قدّمنا ـ، وكان القرطبيُّ تلميذُه مالكياً، ومع هذا لم يمتنع صاحبنا عن الأخذ منه، لأنه كان حُرّاً في بحثه، نزيهاً في نقده، عفّاً في مناقشته وجدله، لا يتعصّب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدّليل، حتى يصل إلى ما يرى أنه الصّواب، أيّاً كان قائله[1].

* شـــــيوخ آخرون

هؤلاء هم أشهر شيوخ إمامنا القرطبي رحمهم الله تعالى جميعاً، وإن كنّا قد عرضنا لتراجم بعضهم، فإنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنه تلقّى عن كثير غيرهم، مثل:

١ ـ الشيخ الفقيه الإمام أبي القاسم عبد الله بن الشيخ الفقيه الإمام المحدّث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكُومي التلمساني

ذكره القرطبي في شيوخه في «التفسير»[2] وفي «التذكرة»[3].

---

(١) ومن خلال مراجعة مواطن ذكر «أبي الحسن اللَّخْمي الشافعي» من تفسير الإمام القرطبي، يتبيّن لنا أنه أفاد منه في النحو والقراءات والفقه، ولكن إمامنا لم يوافقه على كل ما قاله، فكان يناقشه أحياناً، ومن الجدير بالذّكر أن شيخه هذا غير «أبي الحسن اللخمي المالكي» صاحب كتاب «التبصِرة» الذي نقل منه المصنّف أحياناً، فهذا متقدّم الوفاة، توفي سنة (٤٧٨ هـ)، له ترجمة في «معالم الإيمان»: (٣/٢٤٦) و«الديباج المذهب»: (٢٠٣) و«الوفيات»: (٢٥٨) و«إيضاح المكنون»: (١/٢٢٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/٥).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٤١٩، ٥٤٥) وفيه «الكوفي» والصواب ما أثبتناه، كما في «التفسير» ومخطوط «التذكرة»: (٢/١١/أ و٢/٦٤/ب).

٢ ـ والشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن حفص اليَحْصُبي

ذكره المقري(١) في شيوخ الإمام القرطبي.

* أصحــــــابه

هذا بالإضافة إلى إفادته من كثير من أصحابه وأقرانه، ولا شك في أنه مَن كان مثل صاحبنا الإمام القرطبي في الخلق والدين، وغزارة العلم، وكثرة الاطّلاع، ولين الجانب، يطمع في مصاحبته، ولذا كانت له علاقة صداقة مع أشهر علماء عصره وصالحيهم، ولا شك أنهم استفادوا منه كما استفاد منهم، إذ إن في تلاقي العلماء وتحاورهم حول القضايا العلمية، والمسائل الفقهية، بياناً للحق، وتمحيصاً له.

وكان من أشهر هؤلاء:

١ ـ الإمام القرافي (ت ٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٦ م)

وقد ذكرت بعض كتب التراجم(٢) أن القرطبي لقي الشيخ القرافي ورافقه في السّفر إلى الفيّوم، وعلى الرغم من أنّ القرافي ليس شيخاً للقرطبي، فإن ترافقهما في السفر دليل علاقة وطيدة بين الشيخين، ولا شك في أنّ القرطبي أفاد علماً من علاقته بهذا الشيخ، الذي انتهت إليه رياسة الفقه على مذهب مالك، وجدَّ في طلب العلوم فبلغ الغاية القصوى، حتى أجمع الشافعية والمالكية في عصره أنه أحدُ ثلاثةٍ اعتبروا أفضل أهل العصر ـ آنذاك ـ بالدّيار المصرية؛ إذ كان بارعاً في الفقه والأصول والعلوم العقلية، وله معرفة بالتفسير، وتخرّج على يديه جمع من الفضلاء، أخذوا عنه في (المدرسة القمحية) التي كان يلقي دروسه فيها(٣).

---

(١) في «نفح الطيب»: (٢/٤٠٩). (٢) انظر: «الوافي بالوفيات»: (٢/١٢٢).

(٣) انظر ترجمته في: «الديباج المذهب»: (٦٢ ـ ٦٧) و«شجرة النور الزكية»: =

ثم إن الصداقة التي كانت سبباً في مرافقة «القرطبي» لهذا الشيخ الإمام الفقيه في سفره إلى الفيّوم تدلّنا على أنّ كلاً منهما أفاد من علم صاحبه، «وكلٌ منهما شيخ فنه في عصره: القرطبي في التفسير والحديث؛ والقرافي في المعقولات»[1] وبخاصة أن القرافي كان عالماً مبرزاً في فقه المالكية، وكان القرطبي مالكياً مشغوفاً بتحقيق مسائل الأحكام في القرآن الكريم كما ظهر ذلك في تفسيره الجامع[2].

٢ ـ الشيخ الفقيه أبو عبد الله القصري

ذكره الإمام القرطبي، فقال:

«وأخبرني صاحبنا الفقيه العالِم شيخ الطريقة أبو عبد الله محمد بن أحمد القصري رحمه الله أنه توفّي بعضُ الولاة بقسطنطينة فحفر له، فلما فرغوا من الحفر، وأرادوا أن يُدخِلوا الميت القبر إذا بحيّةٍ سوداء داخل القبر، فهابوا أن يُدخِلوه فيه، فحفروا له قبراً آخر، فلما أرادوا أن يدخلوه إذا بتلك الحيّة فيه، فحفروا له قبراً آخر، فإذا بتلك الحيّة، فلم يزالوا يحفرون نحواً من ثلاثين قبراً، وإذا بتلك الحية تتعرّض لهم في القبر الذي يريدون أن يدفنوه به، فلما أعياهم ذلك؛ سألوا: ما يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها، نسأل الله السَّلامةَ والسِّتْرَ في الدُّنيا والآخرة»[3].

= (١٨٨) و«المنهل الصافي»: (٢١٥/١) و«الحياة العقلية في عصور الحروب الصليبية»: (١٧٤) و«روضات الجنّات»: (٩١، ٩٢) و«إيضاح المكنون»: (٧٢/١، ١٢٧، ١٣٥، ١٦١، ٢٠٦، ٧٣٢) و«معجم المؤلفين»: (١٥٨/١) و«الأعلام»: (٩٤/١ ـ ٩٥).

(١) الوافي بالوفيات: (١٢٢/٢).

(٢) القرطبي المفسر: (٥٩)، وقد ذكرنا فيما تقدم (ص ٣٨ ـ ٣٩) أن لقياهما كان بعد سنة (٦٥٨ هـ) ولعلها تكررت راجع: «مبحث (رحلات القرطبي) في الفصل الأول من الكتاب».

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٩٩).

هؤلاء هم أشهر شيوخ إمامنا القرطبي وأصحابه الذين أفاد منهم، لم أرهم مجموعين في كتاب بهذا العدد، وعلى هذا النّحو، ولم تسهب كتب التراجم التي ترجمت له بتعدادهم وبيان تراجمهم، فقد سرد الداودي أكبر عدد من شيوخه من بَين الذين ترجموا له فذكر أربعة فقط، وقال: «وغيرهم»[١] وقال غيره بعد أن سرد اثنين: «وغيرهما»[٢]، وقال آخر: «وعدَّة»[٣].

والحقّ؛ إن المتبقّين من شيوخه وأصحابه أندلسيون ومصريّون وقد أخذ عن بعضهم بالإجازة، وهاك البيان:

قال القرطبي رحمه الله تعالى وهو يتكلّم على الزّلازل والخسوفات وكون ذلك من أمارات السّاعة: «وقد وقع ذلك عندنا بشرق الأندلس فيما سمعنا من بعض مشايخنا بقرية يُقال لها: «قطر طندة» من قطر دانية، سقط عليها جبل هناك؛ فأذهبها»[٤]، وقال أيضاً: «وقد أخبرني بعض أصحابنا...»[٥] و«سمعت بعضَ علمائنا...»[٦] و«... فيما سمعناه من بعض مشايخنا»[٧] و«سمعتُ بعضَ أشياخي...»[٨].

وقال أيضاً بعد حديث: «وقد رُوّينا جميعَ ذلك بالإجازة، والحمد لله» [٩]، وقال: «وروينا ذلك كله عن ابن وضّاح»[١٠].

---

(١) طبقات المفسرين: (٢/٦٦).
(٢) نفح الطيب: (٢/١١٠) و«الديباج المذهب»: (٣١٨).
(٣) طبقات المفسرين: (٧٩).
(٤) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧٦٦).
(٥) المرجع السابق: (٩٩).
(٦) المرجع السابق: (١٦٧).
(٧) المرجع السابق: (٦٥٥).
(٨) الجامع لأحكام القرآن: (٢٠/١٦).
(٩) المرجع السابق: (١٠/٣٩٨).
(١٠) المرجع السابق: (٣/١٣٢).

الفصل الرابع

تلاميذه

تكاد كتب التراجم تجمع على إغفال تلاميذ الإمام القرطبي، ولعلّ السبب في ذلك نزوله (المنيا) بعد خروجه من (قرطبة) بقلب كسير، وبال مهموم، ونفس حزينة، فآثر الابتعاد عن مخالطة عموم الناس[1]، واقتصر على الأخذ عن خواصّهم (علمائهم)، وعمل على مخالطة الأتقياء منهم، فإنه ذكر بعض مجالسه، وأنه كان فيها قضاة، وكانوا يتنافسون ببعض الأمور الشرعية، قال رحمه الله تعالى:

«وقد كنت تكلّمتُ مع بعض أصحابنا القضاة ممّن له علم ونظر، ومعنا جماعة من أهل النظر، فيما ذكر أبو عمر بن عبد البر[2] من قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، فذكرتُ له هذا الحديث ـ أي حديث البراء بن عازب في سؤال مَلَك الموت ـ، فما كان منه إلّا أنْ بادر إلى عدم صحته، ولعن رُواته، وبين أيدينا رطب نأكله. فقلتُ له: الحديث صحيح، خرّجه ابن ماجه في «السنن»، ولا ترد الأخبار بمثل هذا القول، بل تتأوّل على ما يليق من التأويل[3]، والذين رووها هم

---

(١) انظر كلاماً نفيساً للغاية حول العزلة في «تفسير القرطبي»: (١٠/٣٦٠ ـ ٣٦٢).

(٢) راجع كلامه في «التمهيد»: (٧/١٢٩) وما بعدها.

(٣) انظر كلام القرطبي على صفة الاستواء في «تفسيره»: (١/٢٥٥) و(١١/١٩٦) و(٧/١٢)، وقد رضي كلامه الذهبي في «العلو للعليّ الغفّار»: (١٩٤ ـ ١٩٥) وابن القيّم في «مختصر الصواعق المرسلة»: (٢/١٣٣، ١٣٤)، وانظر: «المفسّرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات»: (١/٣٠١ ـ ٣٢٥).

الذين رووا لنا الصلوات الخمس وأحكامها؛ فإن صدقوا هنا، صدقوا هناك، وإن كذبوا هنا، كذبوا هناك، ولا تحصل الثقة بأحدٍ منهم فيما يرويه»[1].

ومع هذا؛ فإنه ـ رحمه الله تعالى ـ يبدو أنه اعتزل مجالس الناس، وعكف على كتابة مؤلّفاته العظيمة، ولسان حاله يقول:

يقــولـون لي فيــك انقبــاض وإنمــا
رأوا رجـلاً عن مـوقف الــذلّ أحجمـا
أرى النـاس مَن دانـاهم هـان عنـدهم
ومَن أكــرمتــه عــزّةُ الـنفس أكــرمـا
ولم أقضِ حقّ العلم إنْ كــان كـلمــا
بــدا طـمــع صيّــرتــه لـي سـلمـا
إذا قيل لـي ذا مطمع، قلت: قد أرى
ولكن نفس الحــرّ تحتمــل الــظمـا
ولم أبتـذل في خـدمــة العلم مهجتي
لأخـــدم مَــن لاقيـت لكـن لأخــدمــا
أأشقى بــه غــرســاً، وأجـنيــه ذلّــة
إذاً فـاتّبـاع الجهـل قـد كـان أحـزمـا
ولـو أنّ أهـل العلم صـانـوه صـانهم
ولــو عـظّمــوه في النفـوس لعــظّمـا
ولــكـن أهــانــوه فــهــان ودنســوا
محيّــاه بــالأطمــاع حتـى تـثـلّمــا[2]

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧٣ ـ ٧٤).
(٢) القائل هو الشاعر علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ).

وقد اقتصرت المصادر التي ترجمت له على ذكر اثنين من تلاميذه، إلا أننا بالبحث المضني في كتب التراجم التي ترجمت للقرنين السابع والثامن الهجري ظفرنا باثنين غيرهما، وظفرنا بخامسٍ من خلال مناولة بخط الإمام القرطبي نفسه، وخلصنا إلى ما يلي:

١ ـ ابنه: شهاب الدين أحمد

قال السيوطي: و«روىٰ عنه ـ أي: القرطبي ـ بالإجازة: ولده شهاب الدين أحمد»[1].

وقد ذهب الأستاذ القصبي محمود زلط إلى الخلط بين أحمد هذا، وبين عالم إشبيلي خزرجي آخر، هو: (أبو العباس أحمد بن فرح بن محمد اللخمي الإشبيلي الشافعي)!! فقال: «لِمَ لا يكون صاحبها ـ أي: صاحب الترجمة المذكور أبي العباس ـ هو ولد القرطبي المفسّر، وتابعتُ البحث علّني أعثر على خيط يُزيل هذا الشك، فوجدتُ «دائرة المعارف» تبيّن: أن مثل ما وقع في نفسي قاله السيوطي في كتابه «طبقات المفسّرين» رقم (٨٨)، ثم وجدتُ «دائرة المعارف» تخطىء السيوطي في ذلك، تقول «الدائرة»: «وذكر السيوطي خطأً في كتابه «طبقات المفسرين»: أن (ابن فرح) هو ابن مصنّف الكتاب المشهور «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، وكتاب التفسير الكبير، المسمّى «جامع أحكام القرآن» محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح المالكي القرطبي، المتوفّى في التاسع من شوّال، عام (٦٧١ هـ)، (٢٩) أبريل ١٢٧٣ م».

«ورجعتُ إلى كتاب «طبقات المفسرين» للسيوطي، فلم أجد أثراً لهذا القول، بل وجدتُ السيوطي في الترجمة رقم (٨٨) يتحدث عن القرطبي صاحب «التذكرة» و«جامع أحكام القرآن»، ولم يذكر ما نقلته

---

(١) طبقات المفسرين: (٧٩).

«دائرة المعارف» عنه، فقلتُ: لعل هذا القول في غير «طبقات المفسرين»، من مؤلفات السيوطي، فبحثتُ في «طبقات الحفّاظ» وفي «ذيل تذكرة الحفّاظ» وفي «حُسْن المحاضرة»، فلم أرَ للسيوطي هذا القول».

ومع هذا، فبقي يرى أن قوله هذا صحيح، فقال: «وعلى كلٍّ فإن تخطئة «دائرة المعارف» للسيوطي، دعوى بلا دليل. ومن هنا فإن هذا الاحتمال الذي وقع في نفسي، والذي نسبته «دائرة المعارف» للسيوطي - على فرض أنه قاله - لا يزال قائماً»[١].

قلت: هذا تكلّف بعيد عجيب، فإن (ابن فَرَح الإشبيلي) لا صلة له ألبتّة بالقرطبي، فالاسم الكامل غير متّفق، بل إن القرطبي أنصاري من قرطبة ونزل مصر، وأبو العباس إشبيلي لخمي نزل دمشق، والأول (. . . ابن فَرْح) بفتح الفاء وسكون الراء كما قدّمنا[٢]، بينما الثاني (ابن فَرَح) بفتح الفاء والراء[٣]، وكان الذهبي تلميذاً لابن فرح الإشبيلي وترجم له. وهو أدرى الناس به، فكيف ينسى أن ينسبه لوالده القرطبي المفسّر، لو كان ذلك حقّاً؟ وأرى أن الإسهاب في هذه القضية عبث، إذ على المدّعي الدليل، لا سيما في غير الأمور المشهورة، و(ابن فرح الإشبيلي) هذا إمام مشهور معروف، صاحب القصيدة المشهورة في المصطلح (غرامي صحيح). مترجم له عند عدّةٍ من العلماء[٤]، ولم يذكر أحد منهم ما ذهب إليه الأستاذ القصبي، وهذا وحده كفيل على عدم صحته.

---

(١) القرطبي ومنهجه في التفسير: (٤٢).

(٢) راجع: (ص ٥ - ٦).

(٣) راجع: «تبصير المنتبه» (١٠٧٢/٣) و«المتكلمون في الرجال» للسخاوي: (١٢٠).

(٤) انظر - على سبيل المثال -: «تذكرة الحفاظ»: (١٤٨٦/٣) و«المعجم المختص»: رقم (٣٣) و«طبقات الشافعية الكبرى»: (٢٦/٨) و«طبقات الحفّاظ»: (٥١٤) =

وأحمد هذا (ابن القرطبي) كان عالماً، مشاركاً في الفنون، فذكر ابن حجر في ترجمة (أحمد بن محمد بن يحيـىٰ نجم الدين ابن الجلال القوصي المتوفّى (سنة ٧٣١ هـ) بالقاهرة أنه «سمع من أحمد ابن أبي عبد الله القرطبي»[١].

٢ - أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزّبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن عاصم الثقفي، العاصمي الغرناطي

الإمام الحجّة، الحافظ، العلاّمة، شيخ القرّاء والمحدّثين بالأندلس، ولد بجيان سنة ثمانٍ وعشرين وست مئة، وتلا بالسبع على أبي الحسن علي بن محمد الشّارّي، وعلى أبي الوليد بن يحيـىٰ الأزدي العطّار، وسمع في سنة خمس وأربعين وبعدها من سعد بن محمد الحفّار، وأبي زكريا يحيـىٰ بن أبي الغصن، وإسحاق بن إبراهيم بن عامر الطّوسي، وجماعة.

وعني بهذا الشأن، ونظر في الرجال، وعمل تاريخاً للأندلسيين، ذيَّل به على كتاب «الصلة» لابن بشكوال، وساد الناس في القراءات، وأحكم العربية، وتصدّر مدة، أخذ عنه: أبو حيَّان النحوي، وأبو القاسم محمد بن محمد بن سهل، وابن المرابط، وأبو القاسم بن عمران الحضرمي السبتي، وآخرون.

توفي سنة ثمانٍ وسبع مئة بغرناطة، رحمه الله تعالى[٢].

= و«النجوم الزاهرة»: (١٩١/٨) و«طبقات الشافعية» لابن كثير: (ل ٢٧٧/ب) و«الدليل الشافي»: (٦٩/١) و«نفح الطيب»: (٥٢٨/٢) و«الوافي بالوفيات»: (٢٨٦/٧) و«طبقات الشافعيـة» للإسنوي: (٢٩١/٢) و«طبقات علماء الحديث»: (٢٦٩/٤) و«العبر» (٣٩٣/٥) و«المعين»: رقم (٢٣٠٨) و«شذرات الذهب»: (٤٤٣/٥).

(١) الدرر الكامنة: (٣٠٥/١).

(٢) انظر ترجمته في: «تذكرة الحفّاظ»: (١٤٨٤/٤) و«الإحاطة»: (١٩٥/١) =

لم يذكر مُترجموه أنه تلمذ لأبي عبد الله القرطبي، إلا أن المراكشي قال في ترجمة الأخير: «حدّثنا عنه ـ أي: عن القرطبي ـ أبو جعفر بن الزبير، كتب إليه من مصر»[1].

قلت: ولأبي جعفر هذا كتاب «الإعلام بمَن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام» وهو تاريخ مستقل لأعلام الأندلس وتراجمهم. وهذا الكتاب غير كتابه الذي ذيّل به على كتاب «الصلة» لابن بشكوال، وقد ذكر هذا الكتاب: الشوكاني، وابن حجر، وحاجي خليفة[2]. وله «معجم شيوخه» ذكره ابن حجر[3]، فلعلّه ترجم فيهما ـ أو في أحدهما ـ لشيخه القرطبي، ونصّ على أنه أجازه وكتب إليه من مصر، كما قال المراكشي، والله أعلم.

هذان التلميذان هما المذكوران في كتب التراجم على أنهما تلاميذ القرطبي المفسّر، ولا أدري لِمَ أغفلت هذه التراجم ذكر التلاميذ، ولا أدري كيف ترجموا للقرطبي نفسه ترجمة مختصرة، ولا تكاد تختلف من مصدر إلى آخر. إلا أنّنا ظفرنا بغير هؤلاء، ويغلب على الظن أنهم تلاميذه، وبيان ذلك:

= و«الديباج المذهب»: (٤٢) و«غاية النهاية»: (١/ ٣٢) و«الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»: (ج ١ ق ١/ ٣٩ ـ ٤٥) و«المنهل الصافي»: (١/ ١٩٧) و«طبقات علماء الحديث»: (٤/ ٢٦٧) و«الدرر الكامنة»: (١/ ٨٩) و«طبقات الحفّاظ»: (٥١٣) و«بغية الوعاة»: (١/ ٢٩١) و«طبقات المفسرين»: (١/ ٢٦) للداودي و«شذرات الذهب»: (٦/ ١٦) ومقدمة «ملاك التأويل»: (١/ ٧ ـ ٢٧).

(١) الذيل والصلة: (٥/ ٥٨٥).

(٢) راجع: «الدرر الكامنة»: (١/ ٨٥) و«البدر الطالع»: (١/ ٣٤) و«كشف الظنون»: (١/ ٢٨٦).

(٣) راجع: «الدرر الكامنة»: (١/ ٨٥) و«الأعلام»: (١/ ٨٣، ٨٤) و«معجم المؤلفين»: (١/ ١٣٨).

٣ - إسماعيل بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الصمد الخراستاني

ولد في رجب، سنة (٦٣٩ هـ)، سمع من علم الدين السخاوي، والعزّ ابن عساكر، وعثمان خطيب القرافة، ومن جدّه لأمه عبد الله بن الخشوعي، وكان يخدم في الدواوين، مع جودة وحُسن خُلُق، مات في المحرّم، سنة (٧٠٩ هـ)، ذكره البرزالي[١].

نصّ ابن حجر أنه سمع من القرطبي[٢]، وسنّه يتحمّل أن يكون تلميذاً لصاحبنا أبي عبد الله.

٤ - أبو بكر محمد ابن الإمام الشهيد كمال الدين أبي العباس أحمد بن أمين الدين أبي الحسن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن الميمون الميموني القسطلاني، المصري، الفقيه، المالكي، الزاهد

ولد بمصر، في صبيحة يوم الاثنين، السابع والعشرين من ذي الحجة، سنة أربع عشرة وست مئة، ونشأ بمكة - شرّفها الله - وسمع الكثير، وأُجيز له، وصحب العلماء والفضلاء والصلحاء، وحظي من ذلك بما لم يحظَ به غيرُه من أهل زمانه.

سمع من الخفيفي الأبهري، وناصر بن عبد الله العطّار، والسهروردي، وابن الجُمَّيزي، وغيرهم كثير.

سمع منه: ابن رشيد الفهري، وأجاز له ولأولاده.

توفي يوم السبت (١٨) محرّم، سنة (٦٨٦ هـ)، رحمه الله تعالى[٣].

---

(١) الدرر الكامنة: (١/ ٣٧٩).

(٢) الدرر الكامنة: (١/ ٣٧٩).

(٣) له ترجمة في: «ملء العيبة»: (٣/ ٤١٥ - ٤٢٩) و«النجوم الزاهرة»: (٧/ ٣٧٣) و«العبر»: (٥/ ١٤٨).

ذكر أبو عبد الله بن رشيد الفهري في «رحلته» في ترجمة المذكور أن والده أسمعه «الأربعون» لأبي المعالي الفُراوي بسماعه منه، ثم قال:

«قال شيخنا أبو بكر: وقد سمعتُ أيضاً هذه الأربعين على أبي عبد الله القرطبي»[1].

٥ ـ ضياء الدين أحمد بن أبي السعود بن أبي المعالي البغدادي، المعروف (بالسطريجي)

ناوله القرطبي كتابه «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، وكتب إليه بخطّه ما نصّه:

«ناولتُ جميع هذا الكتاب ضياء الدين أحمدبن أبي السعود بن أبي المعالي البغدادي، المعروف بـ (السطريجي)، وأذنتُ له أن يناوله مَن شاء.

قاله مصنّفه محمد بن أحمد بتاريخ الثامن والعشرين من شهر شعبان، سنة ست وخمسين وست مئة، حامداً لله تعالى، ومصلياً على نبيّه محمد المصطفى»[2].

ومن المؤكّد أن لصاحبنا أبي عبد الله تلاميذ غير هؤلاء، إذ لا نتصوّر أن عالماً كالقرطبي الذي أنتج هذا الإنتاج الهائل ـ الذي سيأتي عرضه ـ لا يكون له تلاميذ إلّا هؤلاء، فضلاً عن أن النواحي العلمية في العصر الذي عاش فيه كانت تعتمد على الدروس والمحاورات، وأن «منية بني خصيب» ـ البلد الذي استقر به القرطبي ـ كانت موئلاً للعلم والعلماء، إذ كان الناس يجتمعون في مسجدها الجامع على شاطىء

---

(١) ملء العيبة: (٣/ ٤٢٥).
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (ل ٢٣٤/أ) نسخة شستربتي، بخط المصنف.

النيل لقراءة العلم، وقد طار ذكر هذا المسجد حتى أمّه العلماء، ومن ذلك «أن أبا مروان الباجي سمع بهذا الجامع، فأراد الصلاة به، فسافر إلى «منية بني خصيب»، ودخل مسجدها الجامع، فإذا فيه جماعة اجتمعوا لقراءة العلم، فصلّى به الظهر، والعصر، والمغرب، ولما همّ بالانصراف، تعرّضه بعض أولئك الحاضرين، وقد سألوا عنه، فأخبروا به، فأقبلوا إليه مسلّمين عليه، وراغبين منه في مبيته عندهم»[1]، وأخيراً. . . فلا نكون قد ابتعدنا عن كبد الحقيقة، إذا قلنا: إن من تلاميذ الإمام القرطبي كلّ مَن استفاد من كتبه، وأقبل عليها ناهِلاً منها، أو وجّه جهداً في خدمتها، أو نشرها، أو دراستها، ولا سيما «التفسير» منها، فإنه سيبقى مرجعاً وعوناً للكثيرين من المشتغلين بعلوم العربية والعلوم الشرعية، وحسبنا أن نجد من بين الذين أشادوا به، أو أفادوا منه علماء أجلّاء، مثل: ابن تيمية، وابن خلدون، وابن كثير، وابن حجر، والسيوطي، والبدر العيني، والشوكاني، وغيرهم كثير.

---

(١) الذيل والتكملة: (٥/٦٨٧) بتصرّف يسير.

الفَصلُ الخامِسُ

مُؤَلَّفَاتُ الإِمَامِ القُرْطُبِيِّ

*** ميزات تصانيف القرطبي**

كلّ مَنْ نظر في تآليف إمامنا القرطبي يجد أنها تستوفي التحقيق العلمي الناصع، ويرى المتمعّن فيها أن صاحبها ذو ذوق مرهف، وحسّ علمي نقي، ودقة نادرة في الفهم، وقوة بالغة في الحفظ، وقدرة عجيبة على التأليف بأنصع أسلوب، ومما يلحظه القارىء لكتب الإمام القرطبي أنه لا يرى فيها أثراً للاستعلاء والانتفاخ في العلم، بل يلمس فيها التواضع الجمّ المصحوب بالعلم والأدب الشرعي الحنيف، ولا تجد إمامنا يقول مُعاداً مكرّراً في مصنّفاته جميعاً، ولهذا كثرت الإحالة على كتبه، وهذه ظاهرة عامّة يلمسها كلّ مَنْ كان قريباً من مصنّفات الإمام.

وامتازت مؤلّفات الإمام القرطبي بتدوين كثيرٍ من الأحداث التاريخية المصحوبة بنظراته الشخصية، التي كانت تسجّل عرضاً، كأنها خاطرة انبثقت عن تداعي المعاني، وأومأ في غضون شرحه لآيات الكتاب العزيز إلى بعض الأحداث التاريخية، والقضايا الاجتماعية، التي تقدّم لنا طرفاً من معالم العصر الذي عاش فيه القرطبي، وقد سبق أن أشرنا في الفصل الأول إلى شيء من هذا.

*** ثَبَت بأسماء مؤلّفاته**

نورد فيما يلي ثَبَتاً بمؤلفاته التي بين أيدينا، أو ذكرها الإمام

القرطبي نفسه في كتبه المطبوعة وأحال إليها، أو حدّثتنا عنها المصادر التاريخية، مع نبذة عن كل كتاب.

وسأعمل على تقسيم كتبه إلى مجموعتين: المجموعة الأولى: الكتب المطبوعة، والمجموعة الثانية: الكتب المخطوطة والمفقودة، وسأذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ مَنْ ذكر الكتاب ونسبه للقرطبي، مبتدئاً بمواطن ذكره من كتب القرطبي الأخرى، وطبعاته إن كان من المجموعة الأولى، وأماكن وجود مخطوطاته إن كان من المجموعة الثانية، وكل كتاب لم أذكر له المخطوطات فهو لا يزال مجهولاً في بعض الأمكنة والدور الخاصّة التي تقتني المخطوطات، وتحتفظ بأُمّاتِ كتب التراث، أو لعلّه فُقِدَ مع ما فُقد من تراث الإسلام والمسلمين.

*** المجموعة الأولى: الكتب المطبوعة**

ـ الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّن من السنّة وآي الفرقان.

ذكره الإمام القرطبي هكذا في كتابه «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»: (ص ١١٢، ١٨٦، ٢٠٢، ٣١٣، ٣١٨، ٣٨٨، ٤١٧، ٥٥٠، ٦١٥، ٦٥٦، ٧٣٧ ـ ط السقا).

وهو كتاب التفسير المتداول «تفسير القرطبي»، ولا شك أنه أهم آثاره العلمية، وأنه ذو قيمة عالية بين كتب التفسير.

*** كشف وهم لطاش كبرى زاده في نسبته لغير صاحبه**

وذكر طاش كبرى زاده في «مفتاح السعادة ومصباح السيادة»[1] عند كلامه على تاريخ التفسير: «... ثم صنّف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم، وملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفنّ، واقتصر فيه

---

(١) ٢/٧٥ ـ ٧٦.

على ما تمهر هو فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء». ثم مثّل على ذلك بالنحوي والأخباري، ثم قال: «والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية، التي لا تعلّق لها بالآية أصلاً، والجواب على أدلة المخالفين، **كالقرطبي**، وهو محمد بن عمر بن يوسف، أبو عبد الله الأنصاري، القرطبي، المالكي، . . . توفي بالمدينة في مستهل صَفَر سنة إحدى وثلاثين وستمائة»!.

قلت: التفسير ليس لمحمد بن عمر، فقد التبس على طاش كبرى زاده[1]، فصاحبه متوفى في مصر سنة (٦٧١ هـ) وليس في المدينة (سنة ٦٣١ هـ) كما ذكر، فمحمد بن عمر وهو مقرىء مفسّر آخر، ولم يقتصر الإمام القرطبي في تفسيره على الفقه، وإن كان هو الغالب عليه، حتى سمّاه بـ «الجامع لأحكام القرآن» وإنما تعرّض فيه لأمور أخرى.

* مدحه وثناء العلماء عليه

مدح «تفسير القرطبي» غير واحد من العلماء الثقات الأثبات، وشهدوا له بالموضوعية والشمولية، يقول ابن فرحون: «وهو من أجلّ التفاسير، وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلّة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ»[2].

ويرى ابن العماد الحنبلي أن هذا التفسير قد «حوى مذاهب السلف كلها، وأن فوائدَهُ كثيرةٌ»[3].

---

(١) وقد نصّ على توهيمه حاجي خليفة في «كشف الظنون»: (١/ ٥٣٤).
(٢) الديباج المذهب: (ص ٣١٧) ومثله في «طبقات المفسرين» للداودي: (٢/ ٦٥ - ٦٦).
(٣) شذرات الذهب: (٥/ ٣٣٥).

وقال الإمام ابن تيمية فيه بعد أن ذكر «تفسير الزمخشري»:

«و«تفسير القرطبي» خير منه بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسُّنّة، وأبعد عن البدع»[1].

وقال الذهبي فيه:

«وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، وهو كامل في معناه»[2].

وقال ابن شاكر الكتبي:

«له تصانيف مفيدة، تدلّ على كثرة اطّلاعه، ووفور علمه، منها: تفسير الكتاب العزيز، وهو مليح إلى الغاية يدخل في اثني عشر مجلداً»[3].

وقال السيوطي: «مصنِّف التفسير المشهور الذي سارت به الرّكبان»[4].

وقال الصفدي: «وقد سارت بتفسيره الركبان، وهو تفسير عظيم في بابه»[5].

وأوضح ابن خلدون في «مقدمته» أن تفسير القرطبي له شهرة عريضة بالمشرق[6].

فلا عجب أن يتأثّر به المفسّرون الذين جاءوا بعده، فينتفعوا به،

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٣٨٧).
(٢) تاريخ الإسلام: (وفيات سنة ٦٧١ هـ).
(٣) عيون التواريخ: (٢١/ ٢٧).
(٤) طبقات المفسرين: (٧٩).
(٥) الوافي بالوفيات: (٢/ ١٢٢).
(٦) مقدمة ابن خلدون: (ص ٤٨٢).

ويفيدوا منه، وقد أكثر من النقل عنه الشوكاني في «فتح القدير» وابن كثير في «تفسير القرآن العظيم»[1].

وقال الغزّي إن أبا السعود جمع في تفسيره «إرشاد العقل السليم» ما في «تفسير البيضاوي» وزاد فيه زيادات حسنة، من جملة تفاسير، من بينها «تفسير القرطبي»[2].

*** اهتمام العلماء وطلبة العلم به، والجهود التي بُذِلت وقامت حوله**

لما كان هذا الكتاب من أجود كتب التفسير، وأكثرها نفعاً، لسهولة أسلوبه، وحُسْن تنظيم مسائله وتبويب قضاياه، فإن اهتمام العلماء وطلبة العلم به استمرت طيلة قرون، منذ وفاة القرطبي رحمه الله تعالى إلى أيامنا هذه، وأدلة ذلك كثيرة منها:

أولاً ـ كثرة نسخه الخطيّة

إن عدد النسخ الخطية التي توافرت من هذا التفسير بلغ أربعاً وعشرين نسخة، منها أكثر من نسخة كاملة، وقد توافر هذا العدد في دار الكتب والمكتبات الأخرى بمصر وحدها، وإن تواريخ نسخ هذه المخطوطات تأرجحت بين القرن الثامن الهجري (٧٣٧) والقرن الرابع عشر الهجري (١٣٣٠)، مما يدل على امتداد العناية بهذا التفسير، وإن كاتبي هذه النسخ المتعددة مختلفو المذاهب، فمنهم الشافعي ومنهم الحنفي، وفي هذا دليل على ما لتفسير القرطبي من درجة عالية لدى جميع المشتغلين بالعلوم الدينيّة، ولو لم يكونوا مثله من المالكية[3].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في «القرطبي ومنهجه في التفسير»: (ص ٤١٨ ـ ٤٢٦).
(٢) راجع: «الكواكب السائرة»: (٣/ ٣٥).
(٣) انظر: مقدمة الأستاذ إبراهيم إطفيش للجزء الثالث من «تفسير القرطبي»: (ص جـ ـ ي) و«نوادر المخطوطات العربية وأماكن وجودها»: (ص ١٢) و«القرطبي المفسر»: =

ثانياً ـ تعدّد طبعاته

طبع الكتاب لأول عام في القاهرة في عشرين مجلداً، وعنيت بتصحيحه وطبعه «دار الكتب المصرية»، واستمر طبعه سبع عشرة سنة، فابتُدىء به سنة (١٩٣٣ م) وانتهي منه سنة (١٩٥٠ م)، ثم أعادت طبعه الدار القومية للطباعة والنشر سنة (١٩٦١ م) ضمن «سلسلة كتاب الشعب» في ثمانين جزءاً، ثم طبع في دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (المكتبة العربية) سنة ١٩٦٧ م في القاهرة أيضاً مصوّراً عن الطبعة الأولى، صوّر أكثر من مرّة في أكثر من دار للنشر والتوزيع في بيروت[١].

وفي هذا دليل على تلقّي العلماء وطلبة العلم لهذا التفسير بالقبول، وانشغالهم به، ورحم الله الذهبي إذ قال فيه: «وسارت به الركبان» ولم تقتصر عناية العلماء وطلبة العلم على قراءته والاستفادة منه، بل تجاوزتها إلى اختصاره وتهذيبه وفهرسته وبيان منهج مصنّفه فيه».

ثالثاً ـ مختصراته

اختصر «تفسير القرطبي» منذ ست مئة عام تقريباً الشيخ سراج الدين عمر بن علي بن الملقّن الشافعي سنة (٨٠٤) هـ[٢].

وهذا من أقوى الأدلة على استمرار العناية بهذا التفسير، ومما يؤكد ذلك أن الأستاذ توفيق الحكيم نشر «مختار تفسير القرطبي» في (٨٩٦ صفحة) سنة (١٩٧٧ م)، إذ كان عمله في هذا المختار انتقاء فقرات خاصّة من «تفسير القرطبي»، في كثير من سور القرآن، مما

= (ص ٧٩) و«فهرس مخطوطات مكتبة كوبرلي»: (١/٧٤، ٧٥) و«أنموذج من الأعمال الخيرية»: (٣٧٧).

(١) انظر طبعاته في «ذخائر التراث العربي الإسلامي»: (٢/٧٥٩).

(٢) كشف الظنون: (١/٥٣٤). وقد طُبع في سنة ١٤٠٦هـ اختصار له في خمسة مجلدات، عن دار الكتاب العربي، قام باختصاره محمد كريم راجح. وقد قمتُ بجمع كلام القرطبي على الشيعة وعلى الصوفية وشكواه من أهل زمانه في ثلاث رسائل مستقلة وهي مطبوعة، ولله الحمد والمنّة.

وجده «الحكيم» ذا صلة بمشكلات مثقفي هذا العصر، وما يشغله من أمور الدين وقضاياه وقد عَنوَنَ لهذه المختارات بعنوانات موضوعية.

ويؤكد ذلك أيضاً أن الأستاذ محمد أديب صالح اختار من هذا التفسير نصوصاً كان يدرسها في كُلِّيَّتَيْ الشريعة في جامعة دمشق والجامعة الأردنية، وقد قدم لها وعلق عليها في كتاب مستقلٍ، طبع سنة ١٣٩٥ هـ. عن المكتب الإسلامي. في (١١٩ صفحة).

رابعاً ـ الدراسات التي قامت حوله

ومما يدلّل على اهتمام طلبة العلم بهذا التفسير: إفرادهم الدراسات عن منهجه، وقد قام ـ فيما أعلم ـ اثنان بدراسة منهجه في التفسير، الأول في رسالة للدكتوراه بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر، وهو الدكتور القصبي محمود زلط في دراسته بعنوان «القرطبي ومنهجه في التفسير»، وهي مطبوعة في دار الأنصار بالقاهرة، سنة (١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م). والثاني في رسالته للدكتوراه أيضاً وهو الدكتور يوسف عبد الرحمن الفِرت في دراسته بعنوان «القرطبي المفسّر: سيرة ومنهج»، وهي مطبوعة في دار القلم بالكويت، سنة (١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م).

خامساً: فهارســـه

طُبِعَت لهذا التفسير، فهرستان، الأولى: قام بإعدادها صاحب هذه السطور، مع مشاركة الأستاذ جمال عبد اللطيف، وتقع في (٢٨٦ صفحة)، وهي عبارة عن كشّاف تحليلي للمسائل الفقهية الموجودة في بطن هذا التفسير[1]. والأخرى: قام بإعدادها المكتب الثقافي بدار الفكر، وتحتوي على فهرس أطراف الأحاديث النبوية، والآثار، والأعلام والرواة، والقبائل والشعوب والجماعات، والأديان والفِرَق والطوائف والمذاهب والأماكن، وشواهد الشعر والرجز.

(١) وهو من مطبوعات مكتبة الصديق/ الطائف، ومكتبة ابن القيّم/ الدمّام.

سادساً: تدريسه وحفظه

الناظر في كتب التراجم، يجد أنّ العلماء قد أقبلوا على قراءة هذا «التفسير» وتدريسه، ويجد أن له أثراً ملموساً في التفاسير التي بعده، مثل: «تفسير ابن كثير» و«تفسير الشوكاني»، و«تفسير الألوسي» و«تفسير أبي السعود» وغيرها. ولم يقتصر الأمر على قراءته، بل تعدّاه إلى تدريسه وروايته، فنجد ـ مثلاً ـ في ترجمة العلاّمة شهاب الدين أحمد بن يونس العيثاوي (ت ١٠٢٥ هـ) أنه كان يروي هذا التفسير بإسناده إلى مصنفه، وكان يدرسه، ويُجيز طلبته به[١]، بل نجد في ترجمة الجيلالي السباعي أنه قرأ «تفسير القرطبي» في صغره حفظاً»[٢].

*** وصف التفسير وبيان محتوياته**

المتصفّح هذا «التفسير» يقف على خصائص ومزايا عديدة، نجلّيها فيما يلي:

أولاً: إن أول ما يتجلّى للناظر فيه كون الآيات الكريمة مطبوعة بحرف كبير، يميّزها من سطور التفسير، مشكولة شكلاً تامّاً، معدودة بالأرقام، وهذا الشكل التام شامل لآيات الشواهد أيضاً.

ثانياً: قد قدّم المؤلف لتفسيره مقدمة حافلة ببيان فضائل القرآن، وآداب حملته، وما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به، وفي تبيينه بالسُّنّة، ومعنى كونه أنزل على سبعة أحرف، وفي جمعه وحفظه، وذكر مَن حفظ القرآن في زمنه عليه الصلاة والسلام. وجاء في ترتيب سوره وآياته، وإيراد نكات في إعجازه، إلى غير ذلك مما لا يستغني عنه متدبّر للقرآن أو مفسّر[٣].

---

(١) انظر: «فهرس الفهارس والأثبات»: (٢/ ٨٣٨). (٢) المرجع نفسه: (١/ ٢٩٧).

(٣) من مقال الشيخ محمد بهجة البيطار بعنوان «تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي»، =

واستغرقت هذه المقدمة في جميع أبوابها مئة وسبع صفحات.

ثالثاً: أما عن بقية محتويات تفسيره، فقد بيّنها القرطبي أيضاً، فقال:

«فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقلّ بالسنّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفْرِغَ به مُنَّتي[1]، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمّن نُكَتاً من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والردّ على أهل الزّيغ والضّلالات، وأحاديث كثيرةً شاهدةً لِما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيهما، ومبيّناً ما أُشكل منهما، بأقاويل السلف، ومَن تَبِعهم من الخلف»[2].

ثم أوضح عن مقصده وباعثه على كتابة هذا التفسير بقوله:

«وعملتُه تذكِرةً لنفسي، وذخيرةً ليوم رَمْسي، وعملاً صالحاً بعد موتي»[3].

وقد وفّى القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ بما وعد: إذ امتلأ كتابه بالقضايا والموضوعات التي حدّدها، وكان في كل قضية يتناولها مَثَار إعجاب قارِئيه، إذ عالج كل فرع من علوم العربية والشرع، وكأنه فارس ميدانه المجلّى[4].

وقد التزم القرطبي في هذا التفسير الأمانة العلمية، والموضوعية في الإفادة من أسلافه، فقال:

«وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها،

= المنشور في مجلة «المجمع العلمي العربي»، (ج ٢٠ ع ٧ ـ ١٢)، السنة ١٩٤٥ م.

(١) المُنّة (بالضم): القوّة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١/٢ ـ ٣).

(٣) المرجع السابق: (١/٣).

(٤) القرطبي المفسر: (ص ٨١).

والأحاديث إلى مصنِّفيها، فإنه يُقال: من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله»[1].

رابعاً: وتبرز هنا جملة أمور وملاحظات، لا بدّ من التعرّض إليها:

١ ـ إن القرطبي يقصد من «تفسيره» أن يكون وجيزاً، ومسألة الإيجاز والتطويل مسألة نسبية؛ كما يقولون. فكتاب الله تعالى يتّسع بيانه لأضعاف ما قدّمه القرطبي، ومن هذه الناحية يمكن أن نعتبره موجزاً في تفسيره، وإن كان قد قدّم الكثير مما أُثِرَ من تفسير القرآن الكريم، في المسائل التي أثارها في نصّه هذا، والتي ترسم منهج سيره في هذا التفسير[2].

٢ ـ هو لا يقف في تفسير القرآن عند حدّ ما رُوِيَ من ذلك عن الرسول ﷺ والسلف الصالح، بل يتّخذ ما أُوتيه من أدوات العلم وسيلة يستعين بها على فهمه، وإن كان يُعدّ معرفة ما أُثِرَ من ذلك ضرورياً لفهم كتاب الله، وهنا يحسن بنا أن نوضّح الرأي الذي اختاره لنفسه في كتابه، فقد عقد باباً لما جاء في الوعيد من تفسير القرآن بالرأي، والجرأة في ذلك[3]، وأورد في ذلك جملة من الأحاديث، ثم نقل عن ابن الأنباري أن هذه الأحاديث فُسّرت على قولين:

أحدهما: مَن قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين، فهو متعرّض لسخط الله.

والآخر: وهو أثبت القولين، وأصحُّهما معنًى: مَن قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره، فليتبوأ مقعده من النار. وأن الرأي الوارد في الحديث المنسوب إلى النبي ﷺ: «مَن قال في القرآن برأيه فَلْيتبوّأْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٣).
(٢) القرطبي المفسر: (١٢٧).
(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (١/ ٢٧).

مقعده من النار» معناه: الهوىٰ، فالمعنىٰ: من قال في القرآن قولاً يوافق هواه، ولم يأخذه عن أئمة السلف، فأصاب، فقد أخطأ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر فيه.

ونقل عن ابن عطية أن معناه: أن يُسأل الرجل عن معنىً من كتاب الله، فيتسوّد (أي يتهجم) عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء، أو اقتضته قوانين العلم، كالنحو، والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسّر اللغويون لغته، والنحويون نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة، ليس قائلاً لمجرد رأيه. قال القرطبي: هذا صحيح، وهو الذي اختاره غير واحدٍ من العلماء، فإن مَن قال بما صحّ في وهمه، وخطر على باله، من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطىء، وإن مَن استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتّفق على معناها، فهو ممدوح. قال القرطبي: وقال بعض العلماء: «إن التفسير موقوف على السماع» وهذا فاسد... لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو: إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع، وترك الاستنباط. أو المراد به أمر آخر، وباطل أن يكون المراد ألّا يتكلّم أحد في القرآن إلّا بما سمعه، فإن الصحابة قد قرأوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ ﷺ، وإنما النهي يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتجّ على تصحيح غرضه، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة، لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزلون القرآن وفق رأيهم ومذهبهم، في أمور يعلمون قطعاً أنها غير مُرادة.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل، فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الاختصار، والحذف، والإضمار، والتقديم والتأخير. فمَن لم يُحكِم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية؛ كثر غلطه، ودخل في زمرة مَن فسّر القرآن بالرأي. والنقلُ والسماعُ لا بدّ منه في ظاهر التفسير أولاً، ليتّقى به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتّسع الفهم والاستنباط. والغرائبُ التي لا تُفهَم إلاّ بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ وآتينا ثمود الناقـةَ مبصرة فظلموا بها ﴾ معناه: آية مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية، يظن أن المراد به الناقة كانت مبصرة، فلا يدري بماذا ظلموا، فهذا من الحذف والإضمار. وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهي إليه.

وترى من هذا نموذجاً لمناقشته من ناحية، وأنه ليس من هؤلاء الذين يقفون عند حدّ النقل عن السالفين، يعمل فكره في الاستدلال والاستنباط، لا لمجرد الهوى، ولكن اعتماداً على قوانين العلوم، ووقوفاً عند حدودها، وأخذاً عن السلف ما يرى ضرورة الأخذ به، من تفسير المجمل، وحلّ المشكل.

٣ ـ أنه يقصد إلى تفسير القرآن الكريم ببيان التعبير القرآني، وأسراره، ومنزلته من الكلام العربي، ومن هنا عني باللغات والإعراب والقراءات.

٤ ـ وأما طريقة المؤلف في التفسير، فهي: أنه يورد الآية أو الآيات، ويفسّرها بمسائل يجمعها في أبواب، فيقول مثلاً: (تفسير سورة الفاتحة) وفيها أربعة أبواب، الباب الأول: في فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل، ويذكرها. الباب الثاني: في نزولها وأحكامها، وفيه

عشرون مسألة. الباب الثالث: في التأمين، وفيه ثماني مسائل. الباب الرابع: فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب. وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسألة، وهكذا. وتارة يكون التفسير بمسائل يعدّها على نحو ما تقدّم من دون فتح باب، ولا ذكر عنوان.

٥ ـ ينتقل المؤلف في هذه المباحث أو المسائل من تفسير المفردات اللغوية، وإيراد الشواهد الشعرية، إلى بحث اشتقاق الكلمات ومآخذها، إلى تصريفها وإعلالها، إلى تصحيحها وإعرابها، إلى ما قاله أئمة السلف فيها، إلى ما يختاره المؤلف أحياناً من معانيها.

٦ ـ أحسن المؤلف كل الإحسان بعزو الأحاديث إلى مخرجيها من أصحاب الكتب الستة، وغيرهم، وقد يتكلم على الحديث متناً وسنداً، قبولاً وردّاً، وفي هذا يقول رحمه الله تعالى:

«. . . وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً، لا يعرف مَن أخرجه إلّا مَن اطّلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الباب، والله الموفّق للصواب»[1].

* منزلة الأحاديث الموجودة في «تفسير القرطبي»

على الرغم من هذا، فإنه ـ رحمه الله تعالى ـ تساهل في إيراد بعض الأحاديث المنكرة والموضوعة في مواضع من «تفسيره». وخالف عادته في إيراد الأحاديث معزوّة إلى مصادرها ومخرّجيها في أغلب ما يورده. وأنا أذكر بعض الأمثلة على ذلك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١ / ٣٥٢).

أ ـ قال عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فأزلّهما الشيطان عنها...﴾، «... ولذلك قال ﷺ: «إن الله يحب الشجاعة، ولو على قتل حيّة»»[1]، وهو بعض حديث رواه ابن عدي في «الكامل» عن الزبير مرفوعاً، وقد حكم العلماء بوضعه، كما في «اللآلىء المصنوعة»: (٢/٩١) و«تنزيه الشريعة»: (٢/١٢٩) و«الفوائد المجموعة»: (٧٦).

ب ـ وذكر عند تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ قصة جرت بين علي بن الحسين وطبيب نصراني، وفي آخرها يقول علي بن الحسين: «وجمع رسول الله ﷺ الطبَّ في ألفاظ يسيرة، قال ـ أي النصراني ـ: ما هي؟ قال: «المعدة بيت الأدواء، والحِمْية رأس كل دواء، وأعطِ كل جسدٍ ما عوّدته»، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبّاً»[2].

وهذا الحديث موضوع، ليس من كلام النّبيّ ﷺ، وإنما هو من كلام طبيب العرب الحارث بن كلدة، كما نبّه عليه العلماء المحدّثون في كتب (الموضوعات)، فكان على المفسّر القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ أن يشير إلى ذلك إذ أورد القصة، وقد نبّه المفسّر الآلوسي على وضع هذا الحديث في «تفسيره»، فأحسن صنعاً.

جـ ـ وأورد في تفسير سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ومنهم مَن عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ...﴾ قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وأنه قال للنبيّ ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال عليه السلام: ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدّي شكره، خير من كثير لا تطيقه» ولم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/٣١٥).
(٢) الجامع لأحكم القرآن: (٧/١٩٢) وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ»: (٦٤): «لم أجد لهذه القصة إسناداً».

يعقب عليه بشيء إلا قوله: «وهو مشهور»[1]!!، والحديث منكر، وإسناده ضعيف جداً، نعم، هو مشهور عند القصّاص والمفسّرين النَّقَلة، وليس بمشهور على اصطلاح المحدّثين، بل هو ضعيف لا يلتفت إليه، ولا يستشهد به[2].

وهكذا تجد المفسّر القرطبي يورد في «تفسيره» بعض أحاديث غريبة، أو ضعيفة، أو منكرة، أو موضوعة، دون أن يُنَبّه عليها، والذي يبدو من النظر في «تفسيره» أن عادته ـ رحمه الله تعالى ـ في رواية الأحاديث الصحيحة أن ينسبها إلى مصدرها أو مخرّجها، فيقول ـ مثلاً ـ روى البخاري، أو روى مسلم، أو روى أبو داود، أو روى الترمذي، أو في «مصنّف أبي داود»، أو في «سنن ابن ماجه»، وهكذا. وأن عادته في رواية الأحاديث التي لا يستوثق من صحتها: أن يُغفِل تسمية مصدرها أو مخرّجها، فيقول: قال رسول الله ﷺ كذا، وجاء عنه ﷺ كذا. كما صنع في الأمثلة السابقة. وكما صنع في الخبر الذي ساقه عند تفسير قوله تعالى في سورة يونس ﴿ قدم صدق ﴾ فقال: «وقد سُئل النبي ﷺ، فقال: هي شفاعتي، توسّلون بي إلى ربكم»[3] ولم يذكر لهذا الخبر مصدراً ولا مخرجاً. وكما صنع في تفسير ﴿ الحمد لله ﴾ من سورة الفاتحة، فقال: «ويُذكر الحمد بمعنى الرضا، قال عليه السلام: «أحمد إليكم غَسْلَ الإحليل»، أي: أرضاه لكم»[4]. ولم يذكر أيضاً مصدر الخبر، ولا مخرّجه. والمعروف أنه من كلام ابن عباس.

وعلى هذا: نستطيع أن نقول: إنّ الأحاديث التي يوردها الشيخ

---

(١) المصدر نفسه: (٢٠٩/٨).
(٢) راجع كتاب «ثعلبة بن حاطب، الصحابي المفترىٰ عليه»، وكتابنا «قصص ضعيفة ومكذوبة» يسر الله إتمامه ونشره.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٣٠٦/٨).
(٤) المصدر نفسه: (١٣٤/١).

القرطبي في «تفسيره» غير معزوّة إلى مصدر ولا منسوبة إلى مخرّج معتمد، ينبغي الكشفُ عنها من مظانها لمعرفة حالها من الصحة أو الضعف والبطلان، ولا يسوّغ الركون إليها لمجرّد روايته لها، لما علمتَ أن فيها الضعيف والموضوع[1].

* ردود القرطبي على أهل الزيغ والضلالات في «تفسيره»

ردّ القرطبي من خلال «تفسيره» على أهل الزيغ والضلالات، وهذا بطبيعة الحال يكون عند تفسير آية تعرّضت للردّ عليهم، أو عندما يرى أن هؤلاء قد فهموا فهماً غير سديد لبعض آيات القرآن الكريم. وإليك أمثلة على ذلك[2] من خلال ردّه على الصوفية والشيعة:

قال رحمه الله تعالى: «لعل جُهّال المتصوّفة وزنادقة الباطنية، يتشبّثون بقوله تعالى:

﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾[3] وأمثالها، فيقولون:

العلم ما وهبه الله ابتداءً من غير كسب، والنّظرُ في الكتب والأوراق حجاب. وهذا مردود.

ومعنى الآية: هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة، لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات، فلا يتصوّر فيها الهبة[4].

قال شيخُنا الإمام أبو العباس:

---

(١) التعليقات الحافلة على الأجوبة الفاضلة: (١٣٦ ـ ١٣٩)، وقد قمتُ باستخراج الأحاديث المرفوعة ـ وما لها حكم الرفع ـ القولية والفعلية الموجودة في «تفسير القرطبي» في بطاقات خاصة تمهيداً للعمل على تخريجها وبيان منزلتها: صحة وحسناً وضعفاً. ومن خلال ذلك يكون الكلام على هذا الموضوع فيه دقة وتفصيل أكثر، عسى أن نلملم أطرافه في التقديم لذاك العمل، يسر الله ذلك بمنّه وكرمه.

(٢) انظر مزيداً من الأمثلة ومنهجه في الردّ على المذاهب والفِرَق في (الفصل السابع) من كتابنا هذا.

(٣) سورة آل عمران: آية رقم (٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ٢١).

ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعيّة، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامّة إنما يُحكم بها على الأغبياء والعامّة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم. وقالوا:

وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلّهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلّى له من العلوم، عمّا كان عند موسى من تلك الفهوم.

وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبك، وإن أفتاك المُفْتُون.

قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يُستتاب، لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سُنّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تُعلَم إلا بواسطة رُسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلِّغون عنه رسالته وكلامه، المبيّنون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصّهم بما هنالك، كما قال تعالى:

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ، إنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ بَصِيرٌ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّيْنَ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات. وعلى الجملة فقد حصل

(١) سورة الحج: آية رقم (٧٥).
(٢) سورة الأنعام: آية رقم (١٢٤).
(٣) سورة البقرة: آية رقم (٢١٣).

العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السَّلَفِ والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى، التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرَف شيء منها إلا من جهة الرُّسل، فمَن قال: إن هناك طريقاً آخر، يعرف بها أمره ونهيه غير الرُّسل، بحيث يستغني عن الرُّسل، فهو كافر، يُقتَل ولا يُستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال أو جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبيّ بعده ولا رسول، وبيان ذلك:

أنَّ مَنْ قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سُنَّة، فقد أثبت لنفسه خاصّة النبوّة، فإنَّ هذا نحو مما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ روحَ القُدُس نفثَ في رُوْعي. . . » الحديث»[1].

فنجد أن القرطبي رد على جهلة المتصوفة المتشبثين بالآية المذكورة على زعمهم الباطل وهو: (الإعراض عن العلم والفقه، والعمل بالخواطر). وكذا فعل الروافض عند طعنهم في القرآن. ومخالفتهم مصحف عثمان بالزيادة والنقصان، فاسمع إليه وهو يقول:

«طعن الرافضة ـ قبّحهم الله تعالى ـ في القرآن، وقالوا: إن الواحد يكفي في نقل الآية والحرف؛ كما فعلتم!! فإنَّكم أثبتُّم بقول رجلٍ واحدٍ ـ وهو خزيمة بن ثابت وحده ـ آخر سورة (براءة)، وقوله: ﴿ مِنَ المؤمِنينَ رِجالٌ ﴾[2]!!.

فالجواب: أنَّ خزيمة ـ رضي الله عنه ـ لما جاء بهما؛ تذكَّرهما كثيرٌ من الصَّحابة، وقد كان زيد يعرفهما، ولذلك قال: «فقدتُ آيتين من آخر سورة (التوبة)».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١١/ ٤٠ ـ ٤١)، وانظر (٧/ ٣٩).
(٢) سورة الأحزاب: آية رقم (٢٣).

ولو لم يعرفهما؛ لم يدرِ هل فقد شيئاً أو لا، فالآية إنما ثبتت بالإجماع، لا بخزيمة وحده.

جواب ثانٍ: إنما ثبتت بشهادة خزيمة وحده؛ لقيام الدَّليل على صحتها في صفة النبي ﷺ، فهي قرينة تغني عن طلب شاهد آخر، بخلاف آية (الأحزاب)، فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمة؛ لسماعهما إيَّاها من النبي ﷺ»[1].

وقال أيضاً:

«ولا خلاف بين الأمة، ولا بين الأئمة؛ أهل السُّنَّة: أن القرآن اسم لكلام الله تعالى، الذي جاء به محمد ﷺ، معجزةً له، وأنَّه محفوظ في الصُّدور، مقروءُ بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحف، معلومةٌ على الاضطرار سورُهُ وآياتُه، مُبَرَّأةٌ من الزِّيادة والنقصان حروفُهُ وكلماتُه، فلا يُحْتاجِ في تعريفه بحدٍّ، ولا في حصره بعدٍّ، فمَن ادَّعى زيادة عليه أو نقصاناً منه؛ فقد أبطل الإجماع، وبَهَتَ الناس، وردَّ ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن المنزَّل عليه، وردَّ قوله تعالى:

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أَنْ يَأْتوا بمِثْلِ هٰذا القُرآنِ لا يأْتونَ بمِثْلِهِ ولو كانَ بعضُهُم لبعْضٍ ظَهيراً ﴾[2].

وأبطل آية رسوله ـ عليه السلام ـ؛ لأنه إذ ذاك يصير القرآنُ مقدوراً عليه، حين شِيب بالباطل، ولمَّا قُدِرَ عـليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزاً.

فالقائل بأنَّ القرآن فيه زيادةٌ ونقصانٌ رادٌّ لكتاب الله، ولما جاء به الرسول، وكان كمَن قال: الصلوات المفروضات خمسون صلاة، تزوُّج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياماً مع شهر رمضان. . . إلى غير

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/٥٦).

(٢) سورة الإسراء: آية رقم (٨٨).

ذٰلك مما لم يثبت في الدين. فإذا رُدَّ هٰذا بالإجماع؛ كانَ الإجماعُ على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب.

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشّار بن محمد الأنباري:

ولم يزل أهلُ الفضل والعقل يعرفون مِن شرفِ القرآن، وعلوِّ منزلته، ما يوجبه الحقُّ والإنصاف والديانةُ، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين، وتحريف الزَّائغين، حتى نبغ في زماننا هٰذا زائغ زاغ عن الملّة، وهجم علي الأمَّة، بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيِّدها، ويثبتُ أسَّها، وينمّي فرعَها، ويحرسها من معايب أُولي الجَنَفِ والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر، فزعم أن المصحف الذي جمعه عثمان ـ رضي الله عنه ـ باتفاق أصحاب رسول الله ﷺ على تصويبه فيما فعل، لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمس مئة حرف! قد قرأت بعضها، وسأقرأ ببقيَّتها، فمنها:

«والعصر ونوائب الدهر».

فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين: «ونوائب الدهر»!!.

ومنــــــها:

«حتى إذا أخذتِ الأرض زخرفها وازَّيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهْلِكَها إلّا بذنوب أهلها».

فادَّعى هٰذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن: «وما كان ليهلِكَها إلّا بذنوب أهلها»!! وذكر مما يدَّعي حروفاً كثيرة!!.

وادَّعى أن عثمان والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ زادوا في القرآن ما ليس فيه، فقرأ في صلاة الفرض والناس يسمعون: «الله الواحد الصمد».

فأسقط من القرآن: «قل هو»، وغيَّر لفظ «أحد»، وادَّعى أن هٰذا

هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل المُحال!!.

وقرأ في صلاة الفرض:

«قل للذين كفروا: لا أعبد ما تعبدون»!.

وطعن في قراءة المسلمين، وادَّعى أن المصحف الذي في أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيَّرة؛ منها:

﴿ إنْ تُعَذِّبْهُم فإنَّهُم عِبادُكَ وإنْ تَغْفِرْ لهُم فإنَّكَ أنْتَ العزيزُ الحَكيمُ ﴾[1].

فادَّعى أن الحكمة والعزَّة لا يُشاكلان المغفرة!! وأن الصواب: «وإن تغفر لهم؛ فإنك أنت الغفور الرحيم».

وترامى به الغيُّ في هٰذا وأشكاله، حتى ادَّعى أن المسلمين يصحِّفون: ﴿ وكانَ عندَ اللّهِ وَجيهاً ﴾[2].

والصواب الذي لم يغيَّر ـ عنده ـ: «وكان عبداً لله وجيهاً»!.

وحتى قرأ في صلاة مفترضة ـ على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه ـ: «لا تحرّك به لسانك، إن علينا جمعه وقراءته، فإذا قرأناه فاتّبع قراءته، ثم إن عليّاً نبّأ به»!.

وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ: «ولقد نصركم الله ببدر بسيف علي وأنتم أذلّة».

وروى هٰؤلاء أيضاً لنا عنه قال: «وهٰذا صراطُ عليٍّ مستقيم».

وأخبرونا أنه أدخل في آية من القرآن ما لا يضاهي فصاحة رسول الله ﷺ، ولا يدخل في لسان قومه الذين قال الله ـ عزّ وجل ـ فيهم:

---

(١) سورة المائدة: آية رقم (١١٨).

(٢) سورة الأحزاب: آية رقم (٦٩).

﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رَسولٍ إلا بلِسانِ قَوْمِهِ ﴾[1].

فقرأ: «أليس قلت للناس» في موضع: ﴿ أأَنْتَ قلْتَ للنَّاسِ ﴾[2].

وهٰذا لا يُعرف في نحو المعربين، ولا يحملِ على مذاهب النَّحويين؛ لأن العرب لم تقل: ليس قمت. فأما: لستُ قمت ـ بالتاء ـ فشاذٌّ قبيحٌ، خبيثٌ رديءٌ؛ لأن (ليس) لا تجمد الفعل الماضي، ولم يوجد مثل هٰذا إلاّ في قولهم: أليس قد خلق الله مثلهم، وهو لغة شاذة، لا يُحمل كتاب الله عليها.

وادَّعى أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ لما أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت؛ لم يُصِبْ؛ لأن عبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد؛ لقول النبيّ ﷺ:

«أقرأُ أُمَّتي أُبيٌّ بن كعب».

ولقوله ـ عليه السلام ـ:

«مَن سرَّه أنِ يقرأ القرآنَ غضّاً كما أُنزل؛ فليقرأه بقراءة ابن أُم عبد».

وقال هٰذا القائل:

لي أن أُخالف مصحف عثمان؛ كما خالفه أبو عمر بن العلاء، فقرأ:

«إنَّ هٰذين»، «فأصدّق وأكون»، «وبشّر عباديَ الذين» ـ بفتح الياء ـ، «فما آتانيَ الله» ـ بفتح الياء ـ.

---

(١) سورة إبراهيم: آية رقم (٤).

(٢) سورة المائدة: آية رقم (١١٦).

والذي في المصحف:

﴿ إِنْ هٰذانِ ﴾[1] بالألف.

﴿ فأَصَّدَّقَ وأَكُنْ ﴾[2] بغير واو.

﴿ فَبَشِّرْ عِبادِ ﴾[3]، ﴿ فَما آتانِ اللهُ ﴾[4] بغير ياءين في الموضعين.

وكما خالف ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي مصحف عثمان، فقرؤوا:

﴿ كذٰلك حقّاً علينا نُنْجِ المؤمِنينَ ﴾[5].

بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضُهم، ويسكنها بعضُهم، وفي المصحف نون واحدة!.

وكما خالف حمزة المصحف، فقرأ:

«أتُمِدُّونِ بمال».

بنون واحدة، ووقف على الياء، وفي المصحف نونان، ولا ياء بعدهما.

وكما خالف حمزة أيضاً المصحف، فقرأ:

«ألا إنَّ ثموداً كفروا ربَّهم».

بغير تنوين، وإثبات الألف يوجب التنوين.

وكل هٰذا الذي شنَّع به على القرَّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف.

---

(١) سورة طٰه: آية رقم (٦٣).
(٢) سورة المنافقون: آية رقم (١٠).
(٣) سورة الزمر: آية رقم (١٧).
(٤) سورة النمل: آية رقم (٣٦).
(٥) سورة يونس: آية رقم (١٠٣).

قال أبو بكر:

وذكر هٰذا الإنسان أنَّ أُبيَّ بن كعب هو الذي قرأ:

«كأن لم تغنَ بالأمس وما كان الله ليهْلِكَها إلاّ بذنوب أهلها».

وذٰلك باطل؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد، ومجاهد قرأ على ابن عباس، وابن عباس قرأ القرآن على أُبيّ بن كعب:

﴿ حَصيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كذٰلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ ﴾(١).

في روايـــة:

وقرأ أُبيُّ القرآن على رسول الله ﷺ.

وهٰذا الإسناد متصل بالرسول ـ عليه السلام ـ نقله أهلُ العدالة والصيانة، وإذا صحَّ عن رسول الله ﷺ أمر؛ لم يؤخذ بحديث يخالفه(٢).

قال أبو عبيد:

لم يزل صنيعُ عثمان ـ رضي الله عنه ـ في جمعه القرآن يُعْتَدُّ له بأنه من مناقبه العِظام، وقد طعن عليه فيه بعضُ أهل الزَّيْغ، فانكشف عوارُهُ، ووضحت فضائِحُهُ.

قال أبو عُبيد:

وقد حدِّثتُ عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبي مِجْلز قال:

طعنِ قوم على عثمان ـ رحمه الله ـ بحُمْقِهِم جمعَ القرآن، ثم قرؤوا بما نُسِخَ.

---

(١) سورة يونس: آية رقم (٢٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٨٠ ـ ٨٣).

قال أبو عُبيد:

يذهب أبو مِجْلز إلى أن عثمان أسقط الذي أسقط بعلمٍ؛ كما أثبت الذي أثبت بعلمٍ.

قال أبو بكر:

وفي قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لَحافِظونَ ﴾[1].

دلالة على كفر هٰذا الإنسان؛ لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزِّيادة والنقصان.

فإذا قرأ القارىء:

«تبَّت يدا أبي لهب وقد تب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب. ومُريَّته حمالة الحطب. في جيدها حبل من ليف».

فقد كذب على الله ـ جلّ وعلا ـ وقوَّله ما لم يقل، وبدَّل كتابه، وحرَّفه، وحاول ما قد حفظه منه، ومنع من اختلاطه به.

وفي هٰذا الذي أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد؛ ليُدْخِلوا في القرآن ما يُحِلُّون به عُرى الإسلام، ويَنْسِبونَهُ إلى قوم كهٰؤلاء القوم، الذين أحالوا هٰذا بالأباطيل عليهم.

وفيه إبطالُ الإجماع، الذي بِهِ يُحْرَسُ الإسلام، وبثباته تُقام الصَّلوات، وتؤدَّى الزكوات، وتُتَحرّى المتعَبَّدات.

وفي قول الله ـ تعالى ـ:

﴿ألرَ. كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ﴾[2]. دلالة على بدعة هٰذا الإنسان،

---

(١) سورة الحجر: آية رقم (٩). (٢) سورة هود: آية رقم (١).

وخروجه إلى الكفر؛ لأن معنى ﴿أُحْكِمت آياته﴾: مُنِعَ الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها، أو يعارضوها بمثلها.

وقد وجدنا هٰذا الإنسان زاد فيها:

«وكفى الله المؤمنين القتال بعليٍّ، وكان الله قوياً عزيزاً».

فقال في القرآن هُجْراً، وذكر عليّاً في مكان؛ لو سمعه يذكره فيه؛ لأمضى عليه الحدّ، وحكم عليه بالقتل.

وأسقط من كلام الله: ﴿قُلْ هُو﴾، وغيَّر ﴿أحد﴾، فقرأ:

«الله الواحد الصمد».

وإسقاط ما أسقطه نفيٌ له وكفرٌ، ومَن كفر بحرف من القرآن؛ فقد كفر به كله، وأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا:

نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لمَّا قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لنا ربَّك: أمِن ذهب؟ أم من نحاس؟ أم من صُفر؟ فقال الله ـ جلَّ وعزَّ ـ ردّاً عليهم:

﴿قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1].

ففي ﴿هو﴾ دلالة على موضع الردِّ، ومكان الجواب، فإذا سقط؛ بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والتكذيب لرسول الله ﷺ.

ويقالُ لهٰذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته: أخبرونا عن القرآن الذي نقرؤه ـ ولا نعرف نحن ولا مَن كانَ قبلنا مِن أسلافنا سواه ـ هل هو مشتمل على جميع القرآن، من أوَّله إلى آخره، صحيح الألفاظ

---

(١) انظر تخريجه في «لباب النقول في أسباب النزول»: (٢٢٨).

والمعاني، عارٍ عن الفساد والخلل؟ أم هو واقع على بعض القرآن، والبعض الآخر غائب عنّا؛ كما غاب عن أسلافنا والمتقدِّمين من أهل ملّتنا؟!.

فإن أجابوا بأن القرآن الذي معنا مشتمل على جميع القرآن، لا يسقط منه شيء، صحيح اللفظ والمعاني، سليمها من كل زلل وخلل؛ فقد قَضَوْا على أنفُسِهم بالكفر حين زادوا فيه:

«فليس له اليوم هاهنا حميم. وليس له شراب إلا من غسلين. من عين تجري من تحت الجحيم. لا يأكله إلّا الخاطئون».

فهٰذا متناقض، يفسد بعضُه بعضاً؛ لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب: أكلت الماء، لكنهم يقولون: شربته، وذقته، وطعمته.

ومعناه فيما أنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ على الصِّحَّة في القرآن، الذي مَن خالف حرفاً منه؛ كفر.

«ولا طعام إلّا من غسلين».

لا يأكل الغسلين إلّا الخاطئون، أو: لا يأكل الطعام إلّا الخاطئون.

و(الغسلين): ما يخرج من أجوافهم من الشحم، وما يتعلّق به من الصَّديد وغيره.

فهٰذا طعام يؤكل عند البليَّة والنِّقمة، والشراب مُحال أن يؤكل!.

فإن ادَّعى هٰذا الإنسان أن هٰذا الباطل الذي زاده من قوله: «من عين تجري من تحت الجحيم»؛ ليس بعدها: «لا يأكله إلّا الخاطئون»، ونفى هٰذه الآية من القرآن؛ لتصحّ له زيادتُهُ؛ فقد كفر لما جحد آية من القرآن.

وحسبك بهٰذا كله ردّاً لقوله، وخِزْياً لمقاله.

وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرؤوا بكذا وكذا؛ إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يُتلى.

وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه، أو لفظه دون حكمه؛ ليس بقرآن»[1].

أضرب القرطبي في «تفسيره» عن كثير من قصص المفسّرين، وأخبار المؤرّخين، واستبدل بذلك تبيين آي الأحكام، فضمن كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد: مسائل تبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحِكَم، فإن لم تتضمن حكماً ذكر ما فيها من التفسير والتأويل[2].

*** الإسرائيليات في «تفسير القرطبي»**

قال الشيخ محمد محمد أبو شهبة عن «تفسير القرطبي»: «صان كتابه عن الإكثار من ذكر الإسرائيليات، والأحاديث الموضوعة. كما أنه إذا ذكر بعض الإسرائيليات والموضوعات مما يخلّ بعصمة الملائكة، أو الأنبياء، أو يخلّ بالاعتقاد: فإنه يكرّ عليها بالإبطال، أو يبيّن أنها ضعيفة، وذلك: كما فعل في قصة هاروت وماروت، وقصة داود، وسليمان، وقصة الغرانيق، وقصة زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش، وربما ينبّه أيضاً على بعض الموضوعات في أسباب النزول، وذلك: مثل ما رواه القصّاص، وأمثالهم، في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ الآيات[3].

غير أنه قد وجد فيه بعض الإسرائيليات والموضوعات، على قلّة. مثل ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾[4]، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ ولقد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٨٤ ـ ٨٦).

(٢) المصدر نفسه: (١/ ٣).

(٣) سورة الإنسان: آية (٨ ـ ١٢).

(٤) سورة الكهف: آية رقم (٩٤).

همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾[1]، فقد ذكر في البرهان أموراً إسرائيلية، ولا تصحّ، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ كيف فعل ربك بعادٍ إرَمَ ذاتِ العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾[2] إلى غير ذلك»[3].

وقد تنوّعت أساليب القرطبي في إبطال الإسرائيليات، فتارة يذكرها بإسنادها كاملاً، ثم يطيل في نقدها، والردّ عليها، مستعيناً بأقوال المفسّرين والعلماء، الذين ذكروها، وتعرضوا لها بالردّ والإبطال. وتارة يختصرها بتجريدها من أسانيدها، ويكتفي بردّها وإبطالها والإشارة إلى ضعفها[4].

فإنه رحمه الله على الغالب لم يشغل نفسه بحشد هذه القصص والأخبار، وإنما عمد إلى بيان الأحكام الشرعية التي تتضمنها الآيات في كتاب الله عزّ وجلّ، متناولاً هذه الأحكام في مسائل، وعرضها بنزاهة وإنصاف، كما سنبيّنه في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

*** آراء انفرد بها القرطبي في «تفسيره»**

سبق وأن بيّنّا إنصاف القرطبي وعدم تعصّبه وتقليده لأحدٍ من العلماء، ومع ذلك فإنّ له اختياراتٍ في «تفسيره» كاد أن ينفرد بها، أو استقرّ الأمر بين المحقّقين من العلماء على خلافها، وأكتفي هنا ببيان مَثَلَيْن على ذلك:

---

(١) سورة يوسف: آية رقم (٢٤).
(٢) سورة الفجر: الآيات (٦ ـ ٨).
(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: (١٣٧).
(٤) انظر في بسط (الإسرائيليات) وموقف القرطبي منها في: «مدرسة التفسير في الأندلس»: (٥٦٠ وما بعدها) و«الإسرائيليات في التفسير والحديث»: (٤٣) لمحمد حسين الذهبي.

الأول: اختياره في تفسير قوله تعالى: ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾[1] أن مريم نبيّة، فقال: «والصحيح أن مريم نبيّة، لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة المَلَك كما أوحى إلى سائر النبيّين»، وقال أيضاً بعد كلام عنها: «فهي إذاً نبيّة، والنبي أفضل من الولي»[2].

وهذا الذي ذكره لا ينهض لإثبات نبوّتها، ولا نسلّم له قوله إنّ كلّ مَن خاطبته الملائكة فهو نبي، ففي الحديث: أن الله أرسل مَلَكاً لرجل يزور أخاً له في قرية أخرى، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة، وقد اصطفى الله غير مريم كما أخبر في كتابه ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾[3].

وقد وصف الله تعالى مريم بأنها صدّيقة في مقام الثناء عليها، والإخبار بفضلها، قال تعالى: ﴿ وما المسيح ابن مريم إلّا رسول قد خلت من قبله الرُّسل، وأُمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام ﴾[4]، فلو كان هناك وصفٌ أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأتِ في نصّ قرآني ولا في حديث نبوي صحيح إخبار بنبوّة واحدة من النساء.

وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أن مريم ليست بنبيّة. وذكر النووي في «الأذكار» عن إمام الحرمين أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست نبيّة، ونسبه في «شرح المهذّب» لجماعة، وجاء عن الحسن البصري: «ليس في النساء نبيّة»[5].

---

(١) سورة آل عمران: آية رقم (٤٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٤/٨٢).
(٣) سورة آل عمران: آية رقم (٣٣).
(٤) سورة المائدة: آية رقم (٧٥).
(٥) راجع: «فتح الباري»: (٦/٤٧٧) و«لوامع الأنوار البهية»: (٢/٢٦٦) و«الرُّسل والرسالات»: (٨٦ ـ ٨٩).

الثاني: اختياره أن الذبيح الذي أمر الله إبراهيم عليه السلام بذبحه هو إسحاق، وقال في هذا القول: «وهذا القول أقوى في النقل عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين»(١).

ويبدو أن العامل الأساسي في وقوعه في هذا الخطأ، هو اعتماده على ما رواه كثير من المفسّرين، منهم: ابن جرير وغيره من روايات كثيرة، عن بعض الصحابة والتابعين، بل رفعوا ذلك إلى النبيّ ﷺ. وكان الأحرى بالإمام القرطبي ـ وهو من المشتغلين بالحديث ـ المشهود له بقوة الفكر وحصافته، وغزارة العلم، وسعة الاطّلاع، أن يتحرّى صحة هذه الأحاديث، وينظر في حقيقة الأمر، بدلاً من أن ينقلها كما هي.

إنّ الباحث المطّلع على كتب الرجال ودواوين السُنّة، يجد أن هذه الأحاديث ضعيفة، وبعضها موضوع، وسلاسل الإسناد لها مطعون فيها.

بل إن المرويّات في أن الذبيح (إسحاق) واضح فيها أنها من الإسرائيليات المدسوسة، التي تسرّبت ونقلها مَن أسلم من اليهود، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين، تحسيناً للظن بهم، وهذا هو الدليل:

ـ جاء في التوراة (الإصحاح الثاني والعشرون، فقرة ٢) ما نصّه: «فقال الرب: خُذْ ابنك وحيدك الذي تحبه (إسحاق)، واذهب به إلى أرض (المرايا)، وأصعده هناك مِحرقة على أحد الجبال، الذي أقول لك...».

وليس أدلّ على التحريف من كلمة (وحيدك)، فإسحاق لم يكن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ١٠٠).

وحيداً لأبيه إبراهيم، فقد ولد وإسماعيل في نحو الرابعة عشرة، كما هو مذكور في «توراتهم»[1]، وقد بقي إسماعيل ـ عليه السلام ـ حتى مات أبوه إبراهيم، وحضر وفاته ودفنه.

وهذا الذي عليه المحقّقون من أهل العلم، نكتفي بذكر اثنين منهم:

الأول: ابن كثير، فإنه قال بعد كلام: «والذي استدلّ عليه محمد بن كعب القرطبي، على أنه إسماعيل **أثبت وأصحّ وأقوى**، والله أعلم»[2].

والآخر: ابن قيّم الجوزية، قال رحمه الله تعالى:

«وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم»[3] وأطال في ردّه بمنطق أهل السُّنّة والجماعة، معتمداً على الكتاب وصحيح السُّنّة.

ومن كتبه المطبوعة:

- **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، ذكره المصنّف في «تفسيره» في مواطن كثيرة جداً، منها:

(١/١٣٧، ٣٧٨ و٢/١٩٣، ٢٤١ و٣/٢٧٦ و٤/١٠٠، ١٠١، ١٧٠، ٢٩٨ و٦/١٣٣، ٤٢٢ و٧/١٠، ٢٠٦، ٢٣١، ٣١٧ و٨/٣٣٠ و٩/٩٦، ٢٦٩، ٣١٦، ٣٢٥، ٣٣٦، ٣٥٦، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٩ و١٠/٢٤، ٣٠، ٦٠، ١٠٢، ١٢٠، ٢٢٢، ٢٦٧، ٣١٢، ٣٨٨،

---

(١) انظر: سفر التكوين، الإصحاح السادس عشر: الفقرة (١٦)، والإصحاح الحادي والعشرين: الفقرة (٥) و(٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/١٩) عند الآيات (١٠٤-١٠٧) من سورة الصافات.

(٣) زاد المعاد: (١/٧١ وما بعدها).

٣٩٧، ٤١٧ و١١/١٠٩، ١٢٧، ١٣٦، ٢١١، ٢٣١، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٩٤، ٣٤٨ و١٢/٣٠، ٥٥، ١٥٤ و١٣/٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٠ و١٤/٣٠، ٤٧، ٥٤، ٨٣، ٩٤، ٩٦، ٢٢٩، ٣١٤ و١٥/٥٠، ١٢٩، ١٥٧، ٢٥٥، ٢٦٢، ٢٧٩، ٢٨٦، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٥٣ و١٦/١٠٧، ١٥٤، ٢٤٠ و١٧/٥٨، ٩٩١ و١٨/٣، ٢٦٩ و١٩/٧٠، ٨٨، ١٨٩، ٢٢٩، ٢٥٣ و٢٠/١٦٦، ١٦٧، ١٧٣، ٢١٧).

*** كشف وهم للأستاذ عمر رضا كحالة**

ونسبه الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين»: (٢/٢٧) إلى أحمد بن عمر القرطبي فأخطأ[١]، فأحمد بن عمر أبو العباس هو شيخ المصنفِ صاحب كتاب «التذكرة» كما مضى في الفصل الثالث.

*** طبعات الكتاب وتقويمها**

وطبع الكتاب لأوّل مرة بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقّا في القاهرة، عن مكتبة الكليات الأزهرية في جزئين في مجلد واحد، واعتمد على نسختين خطيتين، ولم يعمل المحقّق فيه شيئاً، سوى مقابلة النسختين وإثبات الفروق في الهامش، وعلّل ذلك بقوله:

«... وأثبتنا الفروق في الهامش، ولم نذكر تعليقات لكبر الكتاب من جهة، ولأن موضوعاته في الترغيب والترهيب من جهة أخرى، واكتفينا بالتحقيـق الدقيق على النسخ المُشار إليها»[٢].

وعلى الرغم من ذلك لم يسلَم الكتاب من كثير من الأخطاء الطباعية!.

---

(١) وذكره في «معجم المؤلفين»: (٨/٢٤٠) مرة أخرى على الصواب في ترجمة «محمد بن أحمد القرطبي».

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: المقدمة (ص ٥).

ثم طبع الكتاب مرة أخرى في مجلدين عن دار ابن زيدون في بيروت ومكتبة مدبولي في القاهرة بتحقيق السيد الجميلي سنة (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) واعتمد على طبعة السقّا وجعلها أصلاً، وقال المحقّق تحت عنوان «عملنا في هذا الكتاب»: «قمنا بتخريج الآيات القرآنية من المصحف الشريف، حقّقنا الأحاديث النبوية الشريفة وراجعنا تخريجها، شرحنا الألفاظ الغامضة، صحّحنا بعض الأخطاء من تصحيف أو تحريف، ونظراً لكبر حجم الكتاب حاولنا الاختصار في الشرح والتعليق قدر الإمكان»[١].

ولم يفِ المحقّق بما وعد، سوى تخريج الآيات القرآنية، وبيان بعض الغريب دون استيفاء.

*** حاجة الكتاب إلى تحقيق علمي وبيان محتوياته وموضوعه**

وما زال الكتاب بحاجة إلى تحقيقٍ علميٍّ جادٍّ[٢]، مع كشافات وفهارس تبيّـن كنوزه، وتوضّح فوائده، إذ حوى كثيراً من الفوائد الفرائد، بل هو موسوعة لا تكاد تجد لها نظيراً في الأحاديث والآثار والحكايات التي تتعلّق بالموت والجنة والنار وأشراط الساعة وحياة البرزخ.

قال فيه الشيخ محمد مخلوف: «في مجلدين، كتاب ليس له مثيل في بابه»[٣].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (١/ ١١).

(٢) ويقوم صاحب هذه الدراسة بتحقيق الكتاب على نسخة خطيّة بخط المصنّف نفسه وغيرها، وخطته فيه: تخريج الحديث والأثر والحكم عليه، والرجوع إلى الكتب التي نقل منها المصنّف، وتخريج الأشعار، والتعليق على المواطن التي تكلّف فيها المصنف وأخرج آيات الصفات عن ظاهرها خلافاً لمذهب السلف في الأسماء والصفات، وصنع كشافات وفهارس تحليلية له، وسيطبع قريباً إن شاء الله تعالى في مكتبة السوادي/ جدّة، يسّر الله له ذلك بمنّه وفضله.

(٣) شجرة النور الزكية (ص ١٩٧).

وعرّف حاجي خليفة الكتاب بقوله:

«هو كتاب مشهور في مجلد ضخم، جمع من كتب الأخبار والآثار ما يتعلّق بذكر الموت، والموتى، والحشر، والجنة، والنار، والفتن، والأشراط، وبوّب أبواباً، وجعل عقيب كل باب فصلاً يذكر فيه ما يحتاج إليه من بيان غريب، وإيضاح مشكل، وسمّاه «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، واختصره بعض العلماء»[1] انتهى.

*** نســـــخه الخطيّة**

ومن الكتاب نسخ خطيّة عديدة مبثوثة في أكثر من مكان، ففي دار الكتب المصرية منه نسختان[2]، وفي معهد إحياء المخطوطات العربية نسخة أخرى[3]، وفي مكتبة الأوقاف العامّة في الموصل نسخة بخط قديم، وورق أصفر ثخين في جزئين[4]، وفي مكتبة شستربتي في إيرلندة نسخة غير مؤرّخة، بخط المصنّف، لكن ألحق بها المصنّف مناولة تاريخها (٦٥٦ هـ)[5].

*** مصـــــادره فيه**

وألمع المصنّف إلى مصادره فيه بقوله:

---

(١) كشف الظنون: (١/ ٣٩٠).

(٢) انظر: «فهرس المخطوطات» لفؤاد سيد: (١/ ١٤٧) وأرقامها(٨٨٣، ٨٨٤ ـ تصوف).

(٣) وهي نسخة مصوّرة من مكتبة أحمد الثالث، تحت رقم (١٤٥٣)، وفيه نسخة مصوّرة أخرى تحت رقم (١٤٢٢).

(٤) انظر: «فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل» لسالم عبد الرزاق أحمد، وهذه النسخة ضمن مخطوطات مدرسة مسجد العراكدة من كتب التصوف والأخلاق والأدعية، برقم (١/ ٥، ٢/ ٥) (فهرس مخطوطات مكتبة الموصل). وقد وقفت على نسخ أخرى خطية للكتاب في مكتبة الحرم المكي، وفي مكتبة الحرم المدني، وفي مكتبة الجامعة الإسلامية في زيارتي للمملكة العربية السعودية سنة ١٤١١ هـ.

(٥) ومضى نصها في مبحث (تلاميذه): «مجلة المورد»: (م ٢، ع ٢ ص ١٩٤) و(م ٤ ع ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧).

«نقلته من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسب ما رأيته رويته، وسترى ذلك منسوباً مبيّناً إن شاء الله تعالى»[1].

وأكثر المصنّف فيه النقل من أُمّات كتب السُنّة وغريب الحديث، ولم يكتفِ بالمشهور منها، بل نقل من المغمور أيضاً، ولا سيما من الأجزاء الحديثية التي تخصّ موضوع الكتاب من مثل: «القبور» للخرائطي و«المحتضرين» و«حُسْن الظن بالله» لابن أبي الدنيا و«التلقين» للقاضي عبد الوهاب، ونقل كثيراً من «نوادر الأصول» للحكيم الترمذي و«الرعاية» و«التوهّم» للمحاسبي و«كشف علوم الآخرة» للغزالي و«العاقبة» لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي و«التحبير» و«التفسير» للقشيري و«الاستذكار» و«التمهيد» لابن عبد البرّ و«الطاعة والمعصية» لعلي بن معبد، و«اللؤلؤيات» لأبي مطيع النسفي و«النصائح» لابن ظفر و«الديباج» للختلي و«عيون الأخبار» للقتبي و«الإرشاد» لابن برجان و«سراج المريدين» لابن العربي المالكي و«المفهم» لشيخه أحمد بن عمر القرطبي، وغيرها كثير جداً، وأكثر النقل من كتب اللغة، ولا سيما من كتابي «الصِحاح» للجوهري و«المجمل» لابن فارس.

*** خطّة المصنّف فيه**

وذكر المصنّف خطته فيه، فقال:

«وبوّبتُه باباً باباً، وجعلت عقب كل باب فصلاً أو فصولاً، نذكر فيه ما يحتاج إليه من بيان غريب، أو فقه في حديث، أو إيضاح مشكل، لتكمل فائدته، وتعظم منفعته، إذ التفقّه في حديث رسول الله ﷺ هو المعنى المقصود، والرأي المحمود، والعمل الموجود في المقام المحمود، واليوم المشهود»[2].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (ص ٩).
(٢) المرجع السابق.

وأصل الكتاب في جزئين، كما في نسخة المصنّف، وذكر ذلك جماعة، منهم: المقري[1] وابن فرحون[2]، ونسبه له الصفدي[3] والداودي[4] والسيوطي[5] وجماعة.

*** مختصـــــراته**

اختصر كتاب «التذكرة» أحمد بن محمد بن علي نور الدين الحسين الشافعي السحيمي الأزهري المتوفّى سنة (١١٨٧ هـ)، وسمّاه: «التذكرة الفاخرة في أحوال الآخرة»[6]، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، تحت رقم (٨٨٥ تصوّف).

وكان قد اختصره قبل ذلك الشيخ عبد الوهاب الشعراني المتوفّى سنة (٩٧٣ هـ)، واختصاره مطبوع متداول في مجلدة لطيفة، طبع لأول مرة في بولاق، سنة (١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م)، ثم في مطبعة شرف في القاهرة سنة (١٣٠١ هـ - ١٨٨٣ م)، ومن ثم في المطبعة الخيرية في القاهرة أيضاً سنة (١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م)، وفي مصر سنة (١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م)، وفي القاهرة عن المطبعة الأزهرية سنة (١٩٢٦ م)، وفيها أيضاً عن مطبعة مصطفى بابي الحلبي سنة (١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م)[7].

وقد أفصح عن منهجه في الاختصار وسببه، فقال:

«فهذا كتاب اختصرتُ فيه كتاب «التذكرة» للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي

---

(١) انظر: «نفح الطيب»: (٢/ ٤٠٩).
(٢) انظر: «الديباج المذهب»: (٣١٧).
(٣) انظر: «الوافي بالوفيات»: (٢/ ١٢٢).
(٤) انظر: «طبقات المفسرين»: (٢/ ٦٦).
(٥) انظر: «طبقات المفسرين»: (٧٩).
(٦) أعلام العرب في العلوم والفنون (٢/ ٩١).
(٧) ذخائر التراث العربي الإسلامي (١/ ٦١٨).

رضي الله تعالى عنه، بمعنى أنّي أحذف منه ما لا يذكر بالموت والحساب من غريب ألفاظ وإعراب، مما هو مذكور في كتب اللغة والنحو، فإن كتب الرقائق لا ينبغي أن يكون فيها شيء من ذلك، وكثيراً ما يكون القارىء يقرأ في كتب الرقائق والحاضرون يبكون، فيحضر نَحْويٌّ فيقول: هذه الكلمة معطوفة على أيِّ شيء؟ فيحصل اللغطُ، فيزول ذلك الخشوع والحزن لوقته ويذهب بالاعتبار، فهذا كان سبب اختصاري لهذا الكتاب ولحـذف ما كان فيه خارجاً عن ذكر الموت وأهواله كما يدلّ على ذلك تسمية الكتاب»[1]، و«فرغ من اختصاره يوم السبت: سابع عشر ربيع الأول سنة ثمانٍ وتسع مئة بمصر»[2].

هذا وقد شكّك الدكتور القصبي محمود زلط في نسبة هذا الكتاب لصاحبه فقال:

«ولقد شكّك بعض العلماء في نسبة هذا المختصر إلى الإمام الشعراني، ويبدو أنه كذلك، فإن صاحب «كشف الظنون» عندما تحدّث عن «تذكرة القرطبي» قال: «وهي مختصرة لبعض العلماء» وعندما تحدّث عن الكتب التي تحمل اسم «مختصر» لم يذكر للإمام الشعراني شيئاً منها»[3].

وأرى أن هذا التعليل الذي جاء به رفضاً لنسبة «المختصر» إلى الشعراني تعليل لا ينهض بدليل لما أراد، فليس معنى أن يغفل «حاجي خليفة» عن إيراد اسم الكتاب في «كشف الظنون» أن الكتاب غير موجود، وأن مؤلفه أو مختصره لا بـدّ أن يكون رجلاً آخر غير مَنْ هو معروف ومشهور.

---

(١) مختصر تذكرة القرطبي (ص ٢).
(٢) المرجع السابق (ص ١٦٠).
(٣) القرطبي ومنهجه في التفسير: (ص ٤٥).

ثم إن الكتاب بين أيدينا، وقد سبق القول آنفاً: إن الشعراني ذكر في مقدمة كتابه سبب اختصاره لهذا الكتاب، وأنه حدّد اسم المؤلّف (الإمام القرطبي) تحديداً وافياً، بحيث لا يمكن أن ينصرف الاسم إلى غيره من العلماء الذين شاركوه في اسم النسبة «القرطبي».

على أن مقارنة «مختصر الشعراني» بالنسختين المخطوطتين من كتاب الإمام القرطبي تكشف في وضوح أن أبواب الكتابين ومحتوياتهما متّفقة.

فليس من المقبول بعد ذلك أن نشك في نسبة هذا المختصر إلى الإمام الشعراني، لمجرد أن صاحب «كشف الظنون» أغفل نسبة الكتاب إلى صاحبه، فلعلّه لم يطّلع عليه، أو أُنسي ذِكره، ثم إذا لم يكن الشعراني صاحب هذا المختصر الذي بين أيدينا فلمَن يكون المختصر؟ سؤال كان ينبغي أن يجيب عنه مَن تشكّك في نسبة الكتاب، لأن الاختصار قائم، ولا ينبغي أن نتّهم الشعراني بالتّدليس والاستيلاء على عمل الغير، إلّا إذا كان لدينا دليل واضح على أن فلاناً من العلماء هو الذي نهض بهذا العمل، واختصر هذا الكتاب(١).

ومن كتب الإمام القرطبي المطبوعة:

ـ التذكار في فضل الأذكار.

*** نســـــبته له**

لم يَرِد له ذكر في «الجامع لأحكام القرآن» وذكره في «التذكرة»(٢).

وذكره له: ابن فرحون في «الديباج المذهب»(٣)، والداودي في

---

(١) القرطبي المفسر: (ص ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) ص ٥٥٤.

(٣) ص ٣١٧.

«طبقات المفسّرين»[1]، والبغدادي في «هدية العارفين»[2]، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»[3]، ومحمد مخلوف في «شجرة النور الزكيّة»[4]، والزركلي في «الأعلام»[5].

*** طبـــــعاته**

وقد طبع الكتاب لأول مرة سنة (١٩٣٦ م) في القاهرة، بتحقيق أحمد بن محمد بن الصديق الغماري ثم في مكتبة دار البيان/ سنة (١٩٧٢ م) بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وإبراهيم الأرناؤوط، ثم عن دار التوحيد في القاهرة، سنة (١٩٧٩ م) بتحقيق ثروت محمد نافع[6]، ثم عن دار الكتاب العربي، سنة ١٤٠٨ هـ، بتحقيق فؤاد أحمد زمرلي.

*** تاريخ تصنيفه وبيان محتوياته**

ويبدو أن الإمام القرطبي ألّف كتابه هذا بعد تأليفه كتاب «الجامع لأحكام القرآن» إذ نجده يحيل كثيراً في أثناء حديثه عليه[7]. ويترجّح لنا هذا إذا علمنا موضوع الكتاب ومحتواه... وقد كفانا المصنّف نفسه عناء ذلك بقوله:

«هو كتاب يحتوي ما يدلّ على فضل القرآن وقارئه، ومستمعه، والعامل به، وحرمته، وحرمة القرآن، وكيفية تلاوته، والبكاء عنده، وفضل مَن قرأه معرباً، وذمّ مَن قرأه رياءً وعجباً، إلى غير ذلك مما تضمنه الكتاب».

ثم بيّن أن المقصد الأوّل كان تخريجَ أربعين حديثاً عن النبيّ ﷺ، لما رُوِيَ من قوله عليه السلام: «مَن حفظ على أمتي أربعين

---

(١) ٦٦/٢.
(٢) ١٢٩/٢.
(٣) ٣٨٣/١.
(٤) ص ١٩٧.
(٥) ٣٢٢/٥.
(٦) ذخائر التراث العربي الإسلامي (٧٥٩/٢).
(٧) انظر: «التذكار»: (ص ٢٢، ٢٣، ١٥٦).

حديثاً من السُنّة حتى يؤدّيها إليهم كنتُ له شفيعاً ـ أو شهيداً ـ يوم القيامة»[1].

ثم سمّى الأبواب الأربعين التي يتضمنها الكتاب، فكان الباب الأول في أن كلام الله ـ عزّ وجلّ ـ غير مخلوق... أما الباب الموفي أربعين فجاء في التنبيه على أحاديث وُضِعت في فضل سور القرآن، وذكر ما ورد من الأخبار في ذلك[2].

*** أوجه الشبه بين هذا الكتاب ومقدمة «التفسير»**

والمتمعّن في أبواب مقدمة «تفسيره» يجد تشابهاً بينها وبين أبواب هذا الكتاب، فلعل الإمام القرطبي تعهّد مقدمة «التفسير» بشيء من التفصيل، وأضاف إليها بعض الأبواب في إطار تخريج أربعين حديثاً في فضائل القرآن الكريم، وتمّ له بذلك كتاب «التذكار في أفضل الأذكار».

*** المقارنة بينه وبين «الأذكار» للنووي**

وقد قارن ابن فرحون بين هذا الكتاب وكتاب الإمام النووي «التبيان في آداب حَمَلَة القرآن» فقال بعد أن ذكر أنّ الكتابين قد جاءا على طريقةٍ واحدة:

«ولكن كتاب «التذكار» أتمّ منه، وأكثر علماً»[3].

*** نسـخه الخطيّة**

ومن هذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية، تحت رقم

---

(١) نقل القرطبي في «التذكار» عن ابن السكن قوله فيه: «وليس يُروى هذا الحديث عن النبيّ ﷺ من وجهٍ ثابت».

(٢) انظر: «التذكار» (ص ٢ ـ ٦).

(٣) الديباج المذهب (ص ٣١٧) ومثله في «شجرة النور الزكية»: (ص ١٩٧) و«طبقات المفسرين»: (٢/٦٦) للداودي.

(٢٣٠٤٦ ب)، مكتوبة بقلمٍ مغربي بخط محمد بن الحسن المغربي السوسي؛ فرغ منها في أوائل جمادى الأولى سنة (١٠٦٣ هـ)[١].

- قمع الحرص بالزّهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكسب والصّناعة.

*** نسبته له وبيان محتواه وتحقيق اسمه**

ذكر الإمام القرطبي في «تفسيره» عند قول الله تعالى: ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾[٢] أن الأمر بالسؤال لله تعالى واجب. ثم قال: «وقد أشبعنا القول في هذا المعنى في كتاب: قمع الحرص بالزهد والقناعة»[٣].

وذكر عند قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾[٤] أن التوكّل اعتماد القلب على الربّ في أن يلُمّ شعثه، ويجمع عليه أَرَبَه، ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر، ثم قال: «وهذا هو الحق، سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: إني أُريد الحج على قدم التوكّل. فقال: اخرج وحدك. فقال: لا، إلا مع الناس. فقال له: أنت إذن متّكل على أجربتهم»، ثم قال الإمام القرطبي: «وقد أتينا على هذا في كتاب: «قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكسب والصناعة»»[٥].

وسرد عند قوله تعالى: ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون. فوربّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون ﴾[٦] كثيراً من الأحاديث والإنشاء والقصص الماتعة في بيان أن الرزق على الله سبحانه

---

(١) انظر: «فهرس مخطوطات دار الكتب»: (١/١٤٧).
(٢) سورة النساء: آية (٣٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٥/١٦٥).
(٤) سورة الفرقان: آية (٢٠).
(٥) الجامع لأحكام القرآن: (١٣/١٦).
(٦) سورة الذاريات: آية (٢٢ ـ ٢٣).

وحده، ثم قال: «وقد استوفينا هذا الباب في كتاب «قمع الحرص بالزّهد والقناعة» والحمد لله، وهذا هو التوكّل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الرب، رزقنا الله إياه ولا أحالنا على أحدٍ سواه، بمنّه وكرمه»[1].

وذكر في كتاب «التذكرة» حديث عثمان بن مظعون الذي أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وفي آخره: «يا عثمان! لا ترغب عن سُنّتي فمَن رغب عن سُنّتي ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة» ثم قال:

«وقد ذكرناه بكماله في آخر كتاب: «قمع الحرص بالزهد والقناعة»»[2].

وذكر أيضاً المفاضلة بين الغنى والفقر، وذكر حديث الإمام البخاري «تعس عبد الدينار. . .»، ثم قال: «وقد كتبناه في كتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكسب والصناعة» وتكلّمنا عليه، وبيّناهُ، والحمد لله»[3].

وهذه أدلّة قاطعة في صحة نسبة الكتاب له، وقد نسبه له غير واحد من مترجميه، مثل ابن فرحون في «الديباج المذهب»[4]، والداودي في «طبقات المفسّرين»[5]، إلا أنه وقع عندهما هكذا: «قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة»! وكذا وقع في «هدية العارفين»[6] ووقع في «إيضاح المكنون»[7]: «. . . وردّ ذلّ السؤال بالكفّ والشفاعة»! وكذا في «معجم المؤلفين»[8]، وذكره

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٧/ ٤٣).
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الأخرة: (ص ٣٦٨ ـ ط السقّا).
(٣) المرجع السابق: (ص ٥٦٥).
(٤) ص ٣١٧.
(٥) ٢/ ٦٦.
(٦) ٢/ ١٢٩.
(٧) ٢/ ٢٤١.
(٨) ٨/ ٢٤٠.

الزركلي في «الأعلام»[1] مختصراً، والصواب ما قدّمناه عن المصنّف نفسه، فهو أدرى بعنوان كتابه.

وقد تبيّن لنا من خلال النقولات السابقة موضوع الكتاب ومحتواه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن للإمام الخرائطي ـ وإمامنا مَعْنِي بتصانيفه وكثير النقل منها ـ كتاباً بعنوان «قمع الحرص بالقناعة والصبر تحت حكمها بالطاعة»[2] ولا يبعد أن يكون أبو عبد الله القرطبي قد رآه واستفاد منه، واقتبس اسمه من مضمونه وعنوانه، والله أعلم.

* **منهج الإمام القرطبي فيه**

منهج الإمام القرطبي في هذا الكتاب هو أنه يقوم بإيراد الحديث والحديثين، مع عزوهما إلى مصادرهما، ثم يقوم بشرحهما من الناحية اللغوية، ثم ينقل في بعض الأحيان كلام أهل الحديث من رجال الجرح والتعديل في الحديث عن رجال السند.

ولكي ييسّر الإمام القرطبي مادته العلمية فقد أتحفنا بأبواب كاملة من شعر الصالحين والزهّاد، وأقوال أهل الصلاح من الصحابة والتابعين.

وفي كثيرٍ من الأحايين يصدّر الإمام القرطبي الباب بآيات قرآنية، ثم ينقل أقوال المفسّرين من كلام الصحابة وعلماء الأمة الثقات.

ولقد حدّد الإمام القرطبي في بداية الكتاب الغرض الذي حمله على تأليف هذا الكتاب، وهو الاختصار في الموضوع والسهولة، والوصول إلى منفعة المسلم فيما يقرّبه إلى ربّه، قال رحمه الله تعالى:

«... فرأيتُ أن أجمع في ذلك كتاباً يكون جامعاً، مهذباً، كتاباً مقرّباً، يزيد على معانيها[3]، ويُربي على ما فيها، جعلتُه أربعين باباً، في كل باب الحديث والحديثين والثلاثة، ثم عقّبتُ ذلك بالتفسير

(١) ٥/٣٢٢.

(٢) انظر: «مستفاد الرحلة والاغتراب» للتجيبي: (ص٣٦٩).

(٣) أي على الكتب التي أُلفت في هذا الموضوع قبله.

والتبيان، ليكمل فائدته، ويعظم منفعتُه»[1].

* نسخه الخطية ونموذج منه ومدحه

ويوجد في دار الكتب المصرية نبذة خطية في مسألةٍ منقولةٍ منه أولها: «هذه مسألة منقولة من كتاب «قمع الحرص بالزهد»» وهي نسخة بقلمٍ معتاد بخط عثمان بن أبي بكر، وهي في ثلاث ورقات ضمن مجموع، وتاريخ نسخها سنة (١١٠٨ هـ)[2]. والمسألة الموجودة فيه هي: «قبول هدايا السلاطين وجوائزهم» وقد ذكر في هذا الصدد أقوال العلماء، ثم انتهى إلى القول بجواز قبولها ما لم يعلم آخذُها أنّ مصدرَها حرام، وأورد أن الصّحابة والتابعين وأئمة الفتوى من المسلمين كانوا يقبلون الجوائز، وذكر من الآيات ما يدعم هذا الرأي، وقاس قبول هدايا السلاطين بمعاملة مَن كان في ماله شُبهة أو خالطه رِباً، ورأى أن الاختيار تركها ورعاً أو أنه ليس بمحرّم عليه ما لم يتيقن أن عينه حرام ومخرجه حرام[3].

وقد مدح ابن فرحون هذا الكتاب بقوله: «لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه»[4]، وذكر إسماعيل باشا البغدادي أن أوله: «الحمد لله العليّة كلمته، الوفيّة عدّته. . .» وذكر أنه رتّبه على أربعين باباً في التفسير والحديث[5]. ويوجد من هذا الكتاب نسختان كاملتان خطيّتان، إحداهما بمكتبة برلين، تحت رقم (٨٧٨٧)، وثانيتهما بمكتبة الفاتح بإستانبول تحت رقم (٢٧٣٧)[6].

---

(١) قمع الحرص بالزهد والقناعة: (١٥).

(٢) تحت رقم (٢١١٧٤ ب)، انظر: «فهرس المخطوطات، سنة ١٩٣٦-١٩٥٥»: (٢/٢٢٠).

(٣) قارن بـ «تفسير القرطبي»: (٢/١١٠) و(٣/٣٦١) و(١٧/١٧٧)، وكتابنا «المال الحرام وأحكامه» يسر الله إتمامه ونشره.

(٤) الديباج المذهب: (٣١٧) ونحوه في «طبقات المفسرين»: (٢/٦٦) للداودي.

(٥) إيضاح المكنون: (٢/٢٤١).

(٦) انظر: «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان: (١/٤١٥، ٧٣٧ - النسخة الألمانية).

ومنه نسخة خطية ثالثة كاملة في دار الكتب المصرية، تحت رمز مجاميع مصطفى فاضل، على ميكروفلم رقم (٥٣٣٩) المأخوذ عن الأصل المخطوط الموجود برقم (٢١٨)، وخطها رديء، وفي بعض الصفحات توجد بعد الكلمات المطموسة. وتتكوّن من (٧٤) ورقة، و(١٤٨) صفحة، في كل صفحة (١٩ سطراً).

وقد طبع فصلان من هذا الأصل في رسالتين مستقلّتين، الأولى بعنوان «الكفاف والقناعة» (من الباب الثالث والعشرين إلى الباب السابع والعشرين من الكتاب)، والأخرى بعنوان «الزهد» (من الباب الثامن والعشرين إلى الباب الموفي أربعين)، كلاهما بتحقيق مجدي السيد، عن مكتبة الصحابة، بطنطا، سنة ١٤٠٨ هـ. وأعاد طبعه كاملاً سنة ١٤٠٩ هـ، في (٢١٤ صفحة).

ـ الإعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام.

*** نسبته له**

ذكره له: رحمة الله الكيرانوي في كتابه «إظهار الحق»[١] واستفاد منه، والبغدادي في «هدية العارفين»[٢]، وبروكلمان في «تاريخ الأدب العربي»[٣].

*** نسخه الخطية ووصفها وبيان محتوياته**

يوجد منه نسختان خطيّتان بمكتبة «كوبرلي» بتركيا[٤].

---

(١) راجع: (٢/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧).
(٢) ٢/ ١٢٩.
(٣) ١/ ٧٣٨ النسخة الألمانية.
(٤) انظر: «فهرس مخطوطات مكتبة كوبرلي» (١/ ٣٨٧، ٣٩٥).

الأولى برقم (٧٩٤)، وهي بخط نسخ، في مجموعة من (١ - ١٠٨/ب) بمقياس (١٧,٥ × ٢٦,٥) سم، ومسطرتها ٢٩ سطراً، وناسخها علي بن محمد بن عبد الله الفيّومي نسباً، والشافعي مذهباً، وتمّ نسخها في سابع عشرين شهر ربيع الأول، سنة تسع وسبعين وثمانِ مائة، وفي أولها قيد تملّك لأحمد بن مصطفى المنشوي، وقيد تملّك آخر لقطب بن علاء الدين الحنفي، شراء علي بن أحمد بن داود في شوّال سنة ٩٧٥ هـ.

والثانية: برقم (٨١٤)، وهي بخط تعليق، في (١٤٩) ورقة، بقياس (١٤,٣ × ٢٢,٤) سم، ومسطرتها ٢٥ سطراً، وناسخها محمد الحنفي الشهير بالقطب المصري، ووقع الفراغ من تسويدها في يوم الخميس سلخ رجب سنة ١٠٨٧.

ومنه نسخة ثالثة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، مصوّرة عن الخزانة العامّة بالرباط، كما في «فهرس المخطوطات العربية المصوّرة»[١] وجاء فيه تعريف بالكتاب على النحو الآتي:

«حاول فيه المؤلّف ردّ الشبهات عن الإسلام التي أثارها أحد النصارى في كتاب تثليث الوحدانية، ولم يقف المؤلف عند هذا الحدّ، بل تجاوزه إلى بيان مثالب النصرانية».

وهي بخط مغربي واضح، تقع في (٢٩٢) صفحة من القطع الكبير، وناسخها محمد بن أبي أحمد بن موسى بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن مغيرة بن شرحبيل، وكان الفراغ منها أواخر يوم الخميس شهر جمادى الأولى سنة اثنين وأربعين ومئة وألف بجزيرة جربة.

---

(١) ١/٢٣، وهو موجود على شريط رقم (٦٥٩).

أوّل الكتاب: «الحمد لله الذي مَنَّ على عباده وعلينا بتوحيده، وجعلنا من أفضل عبيده».

قلت: وقد رأيت الكتاب مطبوعاً بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقّا، عن دار التراث العربي، بمصر، دون تاريخ.

* كتابان نُسِبا خطأً للإمام القرطبي

ذكر الأستاذ عبد الجبّار عبد الرحمن في كتابه «ذخائر التراث العربي الإسلامي»[1] ضمن كتب الإمام القرطبي المفسّر المطبوعة:

- الإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف.

- أقضية رسول الله ﷺ.

وذكر الكتاب الثاني للقرطبي بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي»[2] وأشار إلى أن له نسخة خطية في «مكتبة آصيفيا» تحت رقم (٢٢٥ ـ من الحديث) بحيدر آباد في الهند، معتمداً على «فهارسها»: (٦٥٨/١)!!.

قلت: والصحيح أن الكتابين المذكورين ليسا لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي، فالأول ليوسف بن عبد الله القرطبي، المعروف بـ «ابن عبد البر» المتوفّى سنة (٤٦٣ هـ)، وهو مطبوع متداول، ذكر فيه اختلاف العلماء في قراءة البسملة في الصّلاة، وفي كونها آية من القرآن، ومن الفاتحة، وقد نسبه لابن عبد البرّ جماعة، منهم: صاحب «كشف الظنون»[3] وغيره كثير.

---

(١) ٧٥٩/٢.

(٢) وكذا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في «التعليقات الحافلة على الأجوبة الفاضلة»: (٧٣)!!.

(٣) ١٨٢/١ وذكر الأستاذ عبد الجبار نفسه في «ذخائر التراث»: (١٦٨/١) الكتاب نفسه مرة أخرى على أنه لابن عبد البرّ على الجادة.

أما الكتاب الثاني فقد ذكره صاحب «كشف الظنون»[1] فقال:

«وللشيخ أبي عبد الله محمد بن فرج المالكي «كان في حدود سنة ٥٥٠» كتاب في أقضية الرسول ﷺ».

قلت: صاحب هذا الكتاب هو الشيخ الإمام، العلاّمة أبو عبد الله محمد بن الفرج القرطبي المالكي، مولى محمد بن يحيـىٰ بن الطّلاع، المتوفّى سنة سبع وتسعين وأربع مئة[2].

والكتاب مطبوع متداول، طبع لأول مرة في مصر سنة (١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م) في (١٢٨ صفحة) عن دار إحياء الكتب المصرية، ثم في دار الكتاب اللبناني في بيروت، سنة (١٩٧٨ م) بتحقيق وتعليق محمد ضياء الرحمن الأعظمي، وفي السنة نفسها في القاهرة عن دار الكتاب المصري، ثم حقّقه الدكتور محمد عبد الشكور في رسالته للدكتـوراة سنة (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) وطبع في مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد - الدكن، واعتمد على طبعته الأولى - وبيّن أنها مملوءة بأخطاء كثيرة -، وعلى نسختين خطيّتين[3].

*** المجموعة الثانية: الكتب المخطوطة والمفقودة**

خصّصت هذه المجموعة لكتب الإمام القرطبي التي لم تُطبَع بعد، وبعضها لم أعثر عليه في فهارس المخطوطات، ولم أرَها منسوبة إليه عند أحد من مُترجِميه، ولكن الإمام القرطبي قد نسبها لنفسه وأشار إليها في «تفسيره» أو في «التذكرة» وبذلك تكون قد ثبتت نسبتها وتحقّقت، والحمد لله لا ربّ سواه.

---

(١) ١/١٣٧.

(٢) انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء»: (١٩/١٩٩) و«الأعلام»: (٦/٣٢٨).

(٣) انظر: «أقضية رسول الله ﷺ» مقدمة المحقق، (ص ٤).

ـ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

*** نسبته له وبيان محتواه**

أحال عليه الإمام القرطبي كثيراً في «تفسيره»[1] ومرتين في «التذكرة»[2] ومرتين في «التذكار»[3]. ومن خلال تتبّع الإحالات تبيّن لي أن الإمام القرطبي تناول في هذا الكتاب أسماء الله وصفاته بالشرح والبيان على مذهب أهل السنّة، ويورد كثيراً من الحجج التي تتبنّاها الفِرَق الأخرى، ويردّ عليها.

وعرّفه حاجي خليفة بقوله:

«ذكر في أوّله واحداً وأربعين فصلاً في ذكر ما يتعلّق بها من الأحكام، وذكر بعد تمام شرح أسماء الله الحسنى أربعة أجزاء ردّ على المجسّمة وأصحاب التشبيه. . . وهذا الشرح كبير ومفيد»[4].

ووقفتُ على تعريف شاملٍ جامعٍ به من خلال كلام صاحبه رحمه الله تعالى، قال: «جاء في «كتاب الترمذي» و«سنن ابن ماجه» وغيرهما حديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نص فيه أن لله تسعة وتسعين اسماً، في أحدهما ما ليس في الآخر. وقد بيّنا ذلك في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». قال ابن عطية: ـ وذكر حديث الترمذي ـ وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح،

---

(١) انظر المواطن التالية منه: (١/٥٦، ٣٢٦ و٢/١٩١، ٢٤١ و٣/٢٤٣، ٣٢٨، ٣٢٩ و٤/٣٩، ٩٩، ٢١٣ و٦/٢١٠، ٣٨٦و ٧/٢١٩، ٣٢٥، ٣٢٦ و٨/٣٢٨ و٩/٧١، ٩٠، ٢٧٠، ٢٨٣ و١٠/١١٣، ٣٤٣ و١٤/٨٦ و١٥/٩٦، ٢٢٦، ٢٩٩ و١٦/٨ ـ ٩، ١٧ و١٧/١٩، ١٦٥، ٢٢٠، ٢٣٦ و١٨/٤٨ و١٩/٣١، ٢٩٧ و٢٠/٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) ص ٣٢٩، ٥٢٢.

(٣) ص ٢١.

(٤) كشف الظنون: (٢/١٥).

وهو ثقة عند أهل الحديث: وإنما المتواتر منه قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة» ومعنى (أحصاها): عدّها وحفِظها. وقيل غير ذلك مما بيّناهُ في كتابنا. وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذي[1]، وذكرنا من الأسماء ما اجتُمع عليه وما اختُلف فيه مما وقفنا عليه في كتب أئمتنا ما يُنيِّف على مئتي اسم. وذكرنا قبل تعيينها في مقدمة الكتاب اثنتين وثلاثين فصلاً فيما يتعلق بأحكامها، فمن أراده وقف عليه هناك وفي غيره من الكتب الموضوعة في هذا الباب، والله الموفق للصواب، لا رب سواه»[2].

وقد ذكره له جماعة، منهم: ابن القيّم في «اجتماع الجيوش الإسلامية»[3]، و«مختصر الصواعق المرسلة»[4]، وابن حجر في «فتح الباري»[5]، وابن فرحون في «الديباج المذهب»[6]، والمَقَّري في «نفح الطيب»[7] . وقال: «في مجلدين»، والصفدي في «الوافي بالوفيات»[8] ، والداودي في «طبقات المفسّرين»[9] ، ومخلوف في «شجرة النور الزكيّة»[10]، والبغدادي في «هدية العارفين»[11]، والزركلي في «الأعلام»،[12]، وعمر كحّالة في «معجم المؤلفين»[13].

---

(١) الصواب عدم صحته، كما بيّنته بإسهاب طويل في تعليقي على «جزء أبي نُعيم الأصبهاني في طرق حديث إن لله تسعة وتسعين اسماً» وهذا رأي الحافظ ابن حجر العسقلاني في «أماليه على الأذكار» وقد نازع ابن عطية أيضاً في دعوى تواتر الحديث المذكور، فتنبه لذاك تولى الله هداك.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٧/٣٢٥).

(٣) ص ٥٨، ١١٠.

(٤) ٢/٣٢٥.

(٥) ٩/٥٢٨.

(٦) ص ٣١٧ ـ الملحق، بالألمانية.

(٧) ٢/٤٠٩.

(٨) ٢/١٢٢.

(٩) ٢/٦٦.

(١٠) ص ١٩٧.

(١١) ٢/١٢٩.

(١٢) ٥/٣٢٢.

(١٣) ٨/٢٤٠.

* نســـخه الخطية

وقال الدكتور القصبي محمود زلط: «لم أعثر عليه» [1].

قلت: منه نسخة خطية في مكتبة عارف حكمت.

ـ الإعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام.

* نســـبته له

لم أره منسوباً عند أحد ممّن ترجم له، لكنه ذكره في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» في موطنين[2]: في تفسير سورة الصافّات عند قوله تعالى: ﴿وفديناه بذبحٍ عظيم﴾[3]، وفي تفسير سورة صّ عند قوله تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أُولي الأيدي والأبصار﴾[4].

* نسخــه الخطية

ويوجد منه نسخة خطية في «مكتبة طوب قاي» بإستانبول. كما في «مجلة المورد» [5].

ـ الانتهاز في قراءة أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز.

* نســـبته له

لم يذكره أحد ممّن ترجم له، وذكره القرطبي عندما تحدّث عن ترك البسملة في سورة «براءة» فقال:

«وللعلماء في ترك البسملة في سورة (براءة) خمسة أقوال، ذكرناها في كتاب «جامع أحكام القرآن والمبيّن لما تضمن من السُنّة وآي الفرقان» وذكرناها أيضاً في كتاب «الانتهاز في قراءة أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز»»[6].

---

(١) القرطبي ومنهجه في التفسير: (ص ٤٧).
(٢) ١٥/١١٣، ٢١٧.
(٣) سورة الصّافّات: آية (١٠٧).
(٤) سورة صّ: آية (٤٥).
(٥) م ٤ ع ٤ ص ٢٧٨.
(٦) التذكار في أفضل الأذكار: (ص ٢٩).

ـ أرجوزة (جمع فيها أسماء النبيّ ﷺ وشرحها).

* نسبتها له وموضوعها

ذكرها له ابن فرحون في «الديباج المذهب»[1]، والداودي في «طبقات المفسرين»[2]، ومخلوف في «شجرة النور الزكيّة»[3].

وقال حاجي خليفة:

«أُرجوزة في أسماء النبيّ ﷺ لأبي عبد الله القرطبي، ثم شرحها، فذكر فيها ما زاد على الثلاث مئة، والأُرجوزة ـ بضم الهمزة ـ أُفعولة من الرجز وهو البحر المشهور في العروض»[4].

وشرحها أيضاً الشيخ أبو الحسن علي بن محمد القرشي الشهير بـ «القلصاوي» كما قال السخاوي[5].

ـ منهج العباد ومحجّة السالكين والزهّاد.

* نسبته له

لم يذكره أحد ممّن ترجم له، وذكره القرطبي في «تفسيره» في معرض الكلام على المفاضلة بين الفقير والغني. واستدلال بعضهم بقوله تعالى عن أيوب ﴿ إنّا وجدناه صابراً نِعمَ العبد إنه أوّاب ﴾[6] على تفضيل الأول على الثاني، ثم ردّه القرطبي، وقال: «وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «منهج العباد ومحجّة السالكين والزهّاد»»[7].

ـ المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس.

* نسبته له

لم يذكره أحد ممّن ترجم له، وذكره المصنّف في مواطن عديدة

---

(١) ص ٣١٧.
(٢) ٢/ ٦٦.
(٣) ص ١٩٧.
(٤) ١/ ٦٢.
(٥) كلام إحسان عباس على «نفح الطيب»: (٢/ ٦٩٣).
(٦) سورة صٓ: آية (٤٤).
(٧) تفسير القرطبي (١٥/ ٢١٦).

من «تفسيره»، فقال عند مسألة حكم الجلوس والتشهّد والسلام في الصلاة أن بعضهم قال: إن ذلك كله سُنّة وليس بواجب، ثم ذكر معتدّهم وهو حديث: «إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدة في صلاته ثم أحدث فقد تمّت صلاته». ثم قال القرطبي رحمه الله: «وهو حديث لا يصحّ على ما قاله أبو عمر، وقد بيّناهُ في كتاب «المقتبس» وهذا اللفظ إنما يُسقط السلام لا الجلوس»[1].

وذكر عند حديث «رُخّص للرُّعاء أن يرموا بالليل» أن الدارقطني أخرجه مسنداً، ثم قال: «وقد ذكرناه في: المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس»[2]. وذكر مسألة أقلّ الحيض وأكثره وأقلّ الطهر فقال: «وقد أتينا على ما للعلماء في هذا الباب في: المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس»[3]. وذكر خلاف العلماء في تعيين الصلاة الوسطى، ثم قال: «وقد أتينا زيادة على هذا في: المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس»[4]. وذكر أقوال أهل العلم في تنفيل الإمام القوم ما أصابوا، وقال: «وقيل غير ذلك مما قد أتينا عليه في كتاب: المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس»[5].

وذكر مصير أولاد المشركين، وقال: «وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب «التذكرة» وذكرنا في كتاب «المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس» ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله»[6]. وذكر مسألة طلاق الثلاث بكلمة واحدة، وقال: «وقد ذكرناه في كتاب: المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس»[7].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ١٧٣).
(٢) المرجع نفسه: (٣/ ٩).
(٣) المرجع نفسه: (٣/ ٨٤).
(٤) المرجع نفسه: (٣/ ٢١٠).
(٥) المرجع نفسه: (٨/ ٣).
(٦) المرجع نفسه: (١٤/ ٣٠).
(٧) المرجع نفسه: (١٨/ ١٥٢).

* **ملاحظات ونتائج**

والمتمعّن في هذه النصوص، يستفيد ما يلي:

أولاً: **ألّف الإمام القرطبي كتابه هذا قبل كتاب التفسير إذ أحال عليه.**

ثانياً: استفاد الإمام القرطبي في كتابه هذا من شرح ابن عبد البرّ على الموطأ، المسمّى بـ«التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد».

ثالثاً: لم يقتصر في شرحه على المذهب المالكي وإنما استقصى المذاهب وأقوال العلماء.

رابعاً، وأخيراً... هل شرحه هذا هو «شرح التقصّي» مختصر التمهيد؟

- و«التقصّي»: كتاب اختصره ابن عبد البرّ نفسه من كتابه «التمهيد» وطبع بعنوان: «التجريد» أم أن شرحه هذا هو «التقريب لكتاب التمهيد»؟ وهل «المقتبس» و«التقريب» و«شرح التقصّي» ثلاثة كتب أم كتابان؟ أم مسمّيات لكتابٍ واحدٍ؟

الظاهر الأخير، إذ لم أرَ مَن جمع نسبة هذه الكتب أو كتابين منها له، فذكر كارل بروكلمان[1] عند حديثه عن «التمهيد» أن الإمام القرطبي اختصره، وذكر أن له نسخة في مكتبة القرويين بفاس، وذكر الزركلي[2] في ترجمة (القرطبي) أن له: «التقريب لكتاب التمهيد» وقال: «في مجلدين ضخمين، في خزانة القرويين بفاس، الرقم (١١٧/٨٠)». وألمع القرطبي عند ذكره كتاب «المقتبس» في مسألة (مصير أولاد المشركين) أنه ذكر كلام أبي عمر - أي ابن عبد البر - فيها، وهذا يقوّي ما ذكرناه.

ويؤيّد ما ذهبنا إليه: ما علّقه بعض نسّاخ «الذيل والصلة» فكتبوا في هامشه عند ترجمة الإمام القرطبي:

---

(١) في «تاريخ الأدب العربي»: (٢٧٦/٣ - ٢٧٧) ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.
(٢) ٣٢٢/٥.

«واختصر التمهيد، وزاد زيادات مناسبة، وتكلّم على الآثار في خمسة أسفار»[1].

- شرح التقصّي.

* نســـبته له

ذكر «شرح التقصّي» للإمام القرطبي جماعة، منهم:

المقري في «نفح الطيب»[2]، والداودي في «طبقات المفسّرين»[3]، وابن فرحون في «الديباج المذهب»[4]، والبغدادي في «هدية العارفين»[5].

وأشرنا فيما مضى إلى ترجيح احتمال كون هذا الكتاب والكتاب السابق كتاباً واحداً، وإذا كان هذا الاحتمال صحيحاً فتكون ـ كما قلنا ـ له نسخة خطيّة في مكتبة القرويين بفاس، وإلّا فنردّدُ مع الدكتور القصبي محمود زلط: «لم نعثر على هذا الكتاب»[6].

- اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبويّة.

* نســـبته له

لم يذكره أحد ممّن ترجم له، وورد له ذكر مرتين في «التفسير»:

الأولى: عند ذكره حديث جابر الذي في «صحيح مسلم»: «إني لأعرف حجراً بمكّة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعث، إنّي لأعرفه الآن» فقال: «قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وقد أتينا على جملة منها في «اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية» للفاداري رحمه الله»[7].

---

(١) الذيل والصلة: (٥/٥٨٥ ـ الهامش).
(٢) ٢/٤٠٩.
(٣) ٢/٦٦.
(٤) ص ٣١٧.
(٥) ٢/١٢٩.
(٦) القرطبي ومنهجه في التفسير: (ص ٤٧).
(٧) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/٢٦٨).

والأخرى: في كلامه على تُبَّع، عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿أهم خير أم قوم تُبَّعٍ والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾[1] وسرد شيئاً من أخباره ثم قال: «وقد ذكرنا بقيّة خبره وأوّله في «اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية» للفارابي رحمه الله»[2].

وقد اضطربت الأصول ـ ما لم يقع تصحيف من الطّابع ـ في اسم مؤلّف أصل الكتاب «العشرينات النبوية» فنُسِبَ مرة للفاداري، ومرة للفارابي!.

قال محقّق «التفسير» أحمد عبد العليم البردوني: «لم نعثر عليه»[3].

*** كتابان آخران انفرد بهما بروكلمان**

وذكر كارل بروكلمان كتابين انفرد بهما، ولم أرَهما منسوبين للإمام القرطبي عند غيره، هما:

ـ **المصباح في الجمع بين الأفعال والصحاح**، وهو كتاب لغوي، وقال: اختصر فيه القرطبي كتاب «الأفعال» لأبي القاسم علي بن جعفر بن القطاع المتوفّى سنة (٥١٥ هـ)، وكتاب «الصحاح» للجوهري المتوفّى سنة (٣٩٣ هـ). وذكر أن له نسخة خطيّة في «مكتبة بريل» بليدن في هولندا، تحت رقم (٢٨٣)[4].

ـ **رسالة في ألقاب الحديث**.

وذكر أن له نسخة خطيّة في «مكتبة الجزائر» تحت رقم (٣٧٧).

---

(١) سورة الدخان: آية رقم (٣٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٦/١٤٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٦/١٤٦ الهامش).

(٤) في «تاريخ الأدب العربي»: (١/٧٣٧) النسخة الألمانية، ولم أتمكن من الاطلاع عليه في زيارتي لمدينة (ليدن) بهولندا في رمضان سنة ١٤١٢ هـ، ويغلب على ظني أن مؤلّفه غير أبي عبد الله المَغْنِيِّ بالترجمة، وإنما قرطبي آخر، والله أعلم.

* كتاب آخر

وذكر له في «فهرس المخطوطات العربية المصوّرة»[1] كتاب «أعلام النبوّة»، وفيه: «يتناول الكتاب مناظرة بين المؤلّف وملحد، والمناظرة تتعلق بالنبوّة وأمرها وإثباتها».

ومنه نسخة خطية في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، مصوّرة من Universtats Bibliothek Fubingen Handschrist، وخطّه واضح، ويقع في (٣٥٢) صفحة من القطع الكبير، أوّله: «فصل فيما جرى بيني وبين الملحد أنه ناظرني في أمر النبوّة».

وقد اطّلعتُ عليه وأستبعد صحة نسبته إليه، فإن أسلوبه مغاير لأسلوب الإمام القرطبي، والله أعلم.

خـــاتمة

هذه هي الكتب التي وقفت على أسمائها للإمام القرطبي، لم أرها مجموعة عند واحد ممّن ترجم له، فكان مُترجِموه يذكرون بعض كتبه، ثم يقولون: «وله تآليف وتعاليق مفيدة غير هذه»[2]، أو: «وله تآليف وتعاليق مفيدة في غير ما ذُكِر»[3]، أو: «وأشياء تدلّ على إمامته، وكثرة اطّلاعه»[4]، أو: «غير ذلك»[5]، ويعود هذا الاستقصاء والإسهاب إلى أنني لم أطّلع على كتاب مطبوع قد اهتمّ بمؤلّفات الإمام ذي المكانة العلمية الفريدة، اهتماماً يليق به، وبمرتبته المنيفة، ولعلّ لإمامنا كتباً غير هذه، لم تبيّنها كتب التراجم والبرامج والأثبات.

---

(١) ١/٢٣، وهو موجود على شريط رقم (٦٣٧).

(٢) الديباج المذهب: (ص ٣١٧) ونفح الطيب: (٢/٤٠٩) و«طبقات المفسرين»: (٢/٦٦) للداودي.

(٣) شجرة النور الزكية: (ص ١٩٧).

(٤) الوافي بالوفيات: (٢/١٢٢).

(٥) هدية العارفين: (٢/١٢٩).

ومما سبق يتبيّن لنا ما للإمام القرطبيِّ من قدرة فائقة في علوم العربية والإسلام، ذلك أنه لم يكن يترك فنّاً من فنونهما إلاّ وأسهم فيه بحظٍّ وافر، «وسيظل القرطبي بما قدّم للمكتبة العربية الإسلامية عَلَماً من أعلام القرن السابع الهجري الذين كرّسوا حياتهم لخدمة القرآن الكريم، والسُنّة النبوية الشريفة، وعلوم العربية على إطلاقها وكثرتها، رحمه الله تعالى، وأجزل مثوبته»[1].

---

(١) القرطبي المفسر (ص ٩٤).

الفَصْل السَادِسْ

تَحليلُ شَخصِيَّةِ القُرطبيِّ العِلْمِيَّة

*** مكـــــانته**

كما أثنى المؤرّخون على الإمام القرطبي من النّاحية الأخلاقية، أثنوا عليه من جهة ثقافته وعلومه، قال فيه ابن شاكر الكتبي:

«كان شيخاً فاضلاً، وله تصانيف مفيدة، تدلّ على كثرة اطّلاعه، ووفور علمه»[1]. وقد انتصر له بعض تلامذته، لما اعتبره نيلاً في ترجمة الكتبي عنه، وإنقاصاً من قدره، فقال: «قد أجحف المصنّف في ترجمته جدّاً، وكان متفنّناً متبحِّراً في العلم»[2]، وقال بعض تلاميذه على إثْر هذا الكلام ما نصّه: «قال الذهبي: رحل وكتب وسمع، وكان يقظاً، فهماً، حسن الحفظ، مليحَ النَّظم، حَسَن المذاكرة، ثقة، حافظاً»[3]، وقال آخر إثر ذلك الكلام ما نصّه: «مشاحة شيخنا للمصنّف في هذه العبارة ما لها فائدة، فإن الذهبي قال في «تاريخ الإسلام»: العلاّمة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح، الإمام، القرطبي، إمام متفنّن، متبحّر في العلم، له تصانيف مفيدة، تدلّ على كثرة اطّلاعه ووفور عقله وفضله. ثم ذكر موته، وقال بعده: وقد سارت بتفسيره العظيم الشّأن الركبانُ، وله «الأسنى في شرح الأسماء الحُسنى» و«التذكرة»، وأشياء تدلّ على إمامته وذكائه، وكثرة

---

(١) عيون التواريخ: (٢١/ ٢٧) وعنه المقري في «نفح الطيب»: (٢/ ٤١٠).
(٢) نفح الطيب: (٢/ ٤١٠). (٣) المصدر نفسه.

اطّلاعه»[1]، وقال آخر إثْر هذا الكلام ما نصّه «غفر الله لك! إذا كان الذهبي ترجمه بما ذكرت، وهو والله فوق ذلك، فكيف تقول: إن مشاحة شيخك لا فائدة فيها، وتسيء الأدب معه، وتقول إن كلامه لا فائدة فيه؟ فالله يستر عليك!!»[2].

ووصفه الصفدي بقوله: «إمام متفنّن، متبحّر في العلم»[3]. وأما ابن العماد الحنبلي فقال: «كان إماماً عَلَماً من الغوّاصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيّد النقل»[4]، وقال المراكشي: «كان من أهل العلم بالحديث والاعتناء التام بروايته»[5].

وهكذا تضافرت أقوالُ المؤرّخين على بيان مكانته العلمية، ولم نلحظ أنّ واحداً ممّن كتب عنه قد غمزه، أو عابه، ولعلّ أهم الدلائل، وأصدق الشواهد على مكانته الرفيعة في العلم ما نجده في ثنايا هذا المبحث.

ومن أهم مميزات شخصية الإمام القرطبي العلمية ما يلي:

*** أمـــــانته**

إن الإمام القرطبي رحمه الله تعالى كان يلتزم الأصول العلمية، ويتّبع أساليب العلماء الفضلاء الذين لا يعنيهم إلّا أن يثبتوا الفضل لأهله، ولا يهمّهم أن ينسبوا إلى أنفسهم ما ليس لهم، وهذه هي الأمانة العلمية التي يعمل علماء العالم الآن على تأصيلها، وتثبيت قيمها، واتخاذ أساليب لتنفيذها، ولا أتصور أنها تخرج عمّا ارتضاهُ الإمام القرطبي لنفسه حين كتب «تفسيره»، قال:

---

(١) المصدر نفسه، ونحوه في «طبقات المفسرين»: (٧٩) للسيوطي و«طبقات المفسرين»: (٢/٦٦) للداودي.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الوافي بالوفيات: (٢/١٢٢).
(٤) شذرات الذهب: (٥/٣٣٥).
(٥) الذيل والصلة: (٥/٥٨٥).

«وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنّفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف إلى قائله»[1].

وقال في مقدمة كتابه «التذكرة»:

«. . . نقلتُه من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسب ما رأيتُه رويتُه»[2].

*** اجتهاده وكثرة قراءته ومطالعته**

ذكر غيرُ واحدٍ من مؤرّخي حياة الإمام القرطبي أن أوقاته كانت معمورة بين توجّه وعبادة وتصنيف، وهذا شأن العلماء، وسمة العارفين الفضلاء، ومنشأ هذه الميزة في شخصيته العلمية هي جدّيته في الحياة ومضاء عزيمته فيها، كما قدّمنا فيما مضى.

ويلمس القارىء لكتب إمامنا رحمه الله تعالى أنه كان كثير المطالعة، مُجِدّاً في التحصيل، كثير البحث عمّا يشكل، وسبق أن عرضنا له ـ في مسألة غسل والده؛ والصلاة عليه بعد أن قتل في غارةٍ مفاجئة ـ، إذ تبيّن له وجه الصواب فيها بعد فترة طويلة من الزّمن، نتيجة قراءته لكتاب «التبصرة» لأبي الحسن اللخمي.

وكان يحبّ الكتب حبّاً جمّاً ويحرص حرصاً شديداً على جمعها وتملّكها، حتى لقد تجمّع لديه منها مجموعات كثيرة منوّعة؛ ولو أن باحثاً قام بجمع موارده في «التفسير» فقط، لتجمَّع لديه الشيء الكثير، والعجب العجاب، من آثار المشرقيين والمغربيين معاً؛ وإليك أمثلة على حبّه للكتب وشغفه بالمطالعة، من كتابه «التذكرة» فقط؛ قال رحمه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/٣)؛ وانظر: «القرطبي المفسر»: (٧٣ ـ ٧٤)، ومقولة: «من بركة العلم. . .» أسندها غير واحد إلى أبي عبيد القاسم بن سلاّم رحمه الله تعالى.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٩).

الله تعالى: «وقال الراجز: إذا المسيح قتل المسيحا، يعني: عيسى ابن مريم عليه السلام، ويقتل الدجّال بنبزك: قرأتُه في المجلد الأول من «شرح ألفاظ الغريب من الصحيح» لمحمد بن إسماعيل، تأليف الفقيه القاضي الإمام المفتي أبي الأصبغ بن سهل»[1] وقال:

«وكنتُ بالأندلس قد قرأتُ أكثر كتب المقرىء الفاضل أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان توفّي سنة أربعٍ وأربعين وأربع مئة»[2].

وهذا النص يدلّنا على ولعه بالقراءة والكتب منذ نعومة أظفاره، إذ صرّح بأنه قرأ أكثر كتب العالم المذكور وهو في الأندلس بعد.

وقال بعد حديث: «كذا ذكره الفقيه ابن برجان في كتاب «الإرشاد» له، ومنه نقلتُهُ»[3]، وقال أيضاً بعد كلام طويل: «نقلتُ هذا من كتاب «مَرَج البحرين في فوائد المشرقين والمغربين» للحافظ أبي الخطّاب بن دحية رضي الله عنه»[4]، وقال: «وقال فقهاء الإسلام فيما حكاه الإمام عبد القاهر في كتاب «الإمامة» من تأليفه...»[5] وقال: «وقال الإمام أبو منصور التيمي البغدادي في كتابه «الفرق» من تأليفه»[6] وقال: «وذكر أبو حفص عمر بن عبد المجيد القرشي الميانشي في كتاب «الاختبار في الملح من الأخبار والآثار»...»[7].

وقد كان صاحبنا رحمه الله تعالىٰ مولعاً بكتب حافظ المغرب ابن عبد البر والفقيه العلّامة المالكي ابن العربي، فأكثر النقل من كتبهما، ولا سيما «التمهيد» للأول، و«أحكام القرآن» للثاني، وهذا يدلّنا على مدى تأثّره بهما، إذ اجتمع معهما في صفات علمية كثيرة، من أهمها:

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧٩٧).
(٢) المصدر السابق: (٧١٧).
(٣) المصدر السابق: (٦٩٣).
(٤) المصدر السابق: (٦٦٩).
(٥) المصدر السابق: (٦٤٤).
(٦) المصدر السابق: (٦٤٤).
(٧) المصدر السابق: (٥٥٣).

الجمع بين علمي الحديث والفقه، واللجوء إلى سرد المذاهب والآراء في المسألة، والترجيح بينها، مع كونهم جميعاً من علماء المالكية.

ويظهر مدى تأثّر القرطبي بابن عبد البرّ في اعتماده على كلامه في مسألة استواء الله سبحانه على العرش، وردّه على مجموعةٍ من القضاة الذين أنكروا ذلك.

ولعلّه حصّل تلك الكتب وجَمَعَها عن طريق الشراء بالمال، أو النسخ والاستنساخ، ولعلّ سبب إقامته بقرطبة ورحيله عنه ورحلته الطويلة في المشرق الإسلامي أتاحت له الحصول على أكبر عدد منوّع من الكتب، وكان تردادُهُ على مشايخه ـ ولا سيما الحفّاظ منهم، المولعون بالكتب ورواياتها ـ سبباً أيضاً للتعرّف على كثير من الكتب، والاستفادة منها، عن إحدى الطريقين المذكورين، ويؤيّد هذا ما قاله القرطبي نفسه رحمه الله تعالى: «ورأيتُ بخطّ الفقيه الإمام المحدّث أبي الحسن علي بن خلق الكومي أبي شيخنا أبي القاسم عبد الله حدّث حديثاً عليه سماعُ جماعةٍ على أبي الفرج محمد بن أبي حاتم...»[1].

* إنصافه وعدم تعصّبه

لم يتعصّب القرطبي لمذهب الإمام مالك فيرجّحه وإنْ ضعفت حجّته، ولكنه كان يرجّح غيره من المذاهب، إذا رأى الحقّ بجانبه، ويخرج على المذهب المالكي، ويعلن معارضته له، كما لم يلتوِ القرطبي في عرض حجة الخصم، أو يأتي بها مبتورةً مهلهلةً، بل كان يعرضها بدقّةٍ وأمانةٍ، وكان يضفي عليها كثيراً من الشّرح والتّوضيح[2].

قال محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى: «وخير ما في الرجل ـ أي: القرطبي ـ أنه لا يتعصّب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدّليل حتى

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٥٤٥).

(٢) القرطبي ومنهجه في التفسير: (٣٤٤).

يصل إلى ما يرى أنه الصَّواب، أيّاً كان قائله»[1].

وكان لإنصافه وعدم تعصّبه أسباب كثيرة، من أهمها:

١ - اجتهاده ورفضه التقليد الأعمى.

كان منهجُ الإمام القرطبي نهجاً موفَّقاً سديداً، أوصله إلى طريق العلماء الذين تفرّدوا في عصورهم بما قدّموا من خدمةٍ للعلم والدّين، ولا يصل إلى هذا الطريق إلاّ عالمٌ اتخذ الاجتهاد وسيلةً، مثل إمامنا الذي تناول قضايا الأحكام وأبدى رأيه في مسائلها، ولو انتهى إلى عدم موافقته مذهبه المالكي، ولم يكن - رحمه الله تعالى - يقبل التقليد، لأن «التقليد ليس طريقاً للعلم ولا مُوصِّلاً إليه، لا في الأصول ولا في الفروع؛ وهو قول جمهور العقلاء والعلماء»[2] على حدّ تعبيره، وهو يرى «منعَ التَّقليد لعالمٍ إلاّ بحجّة يبيّنها، لأنّ الله تعالى أخبر أنه أعطى بعضهم آياته، فانسلخ منها، فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره، وألاّ يقبل منه إلا بحجّة»[3]. وذكر أن أهل الزَّيغ قد أكثروا القولَ على مَنْ تمسَّك بالكتاب والسُنّة أنهم مقلِّدون! وقال رادّاً عليهم:

«وهذا خطأ منهم، بل هو بهم ألْيَق، وبمذاهبهم أَخْلَق، إذ قبلوا قول ساداتهم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب الله وسُنّة رسوله وإجماع الصحابة رضي الله عنهم؛ فكانوا داخلين فيمَن ذَمَّهم الله بقوله: ﴿ رَبَّنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا. . . ﴾[4]، وقوله: ﴿ إنّا وجدنا آباءَنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾[5]، ثم قال لنبيّه: ﴿ قال أَوَلـو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أُرسلتم به كافرون ﴾[6]، ثم

---

(١) التفسير والمفسرون: (٢/ ٤٥٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٢/ ٢١٢).
(٣) المصدر السابق: (٧/ ٣٢٣).
(٤) سورة الأحزاب: آية (٦٧).
(٥) سورة الزخرف: آية (٢٣).
(٦) سورة الزخرف: آية (٢٤).

قال لنبيّه عليه السلام: ﴿فانتقمنا منهم﴾[1]، فبيَّن تعالى أنّ الهدى فيما جاءت به رسله عليهم السلام. وليس قول أهل الأثر في عقائدهم: إنّا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسُّنّة وإجماع السلف الصالح من الأمّة، من قولهم: إنّا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكُبراءنا بسبيل، لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل وإلى متابعة الرسول، وأولئك نسبوا إفْكَهم إلى أهل الأباطيل، فازدادوا بذلك في التضليل»[2].

بيد أن إمامنا القرطبي يرى أنّ العامّي لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها، لعدم أهليّته في ذلك، وأن عليه أن يقصد أعلم مَنْ في زمانه وبلده فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها بفتواه، لقوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[3]، وعليه الاجتهاد في أعلم أهل وقته بالبحث عنه، حتى يقع عليه الاتّفاق من الأكثر من الناس. وعلى العالم كذلك أن يقلّد عالماً مثله في نازلةٍ خفي عليه فيها وجه الدّليل والنّظر، وأراد أن يجدّد الفكر فيها والنّظر حتى يقف على المطلوب، فضاق الوقت عن ذلك، وخاف على العبادة أن تفوت، أو على الحكم أن يذهب، سواء كان ذلك المجتهد الآخر صحابيّاً أو غيره[4].

ومن الجدير بالذّكر هنا أن اجتهاد الإمام القرطبي كان اجتهاداً في إطار ذلك النّوع السائد من الاجتهاد في عصره؛ إذ «إنّ فقهاء مصر في عصر الدّولتين الأيوبيّة والمملوكية كانوا مجتهدي مذهب، بمعنى أنه لم يظهر فيهم صاحب مذهب جديد مخالف للمذاهب الأربعة المعروفة،

---

(١) سورة الزخرف: آية (٢٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٢/٢١٣)؛ وانظر كلاماً للقرطبي في «التفسير» في هدم التقليد وذمّه: (٢/٢١١ و٥/٢٩٠ و١٦/٧٥).

(٣) سورة الأنبياء: آية (٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: (٢/٢١٢).

ومع هذا فمن الإنصاف لفقهاء العصرين بمصر والشام أن يُقال: إنهم كانوا يتطلعون إلى نوعٍ من الاستقلال في الفقه، أولى به أن يسمّى: سعة في التصرّف»(١).

فكان اجتهاد صاحبنا الإمام القرطبي من هذا النَّوع، الذي فيه القول الصّدق، والطَّريق السّوي، والمشرع الروي، المتمثّل بالأخذ بالدليل مع إجلال أئمة العلم والدّين، ولا لوم عليه في انتسابه لمذهبه المالكي لأنه انتساب مجرّد من العصبيّة، مع اتباعٍ للسُّنن، وقفوٍ للأثر، فكان إذا أبصر أنوار الدليل انفتحت له بصيرتُهُ، ولم يقل كما قال بعضهم:

فلعنة ربنا أعداد رمل
على مَن ردّ قول أبي حنيفة

ولا كما قال بعضهم:

ومالك المرتضى لا شك أفضلهم
إمام دار الهدى والوحي والسُّنن

ولا كما قال محمد بن إبراهيم البوشنجي:

وإنّي حياتي شافِعيٌّ وإن أُمُتْ
فتوصيتي بعدي بأن يتشفَّعوا

ولا كما قال أبو إسماعيل الأنصاري الهروي:

أنا حنبليٌّ ما حَييتُ وإنْ أُمُتْ
فَوَصِيَّتِي للنّاس أن يتَحَنْبلوا(٢)

---

(١) الحركة الفكرية: (٢٠١ ـ ٢٠٢) والقرطبي المفسر: (٧٥).
(٢) سير أعلام النبلاء: (١٨/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧)، وانظر ـ غير مأمور ـ التعليق عليه.

٢ ـ دقّة فهمه، وتنوّع معرفته، وسعة اطّلاعه، وتعدّد مشاربه العلمية، المتمثلة في الأخذ عن بعض الحفّاظ والفقهاء ممّن لم يتمذهبوا بالمذهب المالكي.

٣ ـ معرفته بالحديث النبوي وطرقه وشواهده ومتابعاته، وصحيحه وسقيمه، ولذا ترى أن عمدته في الترجيح غالباً الحديث النبوي، ولذا قال فيه المراكشي: «كان من أهل العلم بالحديث والاعتناء التامّ بروايته»[١]، وإليك أمثلة على ذلك:

أ ـ ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾[٢] مجموعة مسائل، من بينها: المسألة السابعة عشرة، وعقدها في اختلاف العلماء في حكم صلاة عيد الفطر في اليوم الثاني، وذكر عن ابن عبد البرّ أنه لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلّى صلاة العيد في غير يوم العيد، ويُذكَر عنه أيضاً أنه قال: «لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا في سائر السُّنن أنها لا تُقضى، فهذه مثلها»، ثم يعقب القرطبي على هذا فيقول:

«قلت: والقول بالخروج ـ يعني لصلاة العيد في اليوم الثاني ـ إن شاء الله أصحّ، للسنّة الثابتة في ذلك، ولا يمتنع أن يستثني الشّارع من السُّنن ما شاء، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته، وقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يُصلِّ ركعتي الفجر فليصلّها بعدما تطلع الشمس». قلت: وقد قال علماؤنا: مَن ضاق عليه الوقت، وصلّى الصبح، وترك ركعتي الفجر، فإنه يصلّيهما بعد طلوع الشمس إن شاء، وقيل: لا يصلّيهما حينئذ. ثم إذا قلنا يصلّيهما فهل ما يفعله قضاء؟ أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتي الفجر؟ قال

---

(١) الذّيل والصلة: (٥/٥٨٥).
(٢) سورة البقرة: آية (١٨٥).

الشيخ أبو بكر: وهذا الجاري على أصل المذهب. وذكر القضاء تجوّز، قلت: ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر في اليوم الثاني على هذا الأصل، لا سيما مع كونها مرة واحدة في السَّنَةِ، مع ما ثبت من السُّنَّة. ثم رُوِيَ عن النسائي بسنده: أنّ قوماً رأوا الهلال فأتوا النبيّ ﷺ فأمرهم أن يفطروا بعدما ارتفع النهار، وأن يخرجوا إلى العيد من الغد، وفي رواية: «ويخرجوا لمصلاهم من الغد»»[1].

ب ـ ونجده عندما تعرّض لتفسير قوله تعالى: ﴿ أحلّ لكم ليلة الصيام الرّفث إلى نسائكم ﴾[2]، يذكر في المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية خلافَ العلماء في حكم مَن أكل في نهار رمضان ناسياً، فيذكر عن مالك أنه يفطر وعليه القضاء، ولكنه لا يرضى ذلك الحكم، فيقول: «وعند غير مالك ليس بمفطر كلّ مَن أكل ناسياً لصومه. قلت: وهو الصحيح، وبه قال الجمهور، إن مَن أكل أو شرب ناسياً فلا قضاء عليه، وإن صومه تامّ، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه»»[3].

جـ ـ ونجده عندما تعرّض لتفسير قوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾[4] يذكر في المسألة السادسة عشرة من مسائل هذه الآية إمامة الصغير، وينقل أقوال مَن يجيزها ومَن يمنعها، ويذكر أن من المانعين لها جملة: مالكاً، والثّوري، وأصحاب الرأي، ولكنّا نجده يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل على جوازها،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٢/٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٢) سورة البقرة: آية (١٨٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٢/٣٢٢).
(٤) سورة البقرة: آية (٤٣).

وذلك حيث يقول: «قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئاً، ثبت في «صحيح البخاري» عن عمرو بن سلمة قال: كنّا بماء ممر الناس، وكان يمرّ بنا الناس، فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أنّ الله أرسله، أوحى إليه كذا، أوحى إليه كذا، فكنت أحفظ هذا الكلام، فكأنما يُقرُّ في صدري، وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامها، فيقولون: اتركوه وقومه؛ فإنه إنْ ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قَدِمَ قال: جئتكم والله من عند نبيّ الله حقّاً، قال: صلّوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذّن أحدكم، وليؤمّكم أكثركم قرآناً، فنظروا فلم يكن أحد أكثرَ منّي قرآناً، لما كنت أتلقّى من الركبان، فقدّموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت عليّ بُرْدة إذا سجدتُ تقلّصتْ عنّي، فقالت امرأة من الحيّ: ألا تغضّون عنّا آسْتَ قارئكم! فاشتروا فقطعوا لي قميصاً، فما فرحتُ بشيء فرحي بذلك القميص»[1].

د ـ ونجده عندما تعرّض لتفسير قول الله سبحانه: ﴿ فَمَن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ﴾[2] يذكر في مسألة من مسائل تفسيرها:

«اختلف في قدر الحصى، فقال الشافعي: يكون أصغر من الأُنملة طولاً وعرضاً، وقال أبو ثور وأصحاب الرأي: بمثل حصى الخذف، ورُوّينا عن ابن عمر أنه كان يرمي الجمرة بمثل بعر الغنم، ولا معنى لقول مالك: أكبر من ذلك أحبُّ إليَّ، لأنّ النبيّ ﷺ سنَّ الرّمي بمثل حصى الخذف، ويجوز أن يرمي بما وقع عليه اسم حصاة، واتّباع السُّنّة أفضل». ثم قال: «قلت: وهو الصحيح الذي لا يجوز خلافه لمَن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/٣٥٢ ـ ٣٥٣).
(٢) سورة البقرة: آية (٢٠٣).

اهتدى واقتدى، روى النسائي عن ابن عباس قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو على راحلته: هاتِ القطْ لي، فلقطت له حصيات هي حصى الخذف، فلما وضعتهنّ في يده، قال: «بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلوّ في الدِّين، فإنما أُهلك مَن كان قبلكم الغلوّ في الدِّين»، فدلّ قوله: «وإياكم والغلوّ في الدين» على كراهة الرّمي بالجمار الكبار، وأنّ ذلك من الغلوّ، والله أعلم»[1].

فهذه أربعة نماذج في تفسير سورة واحدةٍ مما خالف فيه الإمام القرطبي مذهبه المالكي، وكانت مخالفته فيها جميعاً قائمة على الأدلّة الصريحة الصحيحة، ومنها نعلم أن الإمام القرطبي لا يعدل عن الرأي الذي تسانده الأدلة، وتدعمه الحجج، وتقوّيه البراهين، ولا يعنيه بعد ذلك إذا وصل به الأمر إلى مخالفة مذهبه المالكي، الذي كان أحدَ روّاده، بل المُدافعين عنه.

ومن أهم مميزات شخصية الإمام القرطبي العلمية:

*** مالكيّتـــــه**

لا يظنّ ظانّ أن ما قدّمناه سابقاً من الحديث عن إنصاف الإمام القرطبي وعدم تعصّبه يُخرِج القرطبي عن كونه ملتزماً مذهباً معيّناً، وهو المذهب المالكي، فالحق أنه مالكيّ المذهب، ومن المجتهدين فيه، ولا شك أنّ المجتهد قد يرى أن الحقّ مع غيره في بعض الأحايين، كما رأينا في الأمثلة الأربعة السابقة.

وتتمثّل مالكيّة صاحبنا الإمام القرطبي في أمور:

الأوّل: اقتصاره أحياناً على آراء الإمام مالك، وبعض فقهاء المالكية، وتارةً يكتفي بالعرض والتوجيه لهذه الآراء دون التعقيب عليها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٣/١١ ـ ١٢).

أو مناقشتها، ولعله في تلك الحالة يكون قد ارتضاها، ومن الأمثلة على ذلك:

أ ـ في قوله تعالى: ﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ﴾[1] يقول في المسألة الحادية عشرة: «والعدوّ الحاصر لا يخلو أن يتيقّن بقاؤه واستيطانه؛ لقوّته وكثرته، أو لا: فإن كان الأول حلّ المحصر مكانه من ساعته، وإنْ كان الثاني ـ وهو مما يُرجى زواله ـ فهذا لا يكون محصوراً حتى يبقى بينه وبين الحجّ مقدار ما يعلم أنه إنْ زال العدوّ لا يدرك فيه الحجّ، فيحلّ حينئذ عند ابن القاسم وابن الماجشون، وقال أشهب: لا يحلّ مَن حصر عن الحجّ بعدوٍّ حتى يوم النحر، ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس إلى عَرَفَة. وجه قول ابن القاسم: أن هذا وقت يأس من إكمال حجّه لعدوّه غالب، فجاز له أن يحلّ فيه. ووجه قول أشهب: أن عليه أن يأتي من حكم الإحرام بما يمكنه، والتزامه إلى يوم النحر الوقت الذي يجوز للحاجّ التحلّل بما يمكنه الإتيان به، فكان ذلك عليه»[2].

ب ـ وفي قوله تعالى: ﴿ فإذا أفضتم من عرفاتٍ فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾[3]تحدّث في المسألة الثانية عشرة عن سُنيّة الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة بعد الدّفع من عرفات، ثم قال في المسألة الثالثة عشرة: «ومَن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق، فقد قال ابن حبيب: لا صلاة عن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق، لا لإمامٍ ولا غيره حتى يغيب الشفق، لقوله عليه السلام: «الصلاة أمامك» ثم صلّاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق؛ ومن جهة المعنى أن وقت هذه

(١) سورة البقرة: آية (١٦٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٢/٣٧٧).
(٣) سورة البقرة: آية (١٩٨).

الصلاة بعد مغيب الشفق، فلا يجوز أن يؤتى بها قبله، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أُخّرت عنه»[1].

جـ ـ ويقول في المسألة الثالثة عشرة: «وأما مَن أتى عَرَفَة بعد دفع الإمام، أو كان له عذرٍ ممّن وقف مع الإمام، فقد قال ابن الموَّاز: مَن وقف بعد الإمام فليصلِّ كلّ صلاة لوقتها، وقال مالك فيمَن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام: إنه يصلّي إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما، وقال ابن القاسم فيمَن وقف بعد الإمام: إن رجا أن يأتي المزدلفة ثلث الليل فليؤخّر الصّلاةَ حتى يأتي المزدلفة، وإلّا صلّى كل صلاة لوقتها. فجعل ابنُ الموّاز تأخير الصَّلاة إلى المزدلفة لمَن وقف مع الإمام دون غيره، وراعى مالك الوقت دون المكان، واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان، فإذا خاف فَوَات الوقت المُختار بَطَلَ اعتبار المكان، وكان مراعاة وقتها المختار أولى»[2].

ومن الواضح من الأمثلة السابقة أنّ القرطبي قد اقتصر على الفقه المالكي، فنقلٍ آراء الإمام مالك، وآراء ابن الموّاز وابن الماجشون، وأشهب ـ وكلٌّ هؤلاء من فقهاء المالكية، بل مـن كبارهم ـ ولم يعقّب على هذه الآراء، ولم يناقشها لأنه قد ارتضاها.

ونرى القرطبي أحياناً أُخرى يفاضل بين آراء المالكية ويختار منها، ونقتصر على ذلك بالمثال التالي:

د ـ في قوله تعالى: ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة ﴾[3] تحدث في المسألة الرابعة عشرة عن حكم التكبير في الصلاة، ونقل عن أصبغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم أنهما قالا:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٢/٤٢٢).
(٢) المصدر السابق: (٢/٤٢٢).
(٣) سورة البقرة: آية (٣).

ليس على مَن لم يكبِّر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبّر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهياً سجد للسهو، فإن لم يسجد فلا شيء عليه، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامداً لأنه سُنّة من سُنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه، وصلاته ماضية، ثم نقل عن ابن القاسم خلاف ذلك، وردّه ورجّح رأي ابن عبد الحكم وأصبغ بقوله: «قلت: هذا هو الصحيح الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهل الحديث والمالكيين غير مَن ذهب مذهب ابن القاسم»[1].

الثاني: نسبة نفسه إلى المذهب المالكي، ولا عجب في ذلك فهو المحيط به إحاطةً واسعة، وبأقوال علمائه، وبأصوله وقواعده.

الثالث: تمحيص الأقوال المنسوبة إلى الإمام مالك، وبيان ما صحّ منها وما لا يصحّ مما يُنسَب إليه خطأ، وبهذا تُعدُّ كتب الإمام القرطبي على وجه العموم، والتفسير على وجه الخصوص من المصادر الهامّة في تحرير المذهب المالكي.

وهاك مثالاً على الأمرين السابقين:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾[2]:

«ولا بُدّ في غسل الوجه من نقل الماء إليه، وإمرار اليد عليه، وهذه حقيقة الغسل **عندنا** ـ يقصد المالكية، وهو منهم ـ وقال غيرنا: إنما عليه إجراء الماء، وليس عليه دَلْكٌ بيده»[3].

ثم ذكر مسألة غسل الجُنُب، فقال: «اعلم أنّ العلماء اختلفوا في

---

(١) انظر تفصيل المسألة في «الجامع لأحكام القرآن»: (١/١٧١ ـ ١٧٢).
(٢) سورة المائدة: آية (٦).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن»: (٦/٨٣).

الجُنُب يصبّ على جسده الماء أو يَنْغَمِس فيه ولا يتدلّك، فالمشهور من مذهب مالك أنه لا يجزئه حتى يتدلّك، لأنّ الله سبحانه وتعالى أمر الجُنُب بالاغتسال، كما أمر المتوضىء بغسل وجهه ويديه، ولم يكن للمتوضىء بدٌّ من إمرار يديه مع الماء على وجهه ويديه، فكذلك جميع جسد الجُنُب ورأسه في حكم وجه المتوضىء ويديه»[1].

والذي يهمّنا هنا ما كشف القرطبي به عن خبرته بالمذهب المالكي، وتصحيح ما قد نسبه البعض خطأً إلى مالك!! قال رحمه الله تعالى:

«وبه ـ أي بعدم وجوب التدليك ـ قال محمد بن عبد الحكم، وإليه رجع أبو الفرج[2]، ورواه عن مالك؛ قال: وإنما أمر بإمرار اليدين في الغسل لأنه لا يكاد مَن لم يُمِرّ يديه عليه يسلم من تنكّبِ الماء عن بعض ما يجب عليه من جسده. قال ابن العربي: وأعجب لأبي الفرج الذي روى وحكى عن صاحب المذهب أن الغسل دون ذلك يجزىء!! وما قاله قَطُّ مالكٌ نصّاً ولا تخريجاً، وإنما هي من أوهامه»!!.

ويتعقب القرطبيُّ ابنَ العربيِ ويذكر أنه هو الذي وَهِم، فقال: «قلت: قد رُوِيَ هذا عن مالك نصّاً، فقال مروان بن محمد الظّاهريّ وهو ثقة من ثقات الشاميين: سألتُ مالك بن أنس عن رجلٍ انغمس في ماءٍ وهو جُنُب ولم يتوضّأ، قال: مضت صلاته»[3].

فأنت ترى أن القرطبي قد صحّح ما حكاه أبو الفرج عن مالك، وذلك على أساسٍ من درايته بالمذهب، على الرغم من إنكار واحد من

---

(١) المصدر نفسه: (٥/ ٢١٠).
(٢) هو عمرو بن محمد المالكي رحمه الله تعالى.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ٢١١).

كبار علماء المالكية ـ وهو العلاّمة ابن العربي ـ أن يكون مالك قال ذلك نصّاً أو تخريجاً.

الرابع: ترجيحه مذهبَ الإمام مالكٍ في كثير من المسائل الفقهية التي عالجها، ومناقشتهُ العلماء فيها، والأمثلة على هذا كثيرة، من أشهرها:

أ ـ مسألة البسملة، هل هي آية من الفاتحة وغيرها من السور أم لا؟ ويترتب عليه: هل يقرأها المصلّي أم أن صلاته تجزىء وإن لم يفعل ذلك؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال، منها:

ليسَ بآية من الفاتحة ولا غيرها من السور، وإنما هي استفتاح ليعلم بها مبتدؤها، وللتبرّك بالابتداء بها، كما بُدِىء بذكرها في كل أمر ذي بال، وهذا القول قال فيه القرطبي: «وهو قول مالك، وأبي حنيفة، وجمهور الفقهاء والقرّاء».

ثم تعرّض إلى مذهب مالك في قراءة المصلّي لها، فقال: «وجملة مذهب مالك وأصحابه: أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلّي في المكتوبة ولا في غيرها سرّاً ولا جهراً، ويجوز أن يقرأها في النوافل، هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه».

والذي يهمّنا هنا أن نعرض رأي القرطبي في هذه المسألة، لتتّضح نصرته لمذهبه المالكي، وتبنّيه رأيهم ومدافعته عنهم.

قال رحمه الله تعالى بعد كلام طويل: «والصحيح من هذه الأقوال قول مالك، الذي رأى أن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد، وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه».

ثم حشد كثيراً من الأدلة النقلية والعقلية التي تدلّل على صحة وجهة نظره هذه الموافقة لمذهبه المالكي، وعضدها بنقولات لكثير من أهل العلم تؤيّدها وتنصرها، وفنَّد حِجج الآخرين وردّ عليها بشيء من التفصيل[1].

ب ـ مسألة مقدار مسح الرأس في الوضوء.

اتّفق الفقهاء على أن مسح الرأس من فرائض الوضوء، لقوله تعالى: ﴿ وامسحوا برُءُوسكم ﴾[2]، واختلفوا في المقدار المطلوب مسحه «على أحد عشر قولاً، ثلاثة لأبي حنيفة، وقولان للشافعي، وستّة أقوال لعلمائنا ـ أي المالكية»[3].

والذي يعنينا من هذه المسألة: أن مذهب مالك القول بوجوب تعميم مسح الرأس، وهو الذي نصره الإمام القرطبي، فقال:

«وقد أشار مالك في وجوب مسح الرأس إلى ما ذكرناه، فإنه سُئِل عن الذي يترك بعضَ رأسه في الوضوء، فقال: أرأيت إنْ ترك غَسْلَ بعض وجهه أكان يُجزئه؟!» ثم قال بعد أن ذكر أقوال العلماء وخلافهم في هذه المسألة على النحو الذي أشرنا إليه سابقاً: «والصحيح منها واحد، وهو وجوب التّعميم لما ذكرناه. وأجمع العلماء على أن مَن مسح رأسه كله فقد أحسن وفعل ما يلزمه، والباء مؤكّدة زائدة ليست للتبعيض، والمعنى: وامسحوا رءوسكم»[4] ثم ناقش أدلّة المخالفين ووجوه ردّها بما لا مزيد عليه.

---

(١) انظر مسألة البسملة وكلام المصنّف عليها في: «الجامع لأحكام القرآن»: (١/٩٢ - ٩٧ و١١٧ و٧/١٥٣ ـ ١٥٥).

(٢) سورة المائدة: آية (٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٦/٨٧).

(٤) المصدر السابق: (٦/٨٧).

جـ ـ مسألة الوضوء من لمس المرأة.

ذكر الإمام القرطبي اختلاف العلماء في حكم اللمس الوارد في قوله تعالى: ﴿ أو لامستم النساء ﴾[1] على خمسة مذاهب، من بينها ما قاله الإمام مالك: المُلامس بالجماع يتيمّم، والمُلامس باليد يتيمّم إذا الْتذَّ، فإذا لمسها بغير شهوة فلا وضوء، ثم قال: «وبه قال أحمد وإسحاق، وهو مقتضى الآية» ثم سرد المذاهب المتبقية، ثم قال: «فهذه خمسة مذاهب أسدُّها مذهب مالك، وهو مرويّ عن عمر وابنه عبد الله، وهو قول عبد الله بن مسعود أنّ الملامسة دون الجماع، وأن الوضوء، يجب بذلك، وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء».

ثم عرض حِجج المخالفين، وبيَّن وَهْـيَها وضعفها بالمنقول والمعقول، وخلص إلى نصرة مذهبه بحجج شتّى، لا مجال هنا لسردها[2].

د ـ الوضوء بسؤر الكلاب.

ذكر الإمام القرطبي أن تحصيل مذهب الإمام مالك أن الكلب طاهر عنده لا ينجس ولوغه شيئاً ولغ فيه طعاماً ولا غيره، إلّا أنه استحبّ هراقة ما ولغ فيه من الماء ليسارة مؤنته.

وأخذ يستدلّ بعمومات النصوص على صحة قول مالك المذكور، وتأوّل النّص الخاصّ بالمسألة عينها، وهو قوله ﷺ: «إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرات وعفّروه الثامنة في التراب»، ورأى أن الإناء يغسل في هذه الحالة عبادة لا لنجاسة!! واستدلّ على ذلك بدليلين.

والذي يهمّنا هنا أننا نجد القرطبي ينتصر لرأي مذهبه وإمامه،

---

(١) سورة النساء: آية (٤٣).

(٢) انظر تفصيل المسألة في «الجامع لأحكام القرآن»: (٥/٢٢٣ ـ ٢٢٨).

ويعتمد ما رُوِي من أحاديث في هذا الصّدد، ويؤول الحديث الذي يعتمده جمهور الفقهاء دليلاً على نجاسة سؤر الكلب[1].

ويتّضح لنا من الأمثلة الأربعة السابقة ـ وغيرها كثير[2] ـ أنّ القرطبيّ مالكيُّ المـذهب وإنْ كان مجتهداً قد يرى الحقَّ عند غير الإمام مالك، وأولى بأن تفسّر به الآيات، كما سبق بيانه.

الخامس: ومما يؤكّد مذهبية الإمام القرطبي أنه التزم أصول المالكية، ومن بينها تلك الأصول التي أخذوا بها ولم يأخذ بها غيرهم، إذ يدافع عنها في تفسيره وينتصف لها.

فمثلاً تعرّض لحجيّة مفهوم الخطاب ـ وهو إثبات حكم المنطوق به للمسكوت عنه بطريق الأولى ـ واعتبره حجّة، وهذا هو المعتمد عند فقهاء المالكية، فقال في تفسير قول الله تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب مَنْ إنْ تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم مَنْ إنْ تأمنه بدينارٍ لا يؤدّه إليك إلاّ ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمّيين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[3]؛ «أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائنَ والأمين، والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغي اجتناب جميعهم. وخصّ أهل الكتاب بالذّكر وإن كان المؤمنون كذلك، لأنّ الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب» ثم قال:

«ومَن حفظ الكثير وأدّاه فالقليل أولى، ومَن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر» ثم ابتدر بهذه المناسبة لذكر مفهوم الخطاب وحجيته، فقال:

---

(١) انظر تفصيل المسألة مع أدلتها في: «الجامع لأحكام القرآن»: (١٣/٤٥ ـ ٤٦).

(٢) مثل: مسألة الحج عن الغير، كما في «الجامع لأحكام القرآن»: (٢/٤٣٦ و٤/١٥٤ و١٧/١١٤) ومسألة البيع وقت صلاة الجمعة، كما في «الجامع لأحكام القرآن» أيضاً: (١٨/١٠٨).

(٣) سورة آل عمران: آية (٧٥).

«وهذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب، وفيه بين العلماء خلاف كثير مذكور في أصول الفقه»[1].

وكان الإمام القرطبي قد أشار قبل ذلك إلى أن مذهب الكوفيين عدم اعتبار مفهوم الخطاب. وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا أوّل كافر به﴾[2].

فقال: «لا حجّة في هذه الآية لمَن يمنع القول بدليل الخطاب، وهم الكوفيون ومَن وافقهم؛ لأنّ المقصود من الكلام النهي عن الكفر أوّلاً وآخراً، وخصّ الأوّل بالذكر لأنّ التقدّم فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحداً، وهذا واضح»[3].

بيد أنّ الإمام القرطبي يرى أن حجيّة مفهوم الخطاب مشروطة بعدم قيام دليل مكانها يكون أقوى منها، كعبارة النّص مثلاً.

فهو عندما ذكر نهي النبيّ ﷺ أن يشتحي الرجل فاه في عِرض أخيه، ـ ومعنى: يشتحي: يفتح، يقال: شحى الحمار فاهُ بالنَّهيق ـ قال: «ولا يُفهم من هذا الحديث بدليل الخطابِ على الجواز، فيأخذ أحد في عرض أخيه همساً، فإن ذلك يحرّم باتِّفاقٍ من العلماء. وفي التنزيل ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾[4]، وقال ﷺ: «إن دماءَكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» فذِكْرُ الشَّحْو إنما هو إشارة إلى التشدّق والانبساط، فاعلم»[5].

فهذه الأمور الخمسة تثبت لنا أن الإمام القرطبي مالكي المذهب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ١١٦).
(٢) سورة البقرة: آية (٤١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٣٣٤).
(٤) سورة الحجرات: آية (١٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ١٨١).

فقهاً وأصولاً. ومن أهم مميزات شخصية الإمام القرطبي العلمية.

*** أمانته العلمية وموضوعيته، ولين جانبه، وعفّة لسانه، وسهولة ورقّة عبارته، وحُسْن فهمه ومناظرته وتصنيفه وتفريعه وعرضه للمسائل**

الذي ينبغي أن نسجّله هنا للقرطبي بكل التقدير والإجلال هو أمانته العلمية، المتمثلة بالحرص على بيان مختلف الآراء، وذكر كلِ دليل لأصحابِ هذه الآراء، وعرض أدلة الخصم بدقّةٍ وأمانةٍ، إنصافاً لهم، وانطلاقاً إلى اختيار الرأي الأمثل في نظره، ولم يكن رحمه الله تعالى يغفل بعض أدلّة القوم إذا خالفهم، وذلك يدلّ على ما للرجل من قوّة الحجّة، وشدّة المِراس في دفع الأدلّة التي لا يراها مساندة للحكم المستنبط، ويدلّ فضلاً عن ذلك على أنّ الوصول إلى الحق كان نشدته، وأنّ الحقيقة كانت طلبته في إطار من حُسْن العرض، وتنظيم الآراء، وتنسيق المسائل.

ومن مظاهر أمانته العلمية: عرض الآراء والحِجج في المسائل المشكلة، وعدم تصريحه بموافقة ولا مخالفة، وإنما يكتفي بعرض الآراء عرضاً وافياً، وذكر الأدلة بإزاء كل رأي، وما له وما عليه، وهو كثيراً ما يفعل ذلك إذا تساوت أدلّة كل فريق أو كادت، وربما ترك الأمر للقارىء ليستشفّ الحكم في المسألة، أو يتبيّن ما يلمح له به ولا يصرّح[1].

ولا عجب في ذلك، فهو القائل: «الواجب على مَن سُئِلَ عن علمٍ أن يقول إن لم يعلم: الله أعلم ولا أدري، اقتداء بالملائكة

---

(١) ويظهر هذا جليّاً في بحثه مسألة (مَن مات وعليه صوم رمضان لم يقضه، هل يصوم عنه وليّه؟) في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

والأنبياء والفضلاء من العلماء»[1]. ومما يُسجَّل للقرطبي بكل الفخر والتقدير أيضاً: سماحته، وسعة صدره، واتّساع أُفقه أمام مخالفيه أو مخالفي مذهبه في الرأي، فهو يجلّ كل رأي على الرغم من مخالفته له، ويلوم مَن يعيب المخالفين أو يتهجّم عليهم، بعبارة سهلة رقيقة، تدلّل على لين جانب صاحبها، وعلى عفّة لسانه. وكل ذلك واضح في عرضه للمسائل التي اختلف فيها الفقهاء، وأكثر ما تظهر هذه الميزات في شخصية إمامنا القرطبي في موقفه من حملات ابن العربي على مُخالفيه.

* موقفه من حملات ابن العربي على مخالفيه

نجد القرطبي ـ رحمه الله ـ كثيراً ما تدفعه الأمانة العلمية والإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمّن يهاجم ابن العربي المالكي من المخالفين؛ مع توجيه اللّوم إليه أحياناً، على ما يصدر منه من عباراتٍ قاسيةٍ في حقٍّ علماء المسلمين؛ الذّاهبين إلى ما لم يذهب إليه، وإليك بعض الأمثلة:

أ ـ عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النّخيل والأعناب تتّخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾[2] نراه يعيب على ابن العربي تشنيعه على مَن يقول من الحنفية وغيرهم بحلّ النبيذ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفّار، على الرغم من أن القرطبي يوافق ابن العربي في رأيه بالحُرمة، إلّا أنه لم يعجبه منه قسوة التعبير، فقال: «وهذا تشنيع شنيع، حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفَهم بالكفّار»[3].

ب ـ وعندما تعرّض لتفسير قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٢٨٥).
(٢) سورة النحل: آية رقم (٦٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ١٣٠).

تسألوا عن أشياء إنْ تبد لكم تسؤكم﴾[1]، نقل عن ابن العربي قوله: «اعتقد قوم من الغافلين تحريم أسئلة النوازل حتى تقع تعلّقاً بهذه الآية» وعلى الرغم من موافقة القرطبي له في رأيه إلاّ أنه علّق عليه بقوله: «اعتمد قوم من الغافلين فيه قبح، وإنما كان الأولى به أن يقول: ذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل، وإنما قلنا: كانت أولى به، لأنه قد كان قوم من السّلف يكرهها»[2].

جـ - وعندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿وأقم الصّلاة طرفي النّهار وزلفاً من الليل﴾[3]، قال: «ورجّح الطبري أن الطرفين الصّبح والمغرب، وأنه ظاهر؛ قال ابن عطيّة: وردّ عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل» ثم نقل عن ابن العربي أنه قال: «والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب، وهما طرفا الليل! فقلب القوس ركوة[4]، وحاد عن البُرجاس[5] غلوة؛ قال الطبري: والدّليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب، ولم يجمع معه على ذلك أحد».

ثم تعقّبه القرطبي بقوله: «قلت: هذا تحامل من ابن العربي في الرّدّ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح، وقد وقع الاتفاق - إلاّ مَن شذّ - بأن مَن أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمّداً أن يومه ذلك يوم فطر، وعليه القضاء والكفّارة، وما ذلك إلاّ وما بعد طلوع الفجر من النهار؛ فدلّ على صحّة

---

(١) سورة المائدة: آية (١٠١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٦/٣٣٢).
(٣) سورة هود: آية (١١٤).
(٤) لفظ المثل كما في «الصحاح» وغيره: «صارت القوس ركوة».
(٥) البُرجاس (بالضم): غرض على رأس رمح أو نحوه، وهو مولد.

ما قاله الطبري في الصبح، وتبقى المغرب والردّ عليه فيه ما تقدّم، والله أعلم»[1].

ولا ينبغي أن يفهم أن سهولته ولين جانبه كانت تحجزه عن قول الحق، أو الشّدّة فيه إنْ لزم الأمر، وهذا بعيد عن صاحبنا الذي يتميز ـ كما أسلفنا ـ بغيرةٍ وشدّة حرص على الدّين، وشجاعة وجرأة في الحقّ، ومن هنا يمكن أن يُقال: إن مزاج القرطبي ـ رحمه الله ـ كان مزاج الإنسان المعتدل المتّزن، الذي لا يُغضِبه أن يخالفه صاحبُ رأي في قضيةٍ ما ما دام لها وجه، أما إن رأى خروجاً صريحاً عن حكم الله تعالى كان شجاعاً وجريئاً في إنكار ذلك وردّه.

وحسبنا في بيان حُسن فهم صاحبنا ما أوردته كتب التراجم، من أنه «كان يقظاً، فهماً، حسن الحفظ، حسن المذاكرة»[2]، ومن أن «له تصانيف مفيدة، تدلّ على وفور عقله وفضله»[3]، وانعكس ذلك على مناظراته ومؤلفاته، فامتازت بحُسْن التصنيف، وجودة النقل ـ كما قال ابن العماد الحنبلي[4] ـ وكثرة التفريع في عرض المسائل، فإنه يتناول آيات الأحكام من جميع جوانبها بطريقة مستقصية ومنظّمة.

ومن أهم مميزات شخصية الإمام القرطبي العلمية أيضاً:

*** شـــمولية معرفته**

اشتهر الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ بأنه مفسّر، وقد استطاعت هذه الشُّهرة أن تحجب عن الكثيرين مواهبه الفكرية، وإجادته لألوان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٩/١٠٩ ـ ١١٠).
(٢) نفح الطيب: (٢/٤١٠).
(٣) المصدر السابق و«طبقات المفسرين»: (٢/٦٦) للداودي و«طبقات المفسرين»: (٧٩) للسيوطي.
(٤) انظر: «شذرات الذهب»: (٥/٣٣٥).

أخرى من الثقافة والمعرفة، ومع إقرارنا له بمكانته العالية في علم التفسير وقد أوردنا فيما سبق ما يدلّل على علو كعبه وعظمة معرفته وسِعة اطّلاعه فيه، فإن من حقه علينا أن نكشف للقارىء المواهب الأخرى التي كان يتمتع بها؛ كي تتّضح الصورة كاملة. فهو ـ رحمه الله ـ بالإضافة إلى تصدّره في ميدان علم التفسير كان فقيهاً، وعالماً بالقراءات وحروفها، ومحدّثاً، ومؤرّخاً، ولغوياً، وأُصولياً، وداعيةً ومُصلِحاً.

وكانت له معرفة جيّدة بالعقائد والفِرَق والمِلَل والنِّحَل، وبتزكية النَّفس، وبالطّب، وبالزراعة والأدب والشّعر، فضلاً عن كونه ناقداً له أسلوبه الممتع في النَّقْد، فيقول ـ مثلاً ـ في كتاب «السُّنن الواردة بالفتن وغوائلها والأزمنة وفسادها والساعة وأشراطها» لأبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان ما نصّه: «هو مجلّد، مزج فيه الصحيح بالسقيم، ولم يفرّق فيه بين نسر وظليم، وأتى بالموضوع، وأعرض عمّا ثبت من الصحيح المسموع»[1]، وقال في كتاب دانيال: «قد ذكر في هذا الكتاب من الملاحم وما كان من الحوادث وسيكون، وجمع فيه التنافي والتناقض بين الضبّ والنون، وأغرب فيما أعرب في روايته عن ضربٍ من الهَوَس والجنون، وفيه من الموضوعات ما يكذب آخرها أوّلها، ويتعذّر على المتأوّل لها تأويلها، وما يتعلّق به جماعة الزّنادقة من تكذيب الصّادق المصدوق محمد ﷺ أنّ في سنة ثلاث مئة يظهر الدجّال من يهودية أصبهان، وقد طعنا في أوائل سبع مئة في هذا الزمان، وذلك شيء ما وقع ولا كان، ومن الموضوع فيه المصنوع، والتهافت الموضوع الحديث الطويل الذي استفتح به كتابه، فهلّا اتّقى الله، وخاف عقابه، وأن من أفضح فضيحة في الدين نقل مثل هذه

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: (٧١٧).

الإسرائيليات عن المتهوّدين، فإنه لا طريق فيما ذكر عن دانيال إلاّ عنهم، ولا رواية تؤخذ في ذلك إلاّ منهم»[1].

ومما يدلّل على معرفته بالطّب، قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمتاً ﴾[2]: «قلت: وهذه الآية تدخل في باب، ترقى بها الثّآليل، وهي التي تسمّى عندنا بـ (البراريق) واحدها (بَرُّوقة)، تطلع في الجسد، وخاصة في اليد: تأخذ ثلاثَ أعواد من تبن الشّعير، يكون في طرف كل عود عقدة، تُمرّ كل عُقدة على الثّآليل وتقرأ الآية مرة، ثم تُدفَن الأعواد في مكان نديّ، تعفّن وتعفّن الثّآليل، فلا يبقى لها أثر، جرّبت ذلك في نفسي وفي غيري، فوجدتُه نافعاً إن شاء الله تعالى»[3]. ومما يدلّل على معرفته به أيضاً قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾[4] ما نصّه: «في قِلّة الأكل منافع كثيرة؛ منها: أن يكون الرجلُ أصحَّ جسماً، وأجود حفظاً، وأذكى فَهماً، وأقلّ نوماً، وأخفّ نفساً، وفي كثرة الأكل كظّ المعدة، ونتن التّخمة، وتولّد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل. وقال بعض الحكماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء. وقد بيَّن النبيّ ﷺ هذا المعنى بياناً شافياً يُغني عن كلام الأطباء قال: «ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرّاً من بطنه، بحسب ابن آدم لُقيمات يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإنْ أكل لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه» خرّجه الترمذي من حديث المقدام بن مَعْدِي كَرْب.

قال علماؤنا: لو سمع بُقراط هـذه القسمة لعجب من هذه الحكمة.

---

(١) المصدر السابق: (٧١٦ ـ ٧١٧). (٢) سورة طه: آية (١٠٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١١/٢٤٦) ونحوه في «التذكار في أفضل الأذكار»: (٢٥٣ ـ ٢٥٤).
(٤) سورة الأعراف: آية (٣١).

ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانيّ حاذق، فقال لعليّ بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم نوعان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له عليّ: قد جمع الله الطبَّ كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال: قوله عزّ وجلّ: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾. فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال عليّ: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: «المعدة بيت الأدواء والحِمْية رأسُ كل داء، وأعطِ كل جسدٍ ما عوّدته»[1]. فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيُّكم لجالينوس طِبّاً» ثم قال معقّباً على هذه الحادثة بقوله: «قلت: ويقال: إن معالجة المريض نصفان: نصف دواء، ونصف حِمْية. فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصحَّ، وإلّا فالحِمية به أولى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمية، ولقد تنفع الحِمية مع ترك الدَّواء، ولقد قال رسول الله ﷺ: «أصل كل دواء الحِمية»[2]. والمَعْنِيُّ بها ـ والله أعلم ـ أنها تُغني عن كلّ دواء؛ ولذلك يقال: إن الهند جُلّ معالجتهم الحِمية، يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عِدّة أيام فيبرَأ ويصحّ»[3].

أما عن معرفة القرطبي بالزراعة فيدلّ عليه أمرٌ ذَكَرَهُ وقد وُصِّفَهُ في أمان الزَّرع من جميع الآفات، وذكر أنه صحيح، وقد جُرِّب[4].

ويدلّ عليه أيضاً كلامه على فصول السنة الأربعة، وطبائع كل فصل، وما يناسب كل فصل من المزروعات، وأثر الهواء وزمان هبوبه عليها[5].

---

(١) لم يصحّ هذا عن رسول الله ﷺ ألبتّة، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، راجع ما قدّمناه (صفحة ١٠٤).

(٢) لم يصحّ عن رسول الله ﷺ.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٩٢/٧).

(٤) انظره في «الجامع لأحكام القرآن»: (٢١٨/١٧).

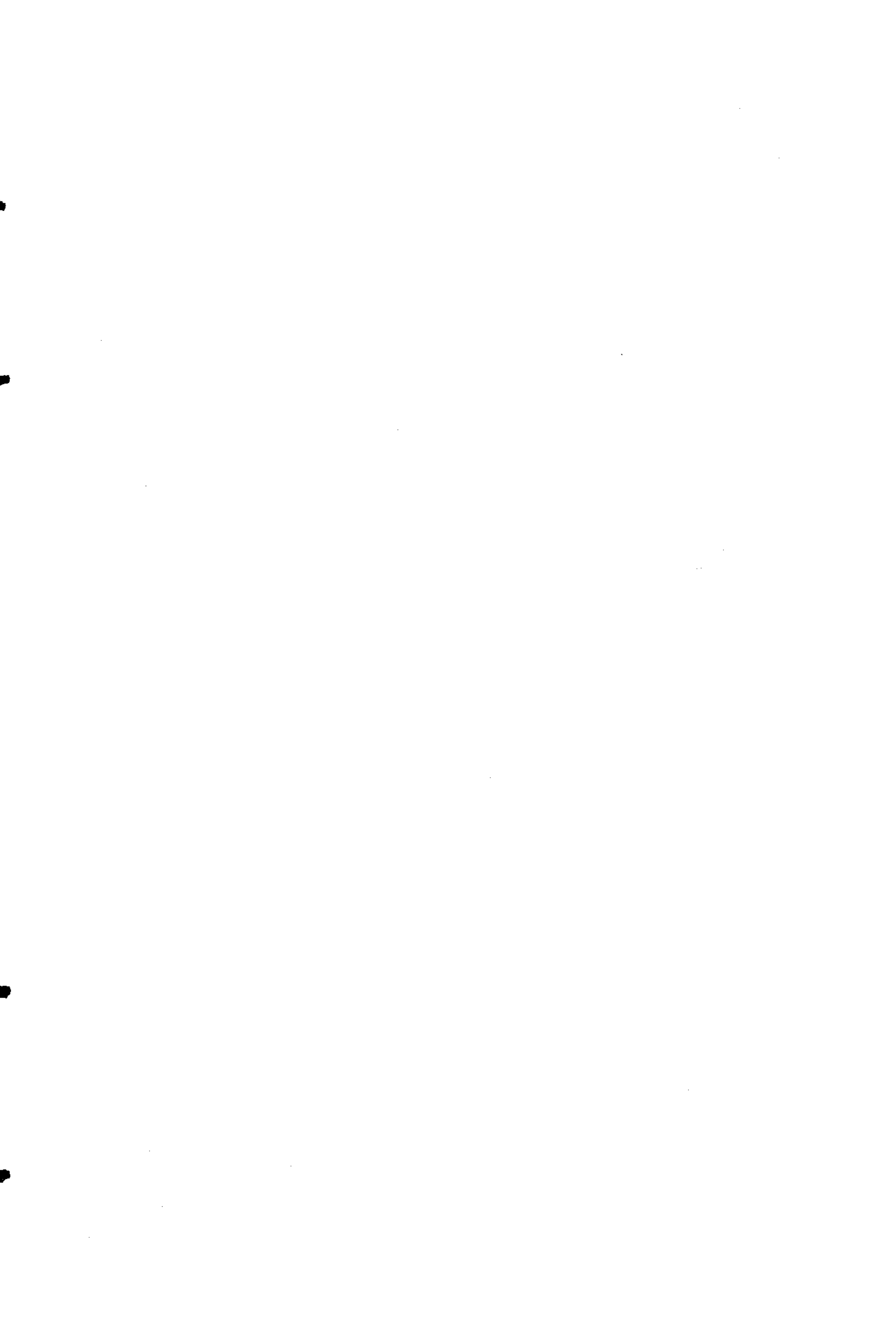
(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

أما عن معرفته بالأدب فيدلّ عليه كثرة الأخبار التي ينقلها من كتبه، مثل «عيون الأخبار» لابن قتيبة، وكثرة الأشعار التي يسردها، كشواهد لتفسير غريب، أو يسوقها على سبيل الموعظة والذكرى، ولا يَغِبْ عن بالنا أنّ مترجميه قد مدحوه وذكروا كثيراً من صفاته، من بينها أنه كان «مليح النَّظم»[1]، والظاهر منه أن صاحبنا كان شاعراً، له نظم مليح.

أما ألوان ثقافة القرطبي الأخرى، من: تفسيرٍ، وفقهٍ، وحديثٍ، ولغةٍ، وأُصولٍ، وقراءات، وتأريخ، وعقائد، ودعوةٍ وإرشاد، فلا يتّسع المقام هنا لبحثها والتفصيل فيها، وفيما ذكرناه غنية وكفاية.

---

(١) نفح الطيب: (٢/ ٤١٠).



الفصل السابع

القُرطبيّ وَالمَذاهِبُ وَالفِرَقُ

مما لا شك فيه أن لعقيدة الإنسان أثراً مهمّاً في سلوكه، وبناء شخصيته، وظهور ذلك عليه، وعلى من حوله، لا سيما إذا كان من العلماء البارزين الذين يؤخذ عنهم.

وعقيدة الإمام القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ سليمة. وكان من كبار أئمة أهل السُنّة والجماعة، وهذا الأمر يتجلّى بوضوح من خلال نُقول العلماء من كتابه «الأسنى»، فقد نقل عنه، وارتضى كلامه، وأيّده: الإمام ابن القيّم[1] والإمام الذهبي[2]، وغيرهما، ومرّت معنا مقولة الإمام ابن تيمية في «تفسيره» مقارِناً إياه بتفسير الزمخشري «الكشاف»: «و«تفسير القرطبي» خير منه بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسُنّة، وأبعد عن البِدَع»[3].

وقد كان منهج القرطبي التجرّد وإصابة الحق، فلم يكن متعصّباً لمذهب من المذاهب، وإنما كان يدور مع الدليل حيثما دار ـ كما تبيّن لنا من الفصل الماضي ـ، وهو ما جرى عليه أصحاب الحديث من إثبات الحق بنصوص من القرآن، والسُنّة، ولم يكونوا يلجأون إلى دلائل العقل والمنطق، إلا للردّ على معارضي السُنّة المطهّرة.

---

(١) راجع: «اجتماع الجيوش الإسلامية»: (٥٨، ١١٠) و«مختصر الصواعق المرسلة»: (٢/٣٢٥).

(٢) العلو للعليّ الغفّار: (١٩٤ ـ ١٩٥). (٣) مجموع الفتاوى: (١٣/٣٨٧).

وقد كان للإمام القرطبي صولات وجولات مع المبتدعة، والفِرَق والمذاهب الزائغة، وقد مثَّلنا عند الكلام على «تفسيره» في الفصل الخامس بمثالين في ردّه على غلاة المتصوفة الذين ينادون بـ(الإعراض عن العلم والفقه، والعمل بالخواطر) وعلى الرافضة في (طعنهم في القرآن، ومخالفتهم مصحف عثمان، بالزيادة والنقصان)[1]، وإليك ـ أخي القارىء الكريم ـ مزيداً من الأمثلة في الردّ عليهم، وعلى غيرهم.

*** ردود القرطبي على الصوفية**

*** تمهيـــد**

لم يتّخذ الإمام القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ موقفاً مُعادياً من التصوّف الملتزم بالكتاب والسُنّة، ولكنِ الجهلُ والاعتقادُ بالخرافات والمغيبات منتشراً انتشاراً واسعاً، وظهرت في المجتمع المصري ـ على وجه الخصوص ـ فئةٌ، نسبت نفسها للصوفية، وظهر فيها كثيرٌ من الخزعبلات والشعوذات، وأثَّرَتْ على العوام أيّما تأثير، فقام الإمام القرطبي ببثّ أنّاتِه وغضبه، تجاه هذه الفئة، وسنعمل إن شاء الله تعالى في الصفحات القادمة على جمع (شتات) كلامه في هذا الموضوع لثلاثة أمور:

الأول: معرفة موقف الفقهاء العام ـ من خلال نظر القرطبي ونقله ـ تجاه التصوّف والصوفية.

الثاني: معرفة الأدوار التي مرّ فيها التصوّف منذ نشوئه وتطوّره، حتى تبلوره في مذاهب صوفية فلسفية، إذ بمعرفتها تتوضح أمامنا أبعاد الصراع الفكري بين الفقه والتصوّف، هذا الصراع الذي تولّد ونشأ بنشوء التصوّف.

---

(١) راجع ما قدّمناه (ص ١٠٦ حتى ١١٨).

الثالث: معرفة وجه الحق والباطل في المسائل التي عادى الإمام القرطبي فيها متصوفة زمانه.

هذا، ونستطيع القول، من خلال سَبْرِ كلام الإمام القرطبي في التصوّف والصوفية بأن موقفه لم يكن حكماً منفرداً خاطئاً، ذلك: أنه نشأ في بلاد الأندلس ـ البعيدة عن التصوّف ـ وأخذ فيها مبادىء العلم وأصوله، وهاجر في فترة شبابه إلى مصر فوقف هناك على كثير من البِدَع والخرافات، فاستظهر فيهم ما سمعه وقرأه عن العلماء المزكّين المعروفين...

وهذا الأمر ـ أعني وقوف الإمام القرطبي بنفسه على مخالفات الصوفية للكتاب والسُنّة ـ يزيد من قيمة جمع كلامه هذا، لأمرين اثنين:

الأول: النَّقْلُ الأمينُ من قِبَل عَالِمٍ له اعتناءٌ واهتمامٌ بمباحث تزكية الروح والرقائق وأحوالِ القلوب من جهة، وله حب واحترام ومنزلة عند متصوفة زماننا من جهةٍ أُخرى.

الثاني: أن التصويبات والردود جاءت عن إدراكٍ تامٍّ للصواب، وذلك من خلال الوقوف على منشأ الخطأ وأبعاده.

وأخيراً، فإنّي قمتُ بهذا الجَهْد، طمعاً في رضوان الله تعالى أولاً، وفي تجنّب الأخطاء وإصلاحها، من وجهة نظر الإمام القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ الموافقة للكتاب والسُنّة، والله من وراء القصد.
وإليك ـ أخي القارىء ـ أهم القضايا التي ناقش فيها القرطبي متصوّفة زمانه:

*** الدّروشة (الصوفية والذِّكر)**

قال الإمام القرطبي: «عن أسماء بنت أبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنهما قالت:

كان أصحاب النبيّ ﷺ، إذا قُرىء عليهم القرآن، كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم.

قيل لها: فإن أُناساً اليوم، إذا قُرىء عليهم القرآن، خَرَّ أحدُهم مغشيّاً عليه.

فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقال سعيد بن عبد الرحمٰن الجمحي:

مرّ ابنُ عمر برجلٍ من أهل القرآن ساقط، فقال: ما بال هذا؟.

قـــالوا:

إنه إذا قُرىء عليه القرآن، وسمع ذِكر الله، سقط.

فقال ابن عمر:

إنّا لنخشى الله، وما نسقط.

ثم قـــال:

إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ.

وقال عمر بن عبد العزيز:

ذكر عند ابن سيرين الذين يُصْرَعون إذا قرىء عليهم القرآن، فقال:

بيننا وبينهم أن يقعد أحدُهم على ظهر بيت باسطاً رجليه، ثم يقرأ عليه القرآن من أوّله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وقال أبو عمران الجوني:

وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذات يوم، فشقّ رجلٌ قميصَهُ، فأوحى الله إلى موسى:

قل لصاحب القميص، لا يشقّ قميصه، فإنّي لا أحبُّ المبذّرين، يشرح لي عن قلبه»[1].

وقال أيضاً: «استدلّ بعضُ جُهّال المتزهّدة، وَطغَام المتصوّفة، بقوله تعالى لأيوب: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾[2] على جواز الرَّقص.

قال أبو الفرج ابن الجوزي:

وهذا احتجاج بارد، لأنه لو كان أمر بضرب الرِّجل فَرَحاً، كان لهم فيه شُبهة، وإنما أمر بضرب الرِّجل لينبع الماء.

قال ابنُ عقيل:

أين الدّلالة في مبتلي، أمر عند كشف البلاء، بأن يضرب برجله الأرض ـ لينبع الماء إعجازاً ـ من الرّقص!! ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكّم الهوامّ دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى: ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ ﴾[3] دلالة على ضرب المحادّ بالقضبان!! نعوذ بالله من التلاعب بالشّرع.

وقد احتجّ بعضُ قاصِريهم بأن رسول الله ﷺ قال لعليّ: «أنت منّي وأنا منك» فحَجَلَ.

وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي» فحَجَلَ.

وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فحَجَلَ.

ومنهم مَنْ احتجّ بأن الحبشة زَفَنت والنبي ﷺ ينظر إليهم.

والجواب:

أما الْحَجْلُ فهو نوع من المشي، يُفْعَلُ عند الفرح، فأين هو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/٢٤٩ ـ ٢٥٠).
(٢) سورة صٓ: آية رقم (٤٢).
(٣) سورة البقرة: آية رقم (٦٠).

والرَّقص!!، وكذلك زَفْن الحبشة نوعٌ من المشي يفعل عند اللقاء للحرب»[1].

وقال أيضاً: «قال ابن عطيّة:

تعلّقت الصوفية في القيام والقول بقوله:

﴿ إِذْ قَامُوْا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[2] قلت:

وهذا تعلّق غير صحيح، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نَعْمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربِّهم خائفين من قومهم. وهذه سُنَّة الله في الرُّسُل والأنبياء، والفضلاء الأولياء.

أين هذا، من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام!! وخاصة في هذه الأزمان، عند سماع الأصوات الحِسان من المرد والنّسوان!! هيهات!! بينهما ـ والله ـ ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء»[3].

وقال أيضاً: «ووصف الله تعالى المؤمنين في قوله:

﴿إِنَّما ٱلْمُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُوْنَ﴾[4] بالخوفِ وَالوَجَلِ عندَ ذكره. وذلكَ لقوّة إيمانهم، ومراعاتهم لربِّهم، وكأنّهُم بين يديه.

ونظير هذه الآية:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِيْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ ﴾[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ٢١٥).
(٢) سورة الكهف: آية رقم (١٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ٣٦٦).
(٤) سورة الأنفال: آية رقم (٢).
(٥) سورة الحج: آية رقم (٣٥).

وقـــال:

﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوْبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾[1].

فهذا يرجع إلى كمال المعرفة، وثقة القلب.

والوَجَل: الفزع من عذاب الله، فلا تناقض.

وقد جمع الله بين المعنيين في قوله:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُوْدُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُوْدُهُمْ وَقُلُوْبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[2]، أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله، وإن كانوا يخافون الله.

فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهّال العوامّ، والمبتدعة الطّغام، من الزَّعيق والزّئير، ومن النّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير.

فيقال لمَن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وَجْدٌ وخشوعٌ: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول، ولا حال أصحابه، في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظِ الفهمَ عن الله، والبكاءَ خوفاً من الله.

ولذلك وصف الله أحوالَ أهلِ المعرفة عند سماع ذكرِهِ، وتلاوة كتابِهِ، فقال:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُوْلِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ ﴾[3].

فهذا وصفُ حالِهم، وحكاية مقالهم. ومَنْ لم يكن كذلك فليس

---

(١) سورة الرعد: آية رقم (٢٨).
(٢) سورة الزمر: آية رقم (٢٣).
(٣) سورة المائدة: آية رقم (٨٣).

على هديهم، ولا على طريقتهم، فمَن كان مُسْتَنّاً، فَلْيَسْتَنّ، ومَنْ تعاطى أحوال المجانين والجنون، فهو من أخسّهم حالاً، والجنون فنون.

روى مسلم عن أنس بن مالك:

أن النَّاس سألوا النبيَّ ﷺ حتى أَحْفَوْه[1] في المسألة، فخرج ذات يوم، فَصَعِدَ المِنْبَرَ، فقال:

«سَلُوني، لا تسأَلوني عن شيءٍ إلاّ بيّنتُه لكم، ما دمتُ في مقامي هذا».

فلما سمع ذلك القومُ، أرَمُّوا[2] ورهبوا أن يكون بين يَدَيْ أمرٍ قد حضر.

قال أنس:

فجعلت ألتفتُ يميناً وشِمالاً، فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي... وذكر الحديث.

وروى الترمذي وصحّحه عن العِرْباض بن سارِيَة قال:

وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظة بليغة ذَرَفت منها العيون، ووَجِلَت منها القلوب... الحديث.

ولم يَقُـــلْ:

زَعَقْنَا ولا رَقَصنا ولا زَفَنَّا[3] ولا قُمْنا.

واستدلّ العلماءُ بقوله تعالى:

---

(١) أي: أكثروا عليه، وأحفى في السؤال وألحف بمعنى ألحَّ.
(٢) أرم الرجل إرماماً: إذا سكت، فهو مرم.
(٣) زفن: رقص، وأصله الدفع الشديد والضرب بالرِجل، كما يفعل الراقص.

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾[1]».

على ذَمِّ الرَّقص وتعاطيه.

قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل:

قد نَصَّ القرآنُ على النّهي عن الرقص، فقال: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ﴾.

وذمّ المختال، والرقص أشدّ المرح والبطر. أو لسنا الذين قِسْنَا النبيذ على الخمر، لاتّفاقهما في الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشّعرِ معه على الطُّنبور والمِزمار والطّبل لاجتماعهما!!!.

فما أقبح من ذي لِحْيَةٍ ـ وكيف إذا كان شيبةً؟؟ ـ يرقصِ ويصفّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصاً إن كانت أصواتُ لنسوان ومردان، وهل يحسن لمَن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدّارين، يَشْمُس[2] بالرقص، شمس البهائم، ويصفّق تصفيق النسوان، واللّهِ لقد رأيتُ مشايخَ في عمري ما بانَ لهم سِنٌّ من التبسّم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم.

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله:

ولقد حدّثني بعضُ المشايخ عن الإمام الغزالي رضي الله عنه أنه قال:

الرّقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلّا باللعب»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٧/٣٦٦)، وانظر: (١٢/٥٩).
(٢) شمست الدابّة: شردت وجمحت.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/٢٦٣)، وانظر (١٤/٥٤).

وقال أيضاً: «وذلك كلّه منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعلُه بالمشركين، فيما كانوا يفعلونه عند البيت»[1].

وقال: «[وهذا على خلاف][2] أحوال العلماء [الذين][2] يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموّتون»[3].

وقال: «وقال شيوخ الصوفية:

المراد بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾[4] استغراق الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلاً.

قال ابن العربي:

وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلّا واجباً لا نفلاً، فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغّب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات، يسترسل عليها الندب على البدل، لا على العموم، وليس ذلك في قوّة البشر»[5].

فهذه عبارات الإمام القرطبي في هذا الذّكر البدعي، فيا ليت أولئك الذاكرين على نغمات موزونة، وحركات متطابقة، إنْ لم يخضعوا لأقوال هذا الإمام ـ وغيره كثير ـ، أنْ تقوم بها في نفوسهم شبهة في حلّ فعلها، والتلبّس بها. والملاحظ من خلال التأمّل في كلام القرطبي السابق أنه متأثّر بشيخه أحمد بن عمر. فقد نقل عنه ابنُ حجر قوله: «. . . وأما ما ابتدعته الصوفية في ذلك، فمن قبيل ما لا يُختلفُ في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلَبَتْ على كثير ممّن يُنْسَبُ إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ٤٠٠).
(٢) ما بين المعقوفتين من إضافتنا.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٦/ ٢٥٨).
(٤) سورة هود: آية رقم (١١٤).
(٥) الجامع لأحكام القرآن: (٩/ ١٠٩).

الخير، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فَعَلاتُ المجانين والصّبيان، حتى رقصوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقح بقومٍ منهم إلى أن جعلوها من باب القُرَب وصالحِ الأعمال، وأنّ ذلك يُثمِرُ سَنِيًّ الأحوال. وهذا على التحقيق: من آثار الزندقة، وقولِ أهل المَخْرَمَة، والله المستعان»[1].

ومن اللطائف في هذا الباب: ما ذكره القاضي عياض في ترجمة (الإمام مالك)، قال ما نصّه:

«قال التّنِّسيُّ: كنّا عند مالك، وأصحابُه حولَه، فقال رجل من أهل نَصِيبين: عندنا قوم يُقال لهم (الصوفية)، يأكلون كثيراً، ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون فيرقُصون؟ فقال مالك: أصبيانٌ هم؟ قال: لا، قال: أمجانينٌ هم؟ قال: لا، هم قومٌ مشايخ، وغيرُ ذلك، عقلاء، فقال مالك: **ما سمعتُ أنّ أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا**. فقال له الرجل: بل يأكلون، ثم يقومون ويرقصون دَوَائبَ، ويلطمُ بعضُهم رأسه، وبعضُهم وجهَه، فضحك مالك، ثم قام فدخل منزله، فقال أصحاب مالك للرجل: لقد كنتَ يا هذا مشؤوماً على صاحبنا، لقد جالسناه نيّفاً وثلاثين سنة، ما رأيناه ضحك إلّا في هذا اليوم!»[2].

* ضلالهم في تعظيم مشايخهم

قال رحمه الله تعالى: «إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل:

نحن أَوْلى بالسّجود لك من الشجرة والجمل الشارد فقال لهم:

«لا ينبغي أن يُسْجد لأحدٍ إلّا لله ربِّ العالمين».

---

(١) فتح الباري: (٢/٣٦٨). قال ابن حجر عقِب القول المذكور: «وينبغي أن يُعكَس مُرادُهم، ويُقرأ: يُثمِرُ سَيِّءَ الأحوال عِوَض سَنِيِّ الأحوال».

(٢) ترتيب المدارك: (٢/٥٤).

وروى ابن ماجه في «سُننه» والبُسْتيّ في «صحيحه» عن أبي واقد قال:

لمّا قَدِمَ معاذ بن جبل من الشام، سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا؟».

فقال: يا رسول الله، قَدِمتُ الشام، فرأيتُهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردتُ أن أفعل ذلك بك.

قـــال:

«لا تفعل، فإني لو أَمَرْتُ شيئاً أن يسجد لشيءٍ، لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها، لا تؤدّي المرأةُ حقَّ ربِّها، حتى تؤدّي حقَّ زوجها، حتى لو سألها نفسها على قَتَبٍ[1] لم تمنعه».

لفظ البُسْتي.

وفي بعض طرق معاذ:

ونهى عن السجود للبشر، وأمر بالمصافحة.

ثم عقّب على ذلك مبيّناً ضلال الصوفية في سجودهم لمشايخهم، فقال:

«وهذا السجود المنهيّ عنه، قد اتخذه جُهّالُ المتصوّفة، عادةً في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه، يسجد للأقدام لجهله، سواء أكان للقبلة أم غيرها، جهالة منه، ضَلَّ سَعْيُهم، وخاب عملهم»[2].

---

(١) معنى (القتب): أن العرب يعِزُّ عندهم وجود كرسي للولادة، فيحملون نساءهم على قتب (رحل صغير على قدر السنام) عند الولادة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١/٢٩٣ ـ ٢٩٤).

* **ضلالهم في معاقبتهم أنفسهم**

قال رحمه الله تعالى: «قال ابن عطيّة:

استدلَّ العُبَّادُ في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفريق الأموال، والضرّاء في الحمل على الأبدان بالجوع والعُري بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُممٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُوْنَ ﴾[1]».

ثم عقب عليه بقوله:

«هذه جهالة ممّن فعلها، وجعل هذه الآية أصلاً لها، هذه عقوبة من الله لمَن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياساً عليها، فإنها المطية التي نبلغ عليها دار الكرامة، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة، وفي التنزيل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾[2] وقال:

﴿يَا أَيُهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[3]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[4]. فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون الطيبات، ويلبسون أحسن الثياب، ويتجمّلون بها، وكذلك التابعون بعدهم وهلمّ جراً.

ولو كان كما زعموا واستدلّوا، لما كان في امتنان الله تعالى بالزّروع والجنّات وجميع الثمار والنبات والأنعام التي سخّرها، وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها، إلى غير ذلك ممّا امتنّ به، كبير

---

(١) سورة الأنعام: آية رقم (٤٢).
(٢) سورة المؤمنون: آية رقم (٥١).
(٣) سورة البقرة: آية رقم (٢٦٧).
(٤) سورة البقرة: آية رقم (١٧٢).

فائدة، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله ﷺ، وأصحابه، وَمَنْ بعدهم من التابعين والعلماء»(١).

وقال أيضاً: «وفي قوله تعالى:

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾(٢) دليل على جواز أكل الطيّبات، والمطاعم والمستلذّات، وكان النبيّ ﷺ يحبّ الحَلْوى والعَسَل، ويشرب الماء البارد العَذْب»(٣).

وقال: «وقد استدلّ بعضُ جُهّال المتصوفة بقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾(٤)، على جواز رَمْي الثياب إذا اشتدّ طربُهم على المَغْنى. ثم منهم مَنْ يرمي بها صِحاحاً، ومنهم مَن يَخْرقها ثم يرمي بها.

قـــــال:

هؤلاء في غيبة فلا يُلامون، فإن موسى عليه السلام، لما غلب عليه الغمّ بعبادة قومه العجل، رمى الألواح فكسرها، ولم يَدْرِ ما صنع.

قال أبو الفرج ابن الجوزي:

مَنْ يصحّح عن موسى عليه السَّلام أنه رماها رَمْيَ كاسر؟ والذي ذُكِرَ في القرآن ألقاها، فمن أين لنا أنها تكسَّرت؟ ثم لو قيل: تكسّرت، فمن أين لنا أنه قصد كسرها؟ ثم لو صحّحنا ذلك عنه، قلنا: كان في غيبة، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه.

ومَن يصحّح لهؤلاء غيبتهم، وهم يعرفون المغنى من غيره، ويحذرون من بئر لو كانت عندهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥).
(٢) سورة البقرة: آية رقم (٦١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٤٢٩).
(٤) سورة الأعراف: آية رقم (١٥٠).

ثم كيف تُقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلاء السُّفَهاء!!.

وقد سُئِلَ ابن عقيل عن تواجدهم وتخريقهم ثيابهم، فقال: خطأ وحرام، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال.

فقال له قائل:

فإنهم لا يعقلون ما يفعلون.

فقـــال:

إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أنَّ الطَّرب يغلِبُ عليهم، فيُزيل عقولهم، أثموا بما أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفسدوا، ولا يسقط عنهم خطاب الشّرع، لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هذا الموضع الذي يُفضِي إلى ذلك، كما هم منهيُّون عن شرب المُسكِر، كذلك هذا الطَّرَب الذي يسمّيه أهل التصوّف وَجْدَاً إن صدقوا أن فيه سُكْرَ طبع، وإن كذبوا أفسدوا مع الصَّحْو، فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنّب مواضع الرِّيَب واجبٌ»[1].

وقال: «وقد استدلّ الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا[2].

وهو استدلال فاسد، لأنه لا يجوز أن يُنسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد... فأما إفساد ثوب صحيح، لا لغرض صحيح، فإنه لا يجوز، ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل، ولا يكون في شرعنا»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٧/٢٨٨ ـ ٢٨٩).
(٢) الوارد في قوله تعالى: ﴿ردُّوها عليَّ فطفق مسحاً بالسُّوق والأعناق﴾ [سورة ص: آية رقم (٣٣)].
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/١٩٧).

رأينا مناقشة الإمام القرطبي للصوفية في مسائل نازعهم في الاستدلال بالآيات عليها، وأنها عليهم لا لهم، ناطقة ببطلان مذهبهم، وفساد رأيهم، وكذلك فعل معهم في مسائل عديدة كثيرة غير المذكورة. مثل مسألة (الصوفية والتوكّل)[1] و(الصوفية والمال)[2]و(تمكين النفس من شهوة الأشياء الملذّة)[3] و(الصوفية والفكر)، فإنه ذمّ طريقتهم في ذلك. فقال نقلاً عن ابن العربي المالكي: «فأما طريقة الصوفية: أن يكون الشيخ منهم يوماً وليلةً، وشهراً، مفكّراً، لا يفتر، فطريقةٌ بعيدة عن الصواب، غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة على السُّنن»[4].

هذا، وربما نازع الصوفية بالاستدلال بنصٍّ قرآني على أمرٍ ما، ويوافقهم في حكم هذا الأمر، ولكن ينازعهم في جعل النص دليلاً عليه. فقال ـ مثلاً ـ في الردّ عليهم في تحقيرهم للدنيا؛ والاستلال على ذلك بالتفسير الإشاري في قصة طالوت وجالوت، ما نصّه: «ما أحسن هذا! لولا ما فيه من التحريف في التأويل، والخروج عن الظاهر، لكن معناه صحيح من غير هذا»[5].

ومن كثرة المخالفات التي كان يتلبّس بها متصوّفة زمانه، أطلق عليهم ما قاله الطرطوشي فيهم، وقَبِلَهُ أبو عبد الله القرطبي، وارتضاه، فقال:

---

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن»: (٤/٧٢ ـ ٧٣، ١٨٩ ـ ١٩٠، ١٩٥، ٢٥٣) و(٥/١٥٦، ٢٨٣) و(٩/٣٧٠) و(١٠/١٣٨) و(١١/٢٤، ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ٣٢١) و(١٧/٤٣).
(٢) راجع: «الجامع لأحكام القرآن»: (٣/٢٦٦، ٤١٧ ـ ٤٢٠).
(٣) راجع: «الجامع لأحكام القرآن»: (٦/٢٦٣ ـ ٢٦٤) و(٧/١٩٩) و(١٠/١٢٧، ٢٩٥ ـ ٢٩٦).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن»: (٤/٣١٥).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن»: (٣/٢٥١).

«سُئِلَ الإمام أبو بكر الطُّرْطوشي رحمه الله:

ما يقول سيّدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟.

وأُعلِم ـ حرس الله مدّته ـ أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد ﷺ، ثم إنهم يُوقعون بالقضيب على شيءٍ من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد، حتى يقع مغشيّاً عليه، ويحضرون شيئاً يأكلونه.

هلى الحضور معهم جائز أم لا؟.

أفتونا مأجورين، يرحمكم الله.

وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخُ كفَّ عن الذُّنوبْ ... قبلَ التَّفرُّق والزَّلَلْ

واعْمَلْ لنفْسِك صالحاً ... ما دام ينفعك العَملْ

أما الشبابُ فقد مَضَى ... ومَشيْب رأسكَ قد نَزَلْ

وفي مثل هذا ونحوه.

الجواب:

يرحمك الله، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله، وسُنّة رسوله، وأما الرقص والتواجد، فأوّل مَنْ أحدثه أصحاب السامريّ، لمّا اتخذ لهم عجلاً جسداً له خُوَار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفّار، وعبّاد العجل.

وأما القضيب فأوّل مَنْ اتخذه الزَّنادقة، ليشغلوا به المسلمين عن

كتاب الله تعالى. وإنما كان يجلس النبيّ ﷺ مع أصحابه، كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوّابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق»[1].

* ردود القرطبي على الشيعة

* تمهيـــد

من الحقائق المعروفة عن بيئة الصعيد إبّان القرن السابع الهجري «أنّ التشيّع كان منتشراً بها، فاحتاج الفقهاء والعلماء في الدولة الأيوبية إلى مجهودات كبيرة، حتى يخفّ بها مذهب الشيعة»[2]، ومن بين الجهود التي بذلها العلماء في الردّ على الشيعة جهد الإمام القرطبي، الذي أولى الشيعة وبيان آرائهم الفاسدة، وعقائد الروافض الخبيثة اهتماماً بليغاً. وقبل أن نبيّن آراء القرطبي وردوده على الشيعة بالتفصيل، لا بدّ من الإشارة إلى أن خلافنا مع الروافض خلاف عقدي، نابع من اختلافنا: هل القرآن الذي بين أيدينا ـ معشر أهل السُنّة ـ هو الذي أنزل على سيّدنا محمد ﷺ؟ فيزعم الشيعة أن القرآن الذي بين أيدينا اعتراهُ نقصٌ وتحريف، كما فصّله القرطبي فيما مضى في (الفصل الخامس)[3] ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾.

قال ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١١/٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٢) الحركة الفكرية: (ص ١٦٧ ـ ١٦٨).

(٣) انظر (صفحة ١٠٨ حتى ١١٨). وراجع كتاب الشيخ إحسان إلّهي ظهير ـ رحمه الله تعالى ـ: «الشيعة والقرآن».

«إن دعوى الشيعة ليست حجّة على القرآن، ولا على المسلمين؛ لأنهم ليسوا منّا، ولسنا منهم»[1].

وفي هذه الصفحات يظهر لك ـ أخي القارىء ـ حقيقةُ الشيعة، بلا صراخ ولا عويل، وبلا هوًى ولا ميل، إذ كفانا الإمامُ القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ مؤنة ذلك، فقصدنا إلى جمع كلامه في الشيعة[2]، الدَّالِّ على فساد عقائدهم ووبال عاقبتهم، عسى أن يتبيَّن الغافلون من أهل السُّنّة الحقيقة، ويخرجون عن غفلتهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويتوبون عن دعوى التقريب بين السُّنّة والشيعة ـ زعموا ـ ويقولون:

«لو كانت الدُّنيا؛ كانت المقاربة، ولكنه الدِّين»[3].

يقول السيد محمود شكري الألوسي في «مختصر التحفة الاثني عشرية» (ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢):

«ومَن استكشف عن عقائدهم الخبيثة، وما انطووا عليه؛ علم أن ليس لهم في الإسلام نصيب، وتحقّق كفرُهم لديه، ورأى منهم كل أمر عجيب، واطّلع على كل أمر غريب، وتيقّن أنهم قد أنكروا الحسِّيَّ، وخالفوا البديهيَّ الأوَّليَّ، ولا يخطر ببالهم عتاب، ولا يمرّ على أذهانهم عذاب أو عقاب، فإن جاءهم الباطل؛ أحبّوه ورضوه، وإذا جاءهم الحق؛ كذَّبوه وردُّوه:

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنِحَل: (٢/ ٧٨ و٤/ ١٨١ و١٨٢).
لما كان ابن حزم يناظر (قسس أسبانيا) في صحة (الإنجيل وأسفار التوراة)، ويفتخر أن (القرآن) لا يتطرّق أيّ شك إلى صحته، وتواتر كل حرف من حروفه، احتجُّوا عليه بأنّ الشيعة تعلن تحريف القرآن، وأنّ فيه زيادة ونقصاً، فقال لهم العبارة المذكورة.

(٢) وذلك من خلال تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»، وله كلام يسير عن الرافضة في كتابه «التذكرة»: (ص ٣٠٢، ٦٦٨، ٣٢١ ـ ط السقّا).

(٣) من كلام الإمام الأوزاعي، كما في «الضعفاء الكبير» للعقيلي: (١/ ١٧٩).

﴿ مَثَلُهُم كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً فلمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنورِهِمْ وتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُمْ لا يَرْجِعونَ ﴾[1].

ولقد غشي على قلوبِهُم الران، فلا يَعُوْنَ ولا يسمعون، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، ولقد تعنّتوا بالفسق والعصيان في فروع الدين وأصوله، فصدّق ظنُّ إبليس، فاتّبعوه من دون الله ورسوله، فيا ويلهُم من تضييعهم الإسلام، ويا خسارَتَهم مما وقعوا فيه من حيرة الشبه والأوهام.

فلو التفتَّ إلى ما هُم عليه في هٰذا الزمان؛ لوجدتَهُم في صريح من الضلال والخسران؛ لأنهم إلى الحق لا يلتفتون، ولا بمثل ذلك يعبؤون، بل هم بالدين يستهزئون، ولو أنك ذكرتَ لهُم شيئاً من مثالبهم، وصرّحتَ بشيء من عيوبهم؛ أخَذَتْهُم العزّةُ بالإثم، وصار ذٰلك عندهم من أنكر المناكر، حيث إنهم قد فرحوا بما عندَهم من الجهل، وما انطووا عليه من خبث السرائر، حتى كأنهم للدنيا خُلِقوا، فهم لها في جميع أحوالهم يعملون، وعلى دقائق شؤونها بأفكارهم يغوصون، وبالمتاعب وتحمّل المشاقّ فيها إلى الموت يتردَّدون، ولبئس ما كانوا يصنعون.

فالاشتغال بعلومهم، وردُّ ما ادّعوه من كتبهم من أصولهم وفروعهم أولى ممّن خالف أهل الحق بإعداد العدد، وأحقُّ من هٰؤلاء بما نستمدُّه من كل برهان وسند، كيف لا وهم قد وافقونا في لباسنا، وزاحمونا في أملاكنا، ونفثوا بسحرهم في أسلاكنا، بحيث يخفى ما ألقوه من الدسائس في عباراتهم، ويذهب على كثير من الناس ما يصدر عنهم من لحن القول في محاوراتهم.

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٧ ـ ١٨).

حتى إن كثيراً منهم يبرأ من بدعته، ويلتزم ما التزمه أهل السُنّة في طريقته، بحيث تخفى حاله على كل أحد، ولا يتبيّن أمره إلّا لمَن عَرَف ونقد، فيتوصل بذلك إلى شبهٍ ودسائسَ يلقيها في كلامه لأجل إضلال مخاطبه من حيث لا يشعر بمقصوده ولا يدري بمرامه!.

فمنهم مَن ألّف كتاباً في مناقب الإمام الشافعي، وأودع فيه من الدسائس الرافضية ما يخفى إلّا على المتبحّر، ومنهم مَن ألّف في مذاهب المجتهدين، وذكر فيها ما يخالف مذهبهم قصداً إلى ترويج مذهبه، وإبطال مذهب أئمة الدين.

فهم أعداء أنبياء الله تعالى ورُسُله، والمُحرّفون لكلام الشريعة عن موضعه ومحله، ولعمر الله إن هٰؤلاء الطغام الحيارى أضرُّ على عوامِّ المسلمين من اليهود والنصارى، فالحَذَرَ الحذَرَ منهم، والفرارَ والفرارَ عنهم.

والزم أيها الأخ الطالب للنجاة من الارتباك في ورطة الشُّبَهِ والتمويه، وعليك بالسلوك في طريق الهدى، ولا يضرّك قلّة السالكين، وإياك وطرق الضلال وشبه المبتدعين، ولا تغترَّ بتوافر الملحدين، وكثرة الهالكين، وكن حريصاً على التفتيش عمّا كان عليه الصحابة من الأحوال، متتبّعاً ما كانوا يتحرَّوْنه من الأعمال، فهم السواد الأعظم، والواقفون من الهداية المحمَّدية على ما لم نعلم، ومنهم يُعْرَف الحسن من القبيح، والمرجوحُ من الرجيح، فمَن اتّبع غير سبيل المؤمنين؛ فهو الحقيق بوعيد ربّ العالمين؛ قال تعالى تعليماً لعباده وتذكيراً:

﴿ ومَن يُشاقِقِ الرَّسولَ مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لهُ الهُدَى ويَتَّبِعْ غيرَ سبيلِ المؤمنين نُوَلّه ما تولَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّم وساءَتْ مصيراً ﴾[1].

---

(١) سورة النساء: آية رقم (١١٥).

ومَن نظر بعين بصيرته، وأمعنَ الفكر في طريق الاتّباع وحقيقته، فحاد وابتدع، وللهوى والأطماع اتّبع؛ كان كحاطب ليل، أو متحيِّر يدعو على نفسه بالثبور والويل، وقال تعالى في بيان طريق الهُدى وتفضيله:

﴿ وأنَّ هٰذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتَّبِعوهُ ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سبيلِهِ ﴾[1].

فحثَّ سبحانه على اتّباع سبيله الذي هو الكتاب والسُّنّة، ونهى جلّ شأنه عن اتّباع السبل مبيّناً بأن ذٰلك سبب للتفرّق والمحنة.

ولذٰلك ترى أهل السنَّة قد لزموا سبيلاً واحداً، ولم ترَ منهم زائغاً عمّا أُمروا به وحائداً.

وأما أهل البدع والأهواء، وذوو الضلال والافتراء؛ فقد افترقوا في سبلهم على حسب معتقداتهم الفاسدة، وتشتَّتوا على مقتضى آرائهم الكاسدة، فهم على ما زعموه مصرُّون، وكل حزبٍ بما لديهِم فرحون.

فإذاً؛ الواجب علينا ـ معاشر أهل السُنّة ـ اتّباعه ﷺ في جميع أقواله، والتأسِّي به في سائر أفعاله وأحواله، والاقتداء بما كان عليه أصحابه، فإنهم المبلِّغون عنه ﷺ وأحبابه؛ لأن مَن اقتدى بأولٰئك الأعلام، فقد اقتدى به ﷺ، وما أخبثَ رجلاً ترك سبيل السُّنَّة الشارِحَةِ للكتاب، واستبدل بالنعيم المقيم العذاب:

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[2]».

وقد اعتنى القرطبي ببيان فرق الرافضة، وآرائهم الزائفة، فقال رحمه الله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام: آية رقم (١٥٣). (٢) سورة النور: آية رقم (٦٣).

* **أقسام الروافض:**

«انقسمت الرافضة اثنتي عشرة فرقة:

[١] العلوية:

قالوا: إن الرسالة كانت إلى علي، وإن جبريل أخطأ.

[٢] والأمرِيَّة:

قالوا: إن عليّاً شريكُ محمدٍ في أمره.

[٣] والشيعة:

قالوا: إن عليّاً ـ رضي الله عنه ـ وصيُّ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ووليُّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره.

[٤] والإسحاقيّة:

قالوا: إن النبوَّة متّصلةٌ إلى يوم القيامة، وكلُّ مَن يعلم علم أهل البيت؛ فهو نبيٌّ.

[٥] والنَّاووسيَّة:

قالوا: عليٌّ أفضلُ الأمَّة، فمَن فضَّل غيره عليه؛ فقد كفر.

[٦] والإماميَّة:

قالوا: لا يمكن أن تكون الدُّنيا بغير إمامٍ من ولد الحسين، وإن الإمام يعلِّمه جبريل ـ عليه السلام ـ، فإذا مات؛ بُدِّلَ غيره مكانَه.

[٧] والزَّيدية:

قالوا: ولد الحسين كلُّهم أئمة في الصَّلوات، فمتى وُجِد منهم أحد؛ لم تجز الصلاةُ خلف غيرهم؛ برِّهم وفاجِرِهم.

[٨] والعبَّاسية:

زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره.

[٩] والتَّناسخية:

قالوا: الأرواح تتناسخ، فمَن كان محسناً؛ خرجت روحه، فدخلت في خلق يسعد بعيشه.

[١٠] والرَّجعية:

زعموا أن عليّاً وأصحابه يرجعون إلى الدُّنيا، وينتقمون من أعدائهم.

[١١] واللاَّعنة:

يلعنون عثمان، وطلحة، والزُّبير، ومعاوية، وأبا موسى، وعائشة وغيرهم.

[١٢] والمتربِّصة:

تشبَّهوا بزيِّ النُّساك، ونصبوا في كلِّ عصرٍ رجلاً ينسبون إليه الأمر، يزعمون أنه مهديُّ هٰذه الأمة، فإذا مات؛ نصبوا آخر[١].

* الشيعة من أهل البِدَع:

وبيَّن أنهم ـ جميعاً ـ من أهل البِدَع المطرودين عن حوض رسول الله ﷺ، فقال بعد أن سرد الأحاديث التي فيها قول النبيّ ﷺ لمَن غيّر وبدّل بعده «سُحقاً سُحْقاً»، ما نصّه:

«فمَن بدَّل، أو غيَّر، أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله، ولم يأْذن به الله؛ فهو من المطرودين عن الحوض، المبتعِدين منه، المسوَّدي الوجوه.

وأشدُّهم طرداً وإبعاداً مَن خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم؛ كالخوارج على اختلاف فِرَقها، والروافض على تباين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤/١٦٣).

ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهٰؤلاء كلُّهم مبدِّلون ومبتدِعون.

وكذٰلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم، وطمس الحق، وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفُّون بالمعاصي، وجماعة أهل الزَّيْغ والأهواء والبِدَع؛ كلٌّ يخاف عليهم أن يكونوا عُنوا بالآية»[1].

*** مغالاة الشيعة في عليّ رضي الله عنه**

وبيَّن ضلالهم ومغالاتهم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وادّعائهم استخلاف النبيّ ﷺ له على جميع الأمة، فقال رحمه الله:

«في «صحيح مسلم» عن سعد بن أبي وقَّاص قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لعليٍّ حين خلفه في بعض مغازيه:

«أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلّا أنه لا نبيَّ بعدي»[2].

فاستدلّ بهٰذا الروافضُ والإماميةُ وسائرُ فِرَقِ الشيعة على أن النبيّ ﷺ استخلف علياً على جميع الأمَّة!! حتى كفَّر الصحابةَ الإماميةُ - قبّحهم الله -؛ لأنهم - عندهم - تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف عليّ، واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم.

ومنهم مَن كفَّر عليّاً؛ إذ لم يقم بطلب حقه.

---

(١) أي: قوله تعالى: ﴿ يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ﴾، وما سبق من «الجامع لأحكام القرآن»: (٤/١٦٧ - ١٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح»: (٤ / ١٨٧٠) وعبد الرزاق في «المصنّف»: (١١/٢٢٦) وأحمد في «المسند»: (١/١٧٧) و«فضائل الصحابة»: (٢/٥٦٧ - ٥٦٨).

وهٰؤلاء لا شك في كفرهم، وكفر مَن تبِعَهُم على مقالتهم.

ولم يعلموا أنَّ هٰذا استخلاف في حياةٍ؛ كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكِّل أو بموته، لا يقتضي أنه متمادٍ بعد وفاته، فينْحلُّ على هٰذا ما تعلق به الإماميةُ وغيرُهم.

وقد استخلف النبيّ ﷺ على المدينة ابن أُم مكتوم، وغيره، ولم يلزم من ذلك استخلافاً دائماً بالاتّفاق.

على أنه قد كان هارون شُرِّكَ مع موسى في أصل الرسالة، فلا يكون لهم فيه على ما راموه دلالة، والله الموفّق للهداية»[1].

* أسباب هذه المغالاة

وبيَّن أيضاً أسباب هذه المغالاة من خلال كلامه على (الإمامة)، ولعلّ هذه القضية من أهم القضايا التي تناولها المسلمون بالحوار، واختلفت بهم السبل بسببها، حتى صار لكل الفِرَق رأي فيها، ولا نغرب إذا قلنا: إنّ الخلاف حولها كان سبباً في نشأة الفِرَق العديدة بين المسلمين، حتى قال الشهرستاني: «ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلّ على الإمامة في كل زمان»[2]، قال القرطبي رحمه الله تعالى: «قالت الرافضة:

يجب نصب الإمام عقلاً، وإن السمعَ إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل، فأما معرفة الإمام؛ فإن ذٰلك مدرَك من جهة السمع دون العقل.

وهٰذا فاسد؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر، ولا يُقبِّح ولا يحَسِّن، وإذا كان كذٰلك؛ ثبت أنها واجبة من جهة الشرع، لا من جهة العقل، وهٰذا واضح.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٧/٢٧٧).

(٢) المِلل والنِحَل: (١/٢٢) على هامش «الفصل».

فإن قيل: إذا سُلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع؛ فخبِّرونا: هل يجب من جهة السمع بالنصِّ على الإمام من جهة الرسول ﷺ، أم من جهة اختيار أهل الحلِّ والعقد له، أم بكمال خصال الأئمة فيه، ودعاؤه مع ذٰلك إلى نفسه كافٍ فيه؟!.

فالجواب أن يقال: اختلف الناس في هٰذا الباب، فذهبت الإماميةُ وغيرُها إلى أن الطريق الذي يُعرف به الإمام هو النصُّ من الرسول ـ عليه السلام ـ ولا مدخل للاختيار فيه.

وعندنا: النظر طريق إلى معرفة الإمام، وإجماع أهل الاجتهاد طريق إليه، وهٰؤلاء الذين قالوا: لا طريق إليه إلا النَّصُّ؛ بَنَوْه على أصلهم: أن القياس والرأي والاجتهاد باطل، لا يُعرَف به شيء أصلاً، وأبطلوا القياس أصلاً وفرعاً.

ثم اختلفوا على ثلاث فِرَق:

فرقة تدَّعي النصَّ على أبي بكر.

وفرقة تدَّعي النصَّ على العباس.

وفرقة تدَّعي النصَّ على عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

والدَّليل على فقدِ النصِّ وعدمه على إمام بعينه هو: أنه ﷺ لو فرض على الأمة طاعة إمامٍ بعينه، بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره؛ لعُلِمَ ذٰلك، لاستحالةً تكليف الأمة بأسرها طاعة الله في غير معيَّن، ولا سبيل لهم إلى العلم بذٰلك التكليف.

وإذا وجب العلم به؛ لم يَخْلُ ذٰلك العلم من أن يكون طريقُه أدلة العقول، أو الخبر.

وليس في العقل ما يدلُّ على ثبوت الإمامة لشخص معيَّن.

وكذٰلك ليس في الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيَّن؛ لأن

ذٰلك الخبر إما أن يكون متواتراً، أوجب العلم ضرورةً أو استدلالاً، أو يكون من أخبار الآحاد.

ولا يجوز أن يكون طريقُهُ التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالةً، إذ لو كان كذٰلك؛ لكان كلُّ مكلَّفٍ يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذٰلك المعيَّن، وأن ذٰلك من دين الله عليه؛ كما أنَّ كل مكلَّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات، وصوم رمضان، وحجّ البيت، ونحوها، ولا أحد يعلم ذٰلك من نفسه ضرورة، فبطلت هٰذه الدعوى.

وبطل أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد؛ لاستحالة وقوع العلم به. وأيضاً؛ فإنه لو وجب المصير إلى نقل النصِّ على الإمام بأيٍّ وجه كان؛ وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس؛ لأن لكل واحد منهما قوماً ينقلون النصَّ صريحاً في إمامته، وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنصِّ في وقت واحد؛ كذٰلك الواحد، إذ ليس أحد الفِرَق أولى بالنص من الآخر.

وإذا بطل ثبوت النص لعدم الطريق الموصل إليه؛ ثبت الاختيار والاجتهاد.

فإن تعسَّف متعسِّف، وادّعى التواتر والعلم الضروري بالنص؛ فينبغي أن يقابَلوا على الفور بنقيض دعواهم في النص على أبي بكر، وبأخبار في ذٰلك كثيرة، تقوم أيضاً في جملتها مقام النصِّ.

ثم لا شك في تصميم مَن عدا الإماميَّة على نفي النص، وهم الخلق الكثير، والجمُّ الغفير، والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه مَن ينحطُّ عن معشار أعداد مخالفي الإمامية، ولو جاز ردُّ الضروري في ذٰلك؛ لجاز أن ينكر طائفة بغداد والصين الأقصى وغيرها»[١].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

وردّ على استدلال الإمامية بالأحاديث التي فيها النص على عليّ، وناقش زعمهم أن الأمة كفرت بهذا النص وارتدّت وخالفت أمر الرسول ﷺ عناداً، من مثل قوله ﷺ: «مَن كنت مولاه، فعليّ مولاه، اللّهمّ والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه»، فنقل عنهم قولهم:

«والمولى في اللغة بمعنى أوْلى، فلما قال: «فعليٌّ مولاه» بفاء التعقيب؛ عُلِمَ أن المراد بقوله: «مولى»؛ أنه أحقّ وأولى، فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة، وأنه مفترض الطاعة».

ومن مثل قوله ﷺ: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنه لا نبيّ بعدي». فنقل عنهم قولهم:

«ومنزلة هارون معروفة، وهو أنه كان مشاركاً له في النبوَّة، ولم يكن ذلك لعليٍّ، وكان أخاً له، ولم يكن ذلك لعليٍّ، وكان خليفة، فعُلِم أن المراد به الخلافة».

ثم أخذ في الردّ عليهم، فقال رحمه الله تعالى:

«والجواب عن الحديث الأول: أنه ليس بمتواتر، وقد اختلف في صحته[1]، وقد طعن فيه أبو داود السجستاني، وأبو حاتم الرازي، واستدلّا على بطلانه بأنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«مُزَيْنَة وجُهَيْنة وغِفار وأَسْلَم مواليَّ دون الناس كلهم، ليس لهم مولى دون الله ورسوله».

قالوا:

فلو كان قد قال: «مَن كنتُ مولاه؛ فعليٌّ مولاه»؛ لكان أحد الخبرين كذباً!!.

---

(١) والصواب أن الحديث صحيح، له طرق كثيرة، جمعها ابن عقدة في كتاب مفرد، قال الحافظ في «الفتح»؛ (٧/٧٤): «منها صحاح، ومنها حسان». وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤/٣٤٣).

جواب ثانٍ:

وهو أن الخبر، وإنْ كان صحيحاً، رواه ثقةٌ عن ثقةٍ؛ فليس فيه ما يدلُّ على إمامته، وإنما يدلُّ على فضيلته، وذٰلك أن المولى بمعنى الوليّ، فيكون معنى الخبر: مَن كنتُ وليُّه؛ فعليٌّ وليُّه؛ قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ فإنَّ اللَّهَ هُو مولاهُ ﴾[1].

أي: وليُّه.

وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أنَّ ظاهر عليٍّ كباطنه، وذٰلك فضيلة عظيمة لعليٍّ.

جواب ثالث:

وهو أن هٰذا الخبر ورد على سبب، وذٰلك أن أُسامة وعليّاً اختصما، فقال عليٌّ لأسامة: أنت مولاي. فقال: لستُ مولاك، بل أنا مولى رسول الله ﷺ. فذُكِر ذٰلك للنبيّ ﷺ، فقال:

«مَن كنتُ مولاه، فعليٌّ مولاه».

جواب رابع:

وهو أن عليّاً ـ عليه السلام ـ لما قال للنبيّ ﷺ في قصة الإفك في عائشة ـ رضي الله عنها ـ:

«النساء سواها كثير».

شقَّ ذٰلك عليها، فوجد أهلُ النفاق مجالاً، فطعنوا عليه، وأظهروا البراءة منه، فقال النبيُّ ﷺ هٰذا المقال ردّاً لقولهم، وتكذيباً لهم فيما

---

(١) سورة التحريم: آية رقم (٤).

قدّموا عليه من البراءة منه، والطّعن فيه، ولهٰذا رُوِيَ عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا:

ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلاّ ببغضهم لعليّ ـ رضي الله عنه ـ.

وأما الحديث الثاني:

فلا خلاف أن النبيّ ﷺ لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى ـ عليهما السلام[1] ـ وما كان خليفةً بعده، وإنما كان الخليفة يوشع بن نون، فلو أراد بقوله: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى» الخلافة؛ لقال: أنت منّي بمنزلة يوشع من موسى، فلما لم يقل هٰذا؛ دلّ على أنه لم يُرِد هٰذا، وإنما أراد أني استخلفتك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي؛ كما كان هارون خليفة موسى على قومه لما خرج إلى مناجاة ربِّه»[2].

* الشيعة والصحابة

وبيّن أيضاً أنّ الرافضة قد غلت في عليّ رضي الله عنه، فوضعت في فضله بعض الأحاديث؛ فقال: «وغلوّ الرافضة في حبّ عليّ ـ رضي الله عنه ـ حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله، منها: أن الشمس غابت، ففاتت عليّاً ـ رضي الله عنه ـ العصر، فرُدَّت له الشمس، وهذا من حيث النقل مُحال، ومن حيث المعنى، فإن الوقت قد فات، وعودُها طلوع متجدِّد، لا يردّ الوقت»[3].

وكذلك حكم بوضعه جماعة من المحقّقين من أهل العلم

---

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن»: (٦/ ١٣ وما بعدها).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ١٩٨).

الأقدمين، مثل ابن كثير وابن تيمية وابن الجوزي، وغيرهم[1].

وفي مقابل ذلك، ذكر الإمام القرطبي طعن الشيعة في الصحابة عامّة، وردّ عليهم بردود قويّة، من الكتاب والسُنّة، وقرّعهم على صنيعهم هذا. فقال رحمه الله تعالى: «قال ابن عبّاس: أمر الله ـ تعالى ـ بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، وهو يعلم أنهم سيُفتنون.

وقال عائشة: أُمِرْتُم بالاستغفار لأصحاب محمد، فَسَبَبْتُموهُم، سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول:

«لا تذهبُ هٰذه الأمةُ حتى يلعنَ آخرُها أوَّلَها»[2].

وقال ابن عمر:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إذا رأيتُم الذين يسبُّون أصحابي؛ فقولوا: لعن الله أشَرَّكم»[3].

وقال العوَّام بن حَوْشَب:

أدركتُ صدر هٰذه الأمة يقولون:

اذكروا محاسنَ أصحاب رسول الله ﷺ؛ حتى تَأْلَّفَ عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم، فتُجَسِّروا الناس عليهم.

وقال الشعبيُّ:

تفاضلت اليهود والنَّصارى على الرافضة بخَصْلَةٍ.

---

(١) راجع: «البداية والنهاية»: (١/٣٢٣) و«منهاج السُنّة النبوية»: (٤/١٨٩ وما بعدها) و«الموضوعات»: (١/٣٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع»: (٤/٤٩٤ ـ ٤٩٥) رقم (٢٢١٠) ضمن حديث طويل بإسنادٍ ضعيف، فيه فرج بن فضالة.

(٣) أخرجه أحمد في «الفضائل»: (١/٣٩٧) رقم (٦٠٦) والترمذي في «الجامع»: (٥/٦٩٧) وقال: «هذا حديث منكر، لا نعرفه من حديث عبيد الله بن عمر إلا من هذا الوجه. والنضر مجهول، وسيف مجهول».

سُئِلتِ اليهود: مَن خير أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى.

وسُئِلتِ النصارى: مَن خيرُ أهل ملَّتِكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى.

وسُئِلَتِ الرافضةُ: مَن شرُّ أهل ملَّتِكم؟ فقالوا: أصحاب محمد!.

أُمِروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم، فالسيفُ عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقومُ لهم راية، ولا تثبُتُ لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلما أوقدوا ناراً للحرب؛ أطفأها الله بسفكِ دمائِهم، وإدحاضِ حجَّتِهم.

أعاذنا الله وإيَّاكم من الأهواء المضلَّة»[1].

وانبنى على طعن الشيعة في الصحابة ردُّهم كثيراً من السُنّة النبويّة، وكشف عن ذلك إمامنا أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى[2].

واعلم ـ علّمني الله وإيّاك ـ أنّ مذهب الشيعة ـ قديماً وحديثاً ـ قائم على الشتم، وبيَّن العلاّمة عليٌّ القاري موقفهم وعباراتِهم الدارجة في أوانه في شتم الأصحاب، وحكم الإسلام فيمن سبَّ الشيخين ـ أبي بكر وعمر ـ خصوصاً، والصحابة عموماً، في كتابه «شمّ العوارض في ذمّ الروافض».

وبيَّن الشيخ محمد بهجة البيطار في آخر رسالته «الإسلام والصحابة الكِرام بين السُنَّة والشيعة» (ص ٦٥ ـ ٦٦) موقف الشيعة المعاصرين من الصحابة، فقال:

«وهٰذا كاتب من أوثق الكتّاب قد زار بلادهم، ورأى فيها أشياء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٦/ ٢٩).

(٢) راجع: «الجامع لأحكام القرآن»: (١/ ٣٨).

تصمُّ السميع، وتُعمي البصير، ويُسأل من مثلها العافية، فقد كتب تحت عنوان (في بلاد الشيعة):

(جُلْت في بلاد الشيعة ـ طولاً وعرضاً ـ سبعة أشهر وزيادة، وكنتُ أمكثُ في كلٍّ عواصمها أياماً أو أسابيع . . .).

إلى أن قال:

(وأوَّل شيء سمعتُه، وأنكر شيء أنكرته في بلاد الشيعة هو لعن الصِّدِّيق والفاروق وأُمَّهات المؤمنين: السيدة عائشة والسيدة حفصة، ولعن العصر الأول كافّة، في كلٍّ خطبة، وفي كل حفلة ومجلس في البدء والنهاية، وفي ديابيج الكتب والرسائل، وفي أدعية الزيارات كلها، حتى في الأسقية، ما كان يسقي ساقٍ إلا ويلعن، وما كان يشرب شارب إلّا ويلعن.

وأول كل حركة وكل عمل هو الصلاة على محمد وآل البيت، واللعن على الصدّيق والفاروق وعثمان، الذين غصبوا حق أهل البيت، وظلموهم، وهو عندهم أعرف معروف، يلتذّ به الخطيب، ويفرح عنه السامع، وترتاح إليه الجماعة، ولا ترى في مجلس أثر ارتياح إلّا إذا أخذ الخطيب فيه؛ كأن الجماعة لا تسمع إلّا إياه، أو لا تفهم غيره)».

انتهى.

وما هٰذا الأمر إلّا امتداد لبغض قديم من أسلافهم للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، حتى وصل حالهم إلى الكتابة على أبواب المساجد لعن أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم[1] ـ.

بل كان بعض فِرَقهم يأخذ البغل أو الحمار، ويضربه، ويعطّشه، ويُجيعه، على أن روح أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فيه؛ إيماناً

(١) كما في «البداية والنهاية» (١١/ ٢٤٠) و«الكامل»: (٨/ ٥٤٩).

منهم بتناسخ الأرواح، وكذلك يفعلون بالعنزة على أن روح عائشة فيها[1].

بل صنَّف الكركي صاحب الحظوة عند الشاه طهماسب رسالةً بعنوان: «نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت»، وكان لا يركب، ولا يمضي؛ إلاّ والسبَّاب يمشي في ركابه؛ مُجاهراً بلعن الشيخين، ولا يزال المتشيعون الفرس يذكرون مقتل عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى يومنا هٰذا، فيحتفلون بمقتله كل عام[2].

فبالله كيف يكون حال مَن نشأ في إقليم لا يكاد يُشاهد فيه إلاّ غالياً في الحبِّ، مُفرطاً في البغض، ومن أين يقعُ له الإنصاف والاعتدالُ؟!.

فنحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمانٍ قد انمحص فيه الحقُّ، واتَّضح من الطَّرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصَّرْنا، فعذرْنا، واستغفرْنا، وأحببْنا باقتصاد، وترحَّمنا على البُغاة بتأويل سائغ في الجملة، أو بخطإٍ ـ إن شاء الله ـ مغفور، وقلنا كما علمنا الله:

﴿رَبَّنا اغْفِرْ لنا ولإخوانِنا الذينَ سَبَقونا بالإيمانِ ولا تَجْعَلْ في قُلوبِنا غِلًّا للذينَ آمَنوا﴾[3].

ونجد القرطبي في ثنايا مباحث مناقشاته مع الروافض يذكر عنهم طعنهم في كبار الصحابة، مثل: عمر بن الخطاب[4]، وعائشة، رضي الله عنهم، فذكر ـ مثلاً ـ أنهم يحملون إتمامها في الصلاة من غير

---

(١) كما قال ابن حزم في «الفصل»: (١٨٢/٤).
(٢) انظر: «التشيّع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي»: (٢٧٤).
(٣) سورة الحشر: آية رقم (١٠)، وراجع «السير»: (١٢٨/٣).
(٤) راجع: «الجامع لأحكام القرآن»: (٢٩/٦).

قصر، مع أنها في السفر، بقولهم: «إنها حيث أتمّت لم تكن في سفر جائز!!» وعقّب عليه بقوله: «وهذا باطل قطعاً، فإنها كانت أخوف لله وأتقى من أن تخرج في سفر لا يرضاه» ثم قال:

«وهٰذا التأويلُ عليها من أكاذيب الشيعة المبتدعة، وتشنيعاتهم، سبحانك هٰذا بهتان عظيم!.

وإنما خرجت ـ رضي الله عنها ـ مجتهدة محتسبة، تريد أن تطفىء نار الفتنة، إذ هي أحقُّ أن يُسْتَحْيـى منها، فخرجت الأمور عن الضبط»[1].

*** قصر الشيعة آل الرسول ﷺ على فاطمة والحسن والحسين ـ رضي الله عنهم ـ والردّ على ذلك**

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالىٰ:

« آل الرسول: مَنْ هو على دينه وملَّته، في عصره وسائر الأعصار، سواء كان نسيباً له أو لم يكن، ومَن لم يكن على دينه وملَّته؛ فليس من آله ولا أهله، وإنْ كان نسيبَهُ وقريبَه؛ خلافاً للرافضة، حيث قالت:

إنَّ آل رسول الله ﷺ: فاطمة، والحسن، والحسين فقط!.

دليلنا قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾[2].

﴿ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾[3].

أي: آل دينه، إذ لم يكن له ابن ولا بنت، ولا أب ولا عمّ، ولا أخ، ولا عَصَبة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٥/٣٥٨ ـ ٣٥٩)، وانظر أيضاً: (١٤/ ١٨٠ ـ ١٨٢).
(٢) سورة البقرة: آية رقم (٥٠). (٣) سورة غافر: آية رقم (٤٦).

ولأنه لا خلاف أن مَن ليس بمؤمن ولا مُوَحِّد؛ فإنه ليس من آل محمد، وإن كان قريباً له، ولأجل هٰذا يقال: إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله، ولا من أهله، وإن كان بينهما وبين النبيِّ ﷺ قرابة، ولأجل هٰذا قال الله ـ تعالىٰ ـ في ابن نوح:

﴿ إِنَّهُ ليسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غيرُ صالحٍ ﴾[1].

وفي «صحيح مسلم»[2] عن عمرو بن العاص قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ جهاراً غيرَ سرٍّ يقول:

«ألا إنَّ آل أبي ـ يعني فلاناً[3] ـ ليسوا لي بأولياء، إنما وليِّيَ الله وصالح المؤمنين».

وقال طائفة:

آل محمد: أزواجُه، وذرِّيَّتُه خاصَّة؛ لحديث أبي حُميد الساعدي؛ أنهم قالوا: يا رسول الله! كيف نصلِّي عليك؟ قال:

«قولوا: اللّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى أزواجه وذرِّيَّتِهِ؛ كما صلَّيْتَ على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى أزواجه وذرِّيَّتِه؛ كما باركتَ على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

رواه مسلم[4].

وقالت طائفةٌ من أهل العلم:

---

(١) سورة هود: آية رقم (٤٦).
(٢) كتاب الإيمان: باب موالاة المؤمنين... (١/١٩٧) رقم (٢١٥).
(٣) هي من بعض الرواة، خشي أن يسمِّيه، فيترتَّب عليه مفسدة وفتنة، إما في حق نفسه، وإما في حقه وحق غيره، فكنَّى به، والغرض إنما هو قوله ﷺ: «إنما وليِّـي الله وصالح المؤمنين»، ومعناه: إنما وليِّـي مَن كان صالحاً، وإن بَعُد نسبُه مني، وليس وليِّـي مَن كان غيرَ صالح، وإن كان نسبُهُ قريباً.
(٤) كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبيِّ ﷺ بعد التشهّد: (١/٣٠٦) رقم (٤٠٧).

الأهل معلوم، والآل: الأتباع.

والأول أصح؛ لما ذكرناه، ولحديث عبد الله بن أبي أوفى؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه قومٌ بصدقتِهم؛ قال:

«اللّهمّ صلِّ عليهم».

فأتاه أبي بصدقته، فقال:

«اللّهمَّ صلِّ على آل أبي أوْفى»[1].

*** الردّ على الإمامية في زعمهم أن الإنسان خالق أفعال الشرّ التي يعملها**

وقد ردّ الإمام القرطبي على الشيعة في زعمهم أن الإنسان خالق لأفعال الشرّ التي يعملها، وبيّن أنهم والقدريون على مذهب سواء في ذلك، مع ملاحظة أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قرر أن «قدماء الشيعة متفقون على إثبات القدر والصفات، وإنما شاع فيهم ردّ القدر من حين اتّصلوا بالمعتزلة في دولة بني بويه»[2].

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾[3] ما نصّه:

«مذهب أهل السُّنّة أنّ الله ـ تعالى ـ أضلَّ إبليس، وخلق فيه الكفر، ولذلك نُسِبَ الإغواءُ في هذا إلى الله ـ تعالى ـ.

وخالف الإماميةُ والقدريةُ وغيرُهما شيخَهم إبليس الذي طاوعوه في كلِّ ما زيَّنه لهم، ولم يطاوعوه في هذه المسألة، ويقولون:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/٣٨١ ـ ٣٨٢)، والحديث في «صحيح البخاري»: رقم (١٤٩٧ و٤١٦٦ و٦٢٣٢ و٦٣٥٩) و«صحيح مسلم»: رقم (١٠٧٨).

(٢) منهاج السُّنّة النبوية: (٢/٢٤).

(٣) سورة الأعراف: آية رقم (١٦).

أخطأ إبليسُ ـ وهو أهل للخطأ ـ حيث نسب الغواية إلى ربِّه، تعالى الله عن ذٰلك.

فيقال لهم:

وإبليس، وإن كان أهلاً للخطأ؛ فما تصنعون في نبيٍّ مكرَّم معصوم، وهو نوح ـ عليه السلام ـ حيث قال لقومه:

﴿ لا يَنْفَعُكُم نُصْحِي إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُريدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُو ربُّكُمْ وإليهِ تُرْجَعونَ ﴾[1]».

وقال: «وقد رُوِي أن طاوساً جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متّهماً بالقَدَر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه، فقال له طاوس:

تقومُ أو تُقام؟

فقيل لطاوس: تقول هٰذا لرجل فقيه!!.

فقال: إبليس أفقهُ منه، يقول إبليس: ﴿ رَبِّ بما أَغْوَيْتَني ﴾. ويقول هٰذا: أنا أُغْوي نفسي»[2].

وقال أيضاً: «وفي قوله ـ تعالى ـ:

﴿ صِراطَ الذينَ أَنْعَمْتَ عليهِمْ ﴾[3].

ردٌّ على القدريَّة والمعتزلة والإماميَّة؛ لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه؛ طاعةً كانت أو معصيةً؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربِّه.

---

(١) سورة هود: آية رقم (٣٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ١٧٥)، وانظر أيضاً: (٩/ ٢٨).
(٣) سورة الفاتحة: آية رقم (٧).

وقد أكذبهم الله ـ تعالى ـ في هٰذه الآية، إذ سألوه الهداية إلى الصِّراط المستقيم، فلو كان الأمرُ إليهم، والاختيار بيدهم ـ دون ربِّهم ـ؛ لما سألوه الهداية، ولا كرّروا السؤال في كل صلاة.

وكذٰلك تضرُّعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾(1).

فكما سألوه ألّا يضلَّهم، وكذٰلك يدعون فيقولون:

﴿ رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنا بعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا ﴾(2) الآية»(3).

وقال في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وأَضَلَّـهُ اللهُ على عِلْمٍ وخَتَمَ على سَمْعِهِ وقَلْبِهِ وجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ ﴾(4). ما نصّه:

«فيها ردٌّ على القدرية، والإمامية، ومَن سلك سبيلهم في الاعتقاد، إذ هي مصرِّحة بمنعهم من الهداية»(5). وقال أيضاً في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرونَ الْقُرْآنَ أَمْ على قُلوبٍ أَقْفالُها ﴾(6). ما نصه:

«أي: بل على قلوب أقفال، أقفلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهم، فهم لا يعقلون.

---

(1) سورة الفاتحة: آية رقم (٧).
(2) سورة آل عمران: آية رقم (٨).
(3) الجامع لأحكام القرآن: (١٤٩/١).
(4) سورة الجاثية: آية رقم (٢٣).
(5) الجامع لأحكام القرآن: (١٦٩/١٦).
(6) سورة محمد ﷺ: آية رقم (٢٤).

وهٰذا يردُّ على القدريَّة والإمامية مذهبهم»[1].

وقال في تفسير قول الله سبحانه:

﴿ واعْلَموا أنَّ فيكُمْ رَسولَ اللَّهِ لَوْ يُطيعُكُمْ في كَثيرٍ مِن الأمْرِ لَعَنِتُّمْ ولٰكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قُلوبِكُمْ وكَرَّهَ إليكُمُ الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصْيانَ أُولٰئكَ هُمُ الرَّاشِدونَ ﴾[2]. ما نصّه:

«فيها ردٌّ على القدرية، والإمامية، وغيرهم؛ حسب ما تقدَّم.

فهو ـ سبحانه ـ المنفرد بخلق ذوات الخلق، وخلق أفعالهم وصفاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا شريك له»[3].

وبعد هذه الردود على شبه لهم في هذا الموضوع، وبيان الأدلّة التي تناقض مذهبهم، يقرّر بوضوحٍ المذهب الحق في هذه المسألة، فيقول:

«ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد، وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية، وخير الأمور أوساطها، وذٰلك أن أهل الحق قالوا:

نحن نفرّق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه، وهو أنّا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان؛ بغير محاولته وإرادته، ولا مقرونة بقدرته، وبين حركة الاختيار إذا حرَّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش، ومَن لا يفرّق بين الحركتين: حركة الارتعاش وحركة الاختيار، وهما موجودتان في ذاته، ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسَّته؛ فهو معتوه في عقله، ومختلٌّ في حسّه، وخارج من حزب العقلاء.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٦/٢٤٦).
(٢) سورة الحجرات: آية رقم (٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٦/٣١٤).

وهٰذا هو الحق المبين، وهو طريق بين طريقي الإفراط والتفريط»[1].

*** إنكار الإمامية الميزان**

عقيدة أهل السُّنّة والجماعة أن الميزان حق، وأنه ذو كفّتين[2]، وأنه ليس بمعنى العدل والقضاء، ولا غير ذلك من التأويلات، وهذا بخلاف ما ذهبت إليه الإمامية، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:

«قال ابن فُورك:

وقد أنكرت الإمامية الميزان؛ بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بأنفسها!.

ومِن المتكلِّمين مَن يقول:

إن الله ـ تعالى ـ يقلِب الأعراضَ أجساماً، فيزنها يوم القيامة!.

وهٰذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخفّ»[3].

*** الردّ على الروافض في طاعة الإمام دون إبانة مستند شرعي**

قال رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى:

﴿ ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بعضاً أرباباً مِن دونِ اللَّهِ ﴾[4] ما نصه:

«أي: لا نتَّبعه في تحليل شيء أو تحريمه؛ إلاّ فيما حلّله الله ـ تعالى ـ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٤/٩٧).
(٢) انظر تفصيل ذلك في رسالة الشيخ مرعي الكرمي «تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان» بتحقيقنا، نشر دار ابن القيِّم.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٧/١٦٥).
(٤) سورة آل عمران: آية رقم (٦٤).

وهو نظير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ اتَّخَذوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُم أَرْباباً مِن دونِ اللهِ﴾[1].

معناه: أنهم أنزلوهم منزلة ربِّهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرّمه الله، ولم يحلّه الله.

وهٰذا يدلّ على بطلان القول بالاستحسان المجرَّد، الذي لا يستند إلى دليلٍ شرعيٍ.

وفيه ردٌّ على الروافض الذين يقولون:

يجب قبول قول الإمام دون إبانة مستند شرعي، وأنه يُحِلُّ ما حرَّمه الله؛ من غير أن يبيِّن مستنداً من الشريعة»[2].

فكما أن الشيعة يرون قبول قول الإمام دون مستند شرعي، فكذلك يفعل الصوفية، ويدرك الباحث المنصف صلة قوية بين التشيّع والتصوّف، فكلاهما قائم على أسرارٍ ومعانٍ غامضات وإشارات، فالشيعة يرون أن النبيّ ﷺ خصّ عليّاً بشيء زائد عن سائر الصحابة، وكذلك يقول الصوفية، ولذا ترى أن طرقهم مسلسلة بالأسانيد غير الصحيحة لآل البيت، وكلاهما يرى في إمامه أو شيخه عصمة، فلا ينبغي أن يناقش، ويؤخذ كلامه من دون الإبانة عن المستند الشرعي له.

وهذا ما نلحظه من خلال ردّ القرطبي على الشيعة عند كلامه على (الولاية والكرامة)، فنراه يقرنهم بالصوفية، فيقول رحمه الله تعالى:

*** الولاية والكرامة عند الشيعة**

«مَن أظهر الله ـ تعالى ـ على يديه ممَّن ليس بنبيٍّ كراماتٍ

---

(١) سورة التوبة: آية رقم (٣١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٤/١٠٦ ـ ١٠٧).

وخوارقَ للعادات؛ فليس ذٰلك دالاًّ على ولايته؛ خلافاً لبعض الصوفية[1] والرَّافضة حيث قالوا:

إن ذٰلك يدلُّ على أنه وليٌّ، إذ لو لم يكن وليّاً؛ ما أظهر الله على يديه ما أظهر!.

ودليلُنا أن العلم بأنَّ الواحدَ منّا وليُّ الله ـ تعالى ـ لا يصحُّ إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمناً، وإذا لم يعلم أنَّه يموت مؤمناً؛ لم يمكنّا أن نقطع على أنه وليُّ الله ـ تعالى ـ؛ لأن الوليَّ لله ـ تعالى ـ مَن علم الله ـ تعالى ـ أنه لا يوافي إلاّ بالإيمان، ولما اتّفقنا على أنّنا لا يمكننا أن نقطع على أنَّ ذٰلك الرجل يوافي بالإيمان، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافي بالإيمان؛ علم أن ذٰلك ليس يدلّ على ولايته لله»[2].

ولم تقتصر ردود القرطبي على الشيعة على مسألة (الإمامة) و(الصحابة) وبعض الأمور (العقدية)، وإنما تعدّتها إلى مباحث فقهية معهم، ولا عجب في ذلك، فإن «تفسيره» قد اعتنى بالفقه عناية لم نرها في تفسير قطّ، وإليك أخي القارىء ثلاثة نماذج من ردوده الفقهية على الشيعة.

*** تجويزهم تعدّد النساء بأكثر من أربع نسوة والردّ عليهم**

قال في تفسير قول الله تعالى:

﴿وإِنْ خِفْتُمْ أَلّا تُقْسِطوا في اليَتامى فانْكِحوا ما طابَ لكُمْ مِن النِّساءِ مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ وإِنْ خِفْتُمْ أَلّا تَعْدِلوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم ذٰلكَ أَدْنى أَلا تَعولوا﴾[3]. ما نصه:

---

(١) انظر كلام القرطبي على (الكرامة والولاية) عند الصوفية في «تفسيره»: (١١/٢٨ ـ ٣٠ و٩/١٦٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١/٢٩٧ ـ ٢٩٨).

(٣) سورة النساء: آية رقم (٣).

«اعلم أن هٰذا العدد: مَثْنى وثُلاث ورُباع، لا يدلُّ على إباحة تسع؛ كما قاله مَن بَعُدَ فهمُهُ للكتاب والسُّنّة، وأعرض عمّا كان عليه سلفُ الأمة، وزعم أن الواو جامعة، وعَضَدَ ذٰلك بأن النبيَّ ﷺ نكح تسعاً، وجمع بينهنَّ في عِصْمته.

والذي صار إلى هٰذه الجهالة، وقال هٰذه المقالة: الرافضةُ، وبعض أهل الظاهر، فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذٰلك ثُلاث ورباع.

وذهب بعضُ أهل الظاهر إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمع بين ثماني عشرة؛ تمسُّكاً منه بأنَّ العدد في تلك الصيغ يفيد التَّكرار، والواو للجمع، فجعل مثنى بمعنى اثنين اثنين، وكذٰلك ثُلاث ورُباع.

وهٰذا كله جهلٌ باللسان والسُّنَّة، ومخالفة لإجماع الأمَّة، إذ لم يُسمع عن أحدٍ من الصحابة ولا التابعين أنَّه جمع في عصمته أكثر مِن أربع.

وأخرج مالك في «موطئه»، والنَّسائي والدارقطني في «سننهما»:

أنَّ النبيَّ ﷺ قال لغَيْلان بن أُميَّة الثَّقَفي ـ وقد أسلم وتحته عشر نسوة ـ:

«اخترْ منهنَّ أربعاً، وفارق سائرهنَّ»[1].

وأما ما أُبيح من ذٰلك للنبيِّ ﷺ؛ فذٰلك من خصوصياته[2].

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»: رقم (١١٢٨) وابن ماجه في «السنن»: رقم (١٩٥٣) وابن حبّان في «الصحيح» رقم (١٣٧٧ ـ موارد) ومالك في «الموطأ»: (٢/٥٨٦) وابن أبي شيبة في «المصنَّف»: (٧/٥١) وعبد الرزاق في «المصنف»: رقم (١٢٦٢١) وأحمد في «المسند»: (٢/٤٤) والحاكم في «المستدرك»: (٢/١٩٢ ـ ١٩٣) والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٧/١٤٩، ١٨١).
والحديث صحيح.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (١٤/٢١٢ وما بعدها).

وأما قولهم: إن الواو جامعة؛ فقد قيل ذٰلك! لكن الله ـ تعالى ـ خاطب العرب بأفصح اللغات؛ والعرب لا تدع أن تقول: تسعة. وتقول: اثنين وثلاثة وأربعة. وكذٰلك تستقبح ممّن يقول: أعطِ فلاناً أربعة ستة ثمانية، ولا يقول: ثمانية عشر.

وإنما الواو في هٰذا الموضع بدل، أي: أنكحوا ثلاثاً بدلاً من مثنى، ورباع بدلاً من ثلاث.

ولذٰلك عطف بالواو، ولم يعطف بـ (أو).

ولو جاء بـ (أو)؛ لجاز ألّا يكون لصاحب المثنى ثلاث، ولا لصاحب الثلاث رباع.

وأما قولهم: إن مَثْنى تقتضي اثنين، وثُلاث ثلاثة، ورُباع أربعة؛ فتحكُّم بما لا يوافقهم أهل اللسان عليه، وجهالة منهم.

وكذلك جَهْل الآخرين بأنَّ مَثْنى تقتضي اثنين اثنين، وثُلاث ثلاثة ثلاثة، ورُباع أربعة أربعة، ولم يعلموا أن اثنين اثنين، وثلاثاً وثلاثاً، وأربعاً أربعاً حصرٌ للعدد. ومثنى وثلاث ورُباع بخلافها. ففي العدد المعدول عند العرب زيادةُ معنى ليس في الأصل. وذٰلك أنها إذا قالت: جاءت الخيل مثنى، إنما تعني بذٰلك اثنين اثنين، أي: جاءت مزدوجة.

قال الجوهري:

وكذٰلك معدول العدد.

وقال غيره:

إذا قلتَ: جاءني قوم مثنى أو ثُلاث أو أُحاد أو عُشار؛ فإنما تريد أن جاؤوك واحداً واحداً، أو اثنين اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، أو عشرة عشرة. وليس هٰذا المعنى في الأصل؛ لأنك إذا قلت: جاءني قوم ثلاثة ثلاثة، أو قوم عشرة عشرة؛ فقد حصرت عِدَّة القوم بقولك: ثلاثة

وعشرة. فإذا قلت: جاؤوني رباع وثُناء؛ فلم تحصر عِدَّتهم. وإنما تريد أنهم جاؤوك أربعة أربعة، أو اثنين اثنين.

وسواء كثر عددهم أو قلَّ في هٰذا الباب؛ فقصرهم كل صيغة على أقل ما تقتضيه بزعمهم تحكُّم»[1].

*** الطلاق البدعي لا يقع عند الشيعة**

وردّ الإمام القرطبي على قول الشيعة في أن الطلاق البدعي لا يقع، فقال رحمه الله تعالى:

مَن طلَّق في طُهْرٍ لم يجامع فيه؛ نفَذ طلاقُه، وأصاب السُنَّة، وإنْ طلَّقها حائضاً؛ نفَذ طلاقُه، وأخطأ السُنّة.

وقال سعيد بن المسيِّب:

لا يقع الطَّلاق في الحيض؛ لأنَّه خلاف السُنّة، وإليه ذهبت الشيعة.

وفي «الصحيحين» ـ واللفظ للدارقطني ـ عن عبد الله بن عمر قال:

طلَّقت امرأتي وهي حائض، فذَكَر ذٰلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ رسولُ الله ﷺ، فقال:

«ليراجعْها، ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلّقها فيها، فإن بدا له أن يطلّقها؛ فليطلّقها طاهراً من حيضتها، قبل أن يمسَّها، فذٰلك الطَّلاق للعدَّة؛ كما أمره الله».

وكان عبد الله بن عمر طلَّقها تطليقة، فحسبت من طلاقها، وراجعها عبد الله بن عمر؛ كما أمره رسول الله ﷺ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٥/١٧ ـ ١٨).

وفي رواية عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

«هي واحدة»[1].

ثم قال معقّباً على هذا الحديث: «وهذا نص، وهو يردّ على الشيعة قولهم»، قلت: والحديث صحيح، على الرغم من أن ابن القيّم شكّك في رفع لفظة «هي واحدة»، مع قوله: «لو كانت هذه اللفظة من كلام رسول الله ﷺ ما قدّمنا عليها شيئاً، ولصرنا إليها بأول وهلة»[2].

* القول بعدم وجوب غسل الرجلين في الوضوء

وكذلك ردّ القرطبي على الشيعة في مسألة مشهورة عنهم في (مسح الرجلين في الوضوء) حتى أصبحت شِعاراً لهم، وقد بيَّن الإمام علي القاريّ ـ رحمه الله تعالى ـ أنّ قتالاً وقع بين الرافضة وطائفة، تسمى (الطبقة الأزبكية) بسبب هذه المسألة، فقال: «إنّ زيادة التعصّب والعناد والفساد في هذه الطائفة اللعينة ـ أي: الروافض ـ إنما وقعت من تعصُّبات الطبقة الأزبكية: حيث رأوا شخصاً يبتدىء في غسل الأيدي من مِرْفَقِهِ، أو مسح على رجله، أو وضع حجراً في مسجده، قتلوه، فعارضوهم بـ: إنْ غسل رجله، أو مسح رقبته[3] وأُذنه، قتلوه. وكلُّ مَن صلّى مرسلاً يديه، قتله هؤلاء، فعارضوهم أنّ مَن صلّى واضعاً يديه، قتلوه. إلى أن ازداد التعصّب بين الطائفتين. . .»[4].

وقد بيّن الإمام القرطبي أن حكم الشرع في غسل الرجلين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٨/ ١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) انظر كلاماً مفيداً في تخريج الحديث، وبيان أن طلاق الحائض يقع ويعتدّ به في «الإرواء»: (٧/١٢٤ ـ ١٣٨).

(٣) لم يصحّ عن رسول الله ﷺ حديثاً في مسح الرقبة، قاله ابن تيمية في «الفتاوى»: (٥٦/١) وتبعه ابن القيّم في «الهدي»: (٤١٩/١) و«المنار المنيف»: (ص ١٢٠). وانظر تعليقنا على كتاب «الطهور» لأبي عبيد القاسم بن سَلاَّم.

(٤) شم العوارض في ذم الروافض: (٨٦ ـ بتحقيقنا).

الوجوب، وردّ على الشيعة بقولهم بالاكتفاء بالمسح، فقال رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى:

﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلوا وُجوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ وامْسَحوا بِرؤوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعبَيْنِ﴾[١]:

«قرأ نافع وابن عامر والكسائي: ﴿ وأَرْجُلَكُم ﴾؛ بالنصب.

وروى الوليد بن مسلم عن نافع أنه قرأ: ﴿ وأَرْجُلُكُم ﴾؛ بالرفع.

وهي قراءة الحسن والأعمش سليمان.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة: ﴿ وأَرْجُلِكُم ﴾؛ بالخفض.

وبحسب هٰذه القراءات اختلف الصحابةُ والتابعون، فمَن قرأ بالنصب؛ جعل العامل: (اغسلوا)، وبنى على أن الفرض في الرجلين الغسل دون المسح، وهٰذا مذهب الجمهور، والكافَّة من العلماء، وهو الثابت من فعل النبيِّ ﷺ، واللازم من قوله في غير ما حديث.

وقد رأى قوماً يتوضؤون وأعقابُهُم تلوح، فنادى بأعلى صوته:

«ويلٌ للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء».

ثم إنَّ اللهَ حدَّهما، فقال: ﴿إلى الكَعْبَيْنِ﴾؛ كما قال في اليدين: ﴿ إلى المرافِقِ ﴾، فدلَّ على وجوب غسلهما، والله أعلم.

ومَن قرأ بالخفض؛ جعل العامل الباء.

قال ابن العربي:

«اتَّفقت العلماءُ على وجوب غسلهما، وما علمت مَن ردَّ ذٰلك سوى الطبري من فقهاء المسلمين، والرَّافضة من غيرهم، وتعلّق الطبري بقراءة الخفض»»[٢].

---

(١) سورة المائدة: آية رقم (٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»: (٦/ ٩١).

* القرطبي والفِرَق الأخرى

ولم يقتصر الإمام القرطبي على عرض آراء الشيعة والردّ عليهم، بل استعرض آراء الفِرَق الإسلامية المختلفة التي ظهرت منذ عهد الخلفاء الراشدين حتى عصره، فلقد وضح ـ مما سبق ـ أن الإمام القرطبي أنحى باللائمة على مخالفي أهل السُّنّة والجماعة، فاعتبر الخوارج والمعتزلة ومعهم الشيعة مبدّلين ومبتدعين، ولذلك ألزم نفسه بدفع شبهاتهم، وردّ مطاعنهم، وذلك قوله في مطلع «تفسيره»: «فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقلّ بالسُّنّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه منيتي، بأن أكتب تعليقاً وجيزاً يتضمن نكتاً من التفسير والقراءات، **والردّ على أهل الزيغ والضلالات**»[1].

وقد وفّى الإمام أبو عبد الله بما وعد، فقد أسهب في بيان معايب الصوفية، وفساد مذهب الغلاة منهم، وكذلك تتبّع عورات الشيعة، في قضايا عقدية وفقهية عديدة، وردّ عليهم ـ وعلى غيرهم ـ من القدرية[2] والمعتزلة[3] والخوارج[4] والمرجئة[5] والكرامية[6] والحلولية والزنادقة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/٣)

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (١/٩٨، ١٣٣، ١٤٩، ١٨١، ١٩٤، ٢٨٩، ٣٠٢، ٣٥٦)، وغيرها كثير.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (١/١٠١، ١٤٩، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٦١، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣٢٦، ٣٥٦، ٣٧٨)، وغيرها كثير.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (١/٣٨، و٢/١٠٩، ١٣٤، ١٦٦، ٣٥٠، ٣٦٣) وغيرها كثير.

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (٢/١٥٧ و٤/١٦٠، ١٦٢ و٧/٨٧ و١١/١٤١ و٢٠/٨٧).

(٦) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (١/١٩٣).

والقرامطة[1]، والقائلين بالطبع[2]، إلى غيرها من الفِرَق[3] التي لا نستطيع في مثل هذا البحث أن نتتبع مناقشاته لهم في آرائهم لإبطال حججهم الواهية، رغبةً منه في ردّهم عن غيّهم، إلى واضحة أهل السُنّة والجماعة.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (٣/٤٧ و٤/١٤، ١٦٢ و٥/٢٥٣ و٧/٥٣ و١١/٢٣٨ و١٥/٣٧، ٢٠٠).
(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»: (٤/٧ و١١/٢ و٩/٢٨١).
(٣) وتكلم عليها القرطبي بإسهاب في «الجامع لأحكام القرآن»: (٤/١٦٠ ـ ١٦٤).

الخاتمة

هذا هو أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، رجل عاش مأساة الأندلس، فتركها في ريعان شبابه، وسافر إلى مصر، ونزل الصعيد، واشتغل بالعلم على أئمة عصره، وكبار المحدّثين، وكان من عباد الله الصالحين، أشغل عمره بتفسير كتاب ربّه، فأسفر ذلك عن تفسير عظيم الشأن، سارت به الركبان، وأصبح مرجعاً لجميع الباحثين، وظهر أثره جليّاً في كتب المفسّرين المتأخّرين، كان ـ رحمه الله تعالى ـ إماماً في اللغة والقراءات والفقه، غيوراً على تعاليم الإسلام، عفّاً، فهماً، يقظاً، متفنناً، متبحّراً، ذكياً، من أهل العلم، الغوّاصين على معاني النصوص، جيد النقل، حَسَن التصنيف، معتنياً بالرواية، مجتهداً، كثير القراءة والمطالعة، مُنْصِفاً، بعيداً عن التعصّب، يرفض الجمود على التقليد، مالكي المذهب، ليّن الجانب، رقيق العبارة.

كان وقته ـ رحمه الله تعالى ـ معموراً بين عبادة وتوجّه وتصنيف، مشهوراً بالزهد والورع، والشجاعة والجرأة في الحق، شديد الغيرة على حُرُمات الله تعالى، كثير الشكوى من أهل الضلال والزيغ، لابتعادهم عن الواجبات، ووقوعهم في المحرّمات.

تعلّقت روحه بالآخرة، فعمل ـ بجدٍّ ومَضاء عزيمة ـ لها، وانشغل بذلك عن الدنيا، رغبة حقيقية في الصلة بالله سبحانه، واستشرافاً إلى ملئه الأعلى، وارتباطاً بتعاليم الدين الإسلامي، وتنفيذاً لشعائره، وذلك

كله في إطارٍ من صفاء النيّة، وطهارة القلب، وما كان زهده - رضي الله عنه - إلا زهد العالم الذي يصرفه حبّه للعلم عن الدنيا، ولم يكن انصراف مدّعي التزهّد بقدر ما كان انصراف المشغول بأمر عن آخر، بأمر العلم عن أمر الدنيا، فعُدَّ في سلك الخالدين، والفقهاء والمفسّرين، والزهّاد المصلحين، و(أعلام المسلمين)، الذين أضاءت بهم الدنيا، وأشرق بهم التاريخ.

رحم الله إمامنا القرطبي، ورضي عنه، وأجزل مثوبته، وأعلى في عليّين مقامه، ووفّقنا للسير على نهجه واقتفاء أثره، وحشرنا في زمرته مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً، اللّهمّ آمين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . . .

المصادر والمراجع

- آراء ابن العربي الكلامية: لعمار طالبي. ط الأولى ١٣٩٤ هـ. الشركة الوطنية، الجزائر.
- الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، للّكنوي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة الرشد، الرياض، ط الثانية، ١٤٠٤ هـ.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر.
- أحكام القرآن، لابن العربي ـ تحقيق: علي محمد البجاوي، ط الأولىٰ ١٣٧٨ هـ، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للألباني، المكتب الإسلامي، ط أولى، ١٣٩٩ هـ.
- الاستغناء في أحكام الاستثناء، للقرافي، تحقيق طه محسن، وزارة الأوقاف، العراق، ط أولى، ١٤٠٢ هـ.
- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، لأحمد الناصري: دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤ م.
- الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير لرمزي نعناعة، عمان.
- الإسرائيليات في التفسير والحديث، لمحمد حسين الذهبي، دار الإيمان، دمشق، ط ثانية، ١٤٠٥ هـ.
- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، لمحمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، مصر، ط رابعة، ١٤٠٨ هـ.
- الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي. ط الثالثة ١٩٦٨ م. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

- إظهار الحق، لرحمة الله الكيرانوي، إدارة البحوث العلمية والإفتاء، السعودية، ١٤١٠ هـ.
- أعلام الاسكندرية، لجمال الدين الشيال، دار المعارف، مصر، ط أولى، ١٩٦٥ م.
- الأعلام: للزركلي، دار العلم للملايين. ط السادسة، ١٤٠٤ هـ.
- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، للقرطبي، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، مصر.
- أعلام العرب في العلوم والفنون لعبد الصاحب عمران الدجيلي، ط الثانية ١٣٨٦ هـ، مطبعة النعمان، العراق.
- أقضية الرسول ﷺ، لمحمد بن الفرج القرطبي، ط دار إحياء الكتب، مصر، ١٣٤٦ هـ. وط دار الكتاب اللبناني، تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ١٩٧٨ م، وط دائرة المعارف العثمانية. تحقيق محمد عبد الشكور. ١٤٠٣ هـ (ثلاث طبعات مستقلة).
- الإمام القرطبي، ضمن سلسلة «مع الخالدين للشباب»، لعلي يوسف علي، دار الجيل، ط أولى، ١٤٠٧ هـ.
- أنموذج من الأعمال الخيرية، لمحمد منير آغا، دار ابن حزم، بيروت.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون للبغدادي. وكالة المعارف ١٣٣٦ هـ.
- البداية والنهاية لابن كثير، ط الأولى ١٩٦٦ م، مطبعة السعادة، مصر.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي، مصر، ١٣٨٤ هـ.
- تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط الثالثة.
- تاريخ ابن خلدون، ط الثالثة، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧ م.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، لأحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية.

- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ليوسف أشباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط الثانية، ١٣٧٧ هـ، مؤسسة الخانجي بالقاهرة.
- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢ ـ ٨٩٧ هـ)، لعبد الرحمن الحجي، ط الأولى ١٣٩٦هـ دار القلم، الكويت.
- تاريخ قضاة الأندلس، للنُّباهي المالقي، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠ هـ.
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، للسيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، ١٤٠٨ هـ.
- تبصير المنتبه لتحرير المشتبه، لابن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، ط القاهرة، ١٩٦٤ م.
- تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان، لمرعي الكرمي الحنبلي، تحقيق مشهور حسن سلمان، دار ابن القيم، الدمام، ط أولى.
- التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي، دار الكتاب العربي، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي، ط أولى، ١٤٠٨ هـ (وعلى طبعات أخرى ذكرتُها في الكتاب عند سرد مؤلفات الإمام القرطبي).
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، اعتمدت على نسخة خطية بخط المؤلف، وعلى جميع طبعات الكتاب، وقد ذكرتها في الكتاب عند سرد مؤلفات الإمام.
- تذكرة الحفاظ للذهبي، ط الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- التشيع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي، لمحمد البنداري، دار عمار، الأردن، ط أولى، ١٤٠٨ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، ط الأولى ١٩٦١ م. دار الكتب الحديثة.

- تكملة إكمال الإكمال، لابن نقطة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، ط أولى، ١٤٠٨ هـ.
- التكملة: لابن الأبّار ـ طبع مجريط.
- التكملة في وفيات النقلة، للمنذري، تحقيق بشار عواد، ط مؤسسة الرسالة.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، تحقيق محمد النائب السعيدي، وزارة الأوقاف، المغرب.
- ثعلبة بن حاطب: الصحابي المفترى عليه، لعداب الحمش، دار بدر، السعودية، ط ثانية، ١٤٠٦ هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط الأولى والثانية، دار الكتب المصرية، والمصورات البيروتية.
- جمهرة اللغة، لابن دريد، ط الأولى، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد، ١٣٥١ هـ.
- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول. لعبد اللطيف حمزة، ط الأولى، دار الفكر العربي.
- حسن المحاضرة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الأولى، ١٣٨٧ هـ، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الدكتور أحمد أحمد بَدوي، ط الأولى، مكتبة نهضة مصر.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي، لابن تغري بردي، تحقيق فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٣ هـ.
- دولة الإسلام، للذهبي، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٤ م.

- الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب: لابن فرحون، مطبعة السعادة بمصر، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور.
- ذخائر التراث العربي، لعبد الجبار عبد الرحمن، ط اللجنة الوطنية في العراق، ط أولى، ١٤٠١ هـ.
- الذيل على الروضتين، لأبي شامة المقدسي، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، بعناية عزت العطار.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة للمراكشي، القسم الثاني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٥ م.
- ردود القرطبي على الشيعة، لمشهور حسن سلمان، مكتبة السوادي، ط الأولى، ١٤١٢ هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة.
- الرسالة (مجلة) العدد ٨٥٨ بتاريخ ١٢ من ديسمبر ١٩٤٩ السنة السابعة عشرة، مقال أحمد أحمد بدوي، بعنوان «من المفسرين في عصر الحروب الصليبية: القرطبي».
- الرسل والرسالات، لعمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، ط ثانية، ١٤٠٣ هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، المكتب الإسلامي، ومكتبة المعارف.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للألباني، المكتب الإسلامي ومكتبة المعارف.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، ١٣٩٥ هـ.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث.
- سنن البيهقي، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد ـ الدكن.

- سنن الترمذي، تحقيق وشرح أحمد شاكر، دار إحياء التراث، ط الثانية، ١٤٠٣ هـ.
- سنن الدارقطني، عالم الكتب، ط الثانية، ١٤٠٣ هـ.
- سنن النسائي، دار الفكر، ط أولى، ١٣٤٨ هـ.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٤٢ م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، تحقيق لفيف من العلماء، ط أولى.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية القاهرة، ١٣٤٩ هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي - مكتبة القدس بمصر، ١٣٥١ هـ.
- شكوى القرطبي من أهل زمانه، لمشهور حسن سلمان، دار الكتب الأثرية، الأردن، ط أولى.
- شم العوارض في ذم الروافض، لعلي القاري، تحقيق مشهور حسن سلمان، مكتبة السوادي، ط أولى، ١٤١٢ هـ.
- الشيعة والقرآن، لإحسان إلهي ظهير، الباكستان.
- صحيح البخاري. راجع «فتح الباري».
- صحيح مسلم، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ١٤٠٣ هـ.
- طبقات الشافعية للسبكي، ط الأولى، طبع الحسينية بمصر، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو.
- طبقات الشافعية للأسنوي: تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠ م.
- طبقات علماء الحديث، لمحمد بن عبد الهادي، تحقيق أكرم البُوشي، مؤسسة الرسالة، ط أولى، ١٤٠٩ هـ.

- طبقات المفسرين، للسيوطي، طبع ليدن ١٨٣٩ م.
- طبقات المفسرين، للداودي، تحقيق علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال، مصر، ١٣٩٢ هـ.
- العبر في خبر مَنْ غبر، للذهبي، تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، ط أولى، ١٤٠٥ هـ.
- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، للملك الأشرف الغساني، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، بيروت، ودار البيان، بغداد.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، للفاسي، مؤسسة الرسالة، تحقيق محمد حامد الفقي، ط ثانية، ١٤٠٦ هـ.
- العلو للعلي الغفار، للذهبي، تحقيق عبد الرحمن عثمان، المطبعة السلفية، ١٣٨٨ هـ.
- عيون التواريخ، لابن شاكر الكتبي، تحقيق نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر، وزارة الثقافة، العراق.
- غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري، تحقيق برجستراسر، مكتبة الخانجي، القاهرة. ١٣٥٢ هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، (مصورة الطبعة السلفية)، رقم كتبه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، مكتبة خياط، بيروت.
- فضائل الصحابة، لأحمد بن حنبل، تحقيق وصي الله عباس، مؤسسة الرسالة، ط أولى، ١٤٠٣ هـ.
- فهارس تفسير القرطبي، إعداد مكتب التحقيق في دار الفكر، ط أولى، ١٤٠٧ هـ.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات،

للكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.
- فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية من سنة١٩٣٦ م - ١٩٥٥ م، القسم الأول والثاني، لفؤاد سيد، مطبعة دار الكتب، ١٣٨٠ هـ.
- فهرس المخطوطات العربية المصورة، لمحمد عدنان البخيت، ونوفان رجا، وفالح صالح، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، ط أولى، ١٤٠٦ هـ.
- فهرس مخطوطات كوبريللي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون، استنابول، ١٤٠٦ هـ.
- فهرس مخطوطات مكتبة الموصل، لسالم عبد الرزاق أحمد، مطبعة الأوقاف، بغداد، ١٣٩٦ هـ.
- فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، ط الأميرية، مصر؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- في الأدب الأندلسي، لجودت الركابي، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.
- القرطبي ومنهجه في التفسير، للقصبي زلط، دار الأنصار، مصر، ط أولى، ١٣٩٩ هـ.
- القرطبي والتصوف، لمشهور حسن سلمان، دار الكتب الأثرية، الأردن، ط أولى.
- القرطبي المفسر (سيرة ومنهج) ليوسف عبد الرحمن الفرت، دار القلم، الكويت، ط أولى، ١٤٠٢ هـ.
- قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري، لمحمد عبد الوهاب خلاف، الدار التونسية ١٤٠٤ هـ.
- قصص ضعيفة ومكذوبة، لمشهور حسن سلمان، قيد الإعداد.
- قصة العرب في إسبانيا، لعلي الجارم، دار المعارف بمصر ١٩٥٧ م.
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، للقلقشندي، دار الكتب

الحديثة، مصر، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط أولى، ١٣٨٣ هـ.
- قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة، للقرطبي، دار الصحابة، مصر، تحقيق مجدي فتحي السيد، ط أولى. ١٤٠٩ هـ.
- الكافي الشّاف في تخريج أحاديث الكشاف، لابن حجر العسقلاني، مطبوع آخر «الكشاف». للزمخشري، دار المعرفة.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٦ هـ.
- الكتاب (العهد القديم)، جمعية الكتاب المقدس المتحدة، بيروت، ١٩٥٦ م.
- كشاف تحليلي للمسائل الفقهية في تفسير القرطبي، لمشهور حسن سلمان وجمال عبد اللطيف، مكتبة الصديق ـ الطائف ودار ابن القيم ـ الدمام، ط أولى، ١٤٠٥ هـ.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، طبع وكالة المعارف ١٣٦٠ هـ.
- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، لنجم الدين الغزي، تحقيق جبرائيل سمور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الثانية، ١٩٧٩ م.
- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير، مكتبة حسام الدين القدسي، القاهرة، ١٣٦٩ هـ.
- المتكلمون في الرجال، للسخاوي، ضمن «أربع رسائل في علوم الحديث»، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة الرشد، ط الخامسة، ١٤٠٤ هـ.
- مجلة المجمع العلمي، مقالة الشيخ محمد بهجة البيطار «تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي»: ج ـ ٢٠، ع ٧ ـ ١٢، السنة ١٩٤٥ م، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٥.

- مجلة الورد، م ٢ ع ٢ ص ١٩٤ وم ٤ ع ١ ص ٢١٦ - ٢١٧، مقالة عن فهرس مخطوطات مكتبة شستربتي بإيرلندة.
- المجمل في تاريخ الأندلس، لعبد الحميد العبادي، ط الأولى ١٩٥٨ م. مكتبة النهضة المصرية.
- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم النجدي، إدارة البحوث، السعودية، ١٣٩٨ هـ.
- محنة مسلمي الأندلس. محمد عبده حتاملة، ط الأولى، الجامعة الأردنية، ١٣٩٧ هـ.
- مختار تفسير القرطبي: لتوفيق الحكيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٧٧ م.
- مختصر التحفة الاثني عشرية، للدهلوي، تعريب غلام محمد الأسلمي، اختصار محمود الآلوسي، تحقيق محب الدين الخطيب، إدارة البحوث العلمية، السعودية، ١٤٠٤ هـ.
- مختصر تذكرة الإمام القرطبي، للشعراني، ط محمد علي صبيح وأولاده بمصر ١٣٨٨ هـ.
- مختصر الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية، دار الفكر، بيروت.
- المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء، ط الأولى، مصر.
- مدرسة التفسير في الأندلس، لمصطفى إبراهيم المشني، مؤسسة الرسالة، ط أولى، ١٤٠٦ هـ.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، لليافعي، ط حيدر آباد الدكن، ١٣٣٩ هـ.
- المستدرك، للحاكم النيسابوري، دار الفكر، ١٣٩٨ هـ.
- مستفاد من الرحلة والاغتراب، للتجيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تحقيق عبد الحفيظ منصور.
- المسند لأحمد بن حنبل، دار المعارف، ١٣٦٨ هـ.

- المشتبه في الرجال، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- مصنف بن أبي شيبة، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن.
- مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط ثانية، ١٤٠٣ هـ.
- معجم الأدباء (إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب)، لياقوت الحموي، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مطبوعات دار المأمون، ١٩٣٦ م.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧١ هـ.
- معجم الشيوخ، للذهبي، تحقيق محمد حبيب الهيلة، دار الصديق، ط أولى، ١٤٠٨ هـ.
- المعجم المختص بالمحدثين، للذهبي، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط أولى، ١٤٠٨ هـ.
- معجم المصنفات الواردة في فتح الباري، لمشهور حسن سلمان ورائد صبري، دار الهجرة، السعودية، ط أولى، ١٤١٢ هـ.
- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- معرفة القراء الكبار، للذهبي، تحقيق بشار عواد وجماعة، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤ هـ.
- المعين في طبقات المحدثين، للذهبي، تحقيق همام سعيد، دار الفرقان، الأردن، ط أولى، ١٤٠٤ هـ.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة، لطاش كبري زاده، تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر، ١٩٦٨ م.
- المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، لمحمد عبد الرحمن المغراوي، دار طيبة، ط أولى، ١٤٠٥ هـ.
- المقدمة لابن خلدون، ط الثالثة، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧ م.

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، ط أولى، ١٤٠٥ هـ.
- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، لابن رشيد الفهري، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية، ط أولى، ١٤٠١ هـ.
- الملل والنحل للشهرستاني، مكتبة خياط، بيروت.
- من الجامع لأحكام القرآن، اختيار وتعليق وتقديم محمد أديب الصالح، المكتب الإسلامي، ١٣٩٥ هـ.
- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٣٩٠ هـ.
- منتقى فرحة الأنفس، لابن غالب، ضمن مجلة «معهد المخطوطات العربية»، مجلد (١) جزء (٢).
- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٦ هـ.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي، تحقيق محمد أمين وسعيد عاشور ونبيل عبد العزيز، الهيئة المصرية للكتاب، ١٤٠٤ هـ.
- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للهيثمي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية.
- المؤتلف والمختلف، للدارقطني، تحقيق موفق عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٦ هـ.
- الموضوعات، لابن الجوزي، دار الفكر، بيروت.
- الموطأ للإمام مالك، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث.
- ميزان الاعتدال، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، لابن تغري بردي الأتابكي، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٩٢٩ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقّري التلمساني، تحقيق محمد محيـي الدين عبد الحميد، ط الأولى، ١٣٦٧ هـ، وتحقيق د. إحسان عباس.
- نوادر المخطوطات العربية وأماكن وجودها، لأحمد تيمور باشا. دار الكتاب الجديد تحقيق صلاح الدين المنجد، ط أولى، ١٤٠٠ هـ.
- نيل الابتهاج لتطريز الديباج، لبابا التنبكتي، مطبوع بهامش «الديباج المذهب».
- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي وكالة المعارف استانبول ١٩٥٥ م.
- الوافي بالوفيات، للصفـدي، جمعية المستشـرقين الألمان، تحقيق مجموعة.
- وصف جديد لقرطبة، لمؤلف مجهول، تحقيق حسين مؤنس، ضمن «صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية»، مجلد (١٣).
- الوفيات لابن قنفذ القسنطيني، تحقيق عـادل نويهض، ط الأولى، ١٩٧١ م، المكتبة التجارية للطباعة، بيروت.
- الوفيات، لابن رافع السَّلاّمي، تحقيق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢ هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

أعـــلام المسلمين

سلسلة تراجم إسـلامية تجمـع بين العلم والفكـر والتوجيـه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ــ عبد الله بن المبارك
تأليف: محمد عثمان جمال

٢ ــ الإمام الشافعي
تأليف: عبد الغني الدقر

٣ ــ مصعب بن عمير
تأليف: محمد حسن بريغش

٤ ــ عبد الله بن رواحة
تأليف: د. جميل سلطان

٥ ــ أبو حنيفة النعمان
تأليف: وهبـي غاوجي الألباني

٦ ــ عبد الله بن عمر
تأليف: محيـي الدين مستو

٧ ــ أنس بن مالك
تأليف: عبد الحميد طهماز

٨ ــ سعيد بن المسيِّب
تأليف: د. وهبة الزحيلي

٩ ــ السلطان محمد الفاتح
تأليف: د. عبد السلام فهمي

١٠ــ الإمام النووي
تأليف: عبد الغني الدقر

١١ــ الشيخ محمد الحامد
تأليف: عبد الحميد طهماز

١٢ــ السيدة عائشة
تأليف: عبد الحميد طهماز

١٣ــ الإمام البخاري
تأليف: د. تقي الدين الندوي المظاهري

١٤ــ عبادة بن الصامت
تأليف: د. وهبة الزحيلي

١٥ــ عبد الله بن عباس
تأليف: د. مصطفى الخن

١٦ــ جابر بن عبد الله
تأليف: وهبـي غاوجي الألباني

١٧ــ أحمد بن حنبل
تأليف: عبد الغني الدقر

١٨ــ كعب بن مالك
تأليف: د. سامي مكي العاني

١٩ــ أبو داود
تأليف: د. تقي الدين الندوي المظاهري

٢٠ــ أسامة بن زيد
تأليف: د. وهبة الزحيلي

٢١ــ معاوية بن أبـي سفيان
تأليف: منير الغضبان

٢٢ــ عدي بن حاتم الطائي
تأليف: محيـي الدين مستو

٢٣ــ **مالك بن أنس**
تأليف : عبد الغني الدقر
٢٤ــ **عبد الله بن مسعود**
تأليف : عبد الستار الشيخ
٢٥ــ **معاذ بن جبل**
تأليف : عبد الحميد طهماز
٢٦ــ **الإمام الجويني**
تأليف : د. محمد الزحيلي
٢٧ــ **القاضي البيضاوي**
تأليف : د. محمد الزحيلي
٢٨ــ **عبد الحميد بن باديس**
تأليف : مازن مطبقاني
٢٩ــ **تميم بن أوس الداري**
تأليف : محمد محمد حسن شراب
٣٠ــ **السلطان عبد الحميد الثاني**
تأليف : د. محمد حرب
٣١ــ **السيدة خديجة**
تأليف : عبد الحميد طهماز
٣٢ــ **زيد بن ثابت**
تأليف : صفوان داوودي
٣٣ــ **الإمام أبو جعفر الطبري**
تأليف : د. محمد الزحيلي
٣٤ــ **أبو موسى الأشعري**
تأليف : عبد الحميد طهماز
٣٥ــ **أبو عبيد قاسم بن سلام**
تأليف : سائد بكداش
٣٦ــ **أبو جعفر الطحاوي**
تأليف : عبد الله نذير أحمد
٣٧ــ **سفيان بن عيينة**
تأليف : عبد الغني الدقر
٣٨ــ **الحافظ ابن حجر العسقلاني**
تأليف : عبد الستّار الشيخ
٣٩ــ **العز بن عبد السلام**
تأليف : د. محمد الزحيلي
٤٠ــ **عمر بن عبد العزيز**
تأليف : عبد الستّار الشيخ
٤١ــ **الإمام القرطبي**
تأليف : مشهور حسن سلمان
٤٢ــ **سعد بن الربيع**
تأليف : محمد علي كاتبي
٤٣ــ **الإمام الغزالي**
تأليف : صالح أحمد الشامي
٤٤ــ **الإمام الزهري**
تأليف : محمد محمد حسن شراب

تحت الطبع

ــ **عبد القادر الجيلاني
تأليف : د. عبد الرزاق الكيلاني
ــ **الإمام البيهقي
تأليف : د. نجم عبد الرحمن خلف
ــ **الإمام مسلم بن الحجاج
تأليف : مشهور حسن سلمان
ــ **محمد بن الحسن الشيباني
تأليف : د. علي أحمد الندوي
ــ **أُبي بن كعب
تأليف : صفوان داوودي
ــ **الإمام الذهبي
تأليف : عبد الستار الشيخ